

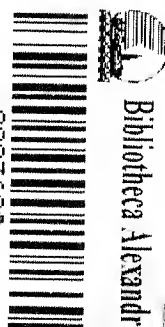
السماع

عند صُوفية الإسلام

د. فاطمة فرّاد

تصدير

أ. د. عاطف العراقي



0093692



Bibliotheca Alexandrina

مكتبة الإسكندرية
العامّة للكتاب

السَّمَاع
عند صوفيّة الإسلام

السَّمَاع

عند صوفية الأيَّام

د. فاطمة فواد

تصدير

د. عاطف العراقي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَلَا تَوَلَّوْا عُنْدَ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا
وَمُرَّا لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ
لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾

سورة الأنفال [آية ٢٠ - ٢٢]

الإهداء

الى أستاذى الجليل

الدكتور / عاطف العراقي

الذى منحنى شرف التلمذة على يديه وشملنى
بفيض نصائح المفكر الجليل لتلميذة فى رحابة
صدر وتواضع .

الى أستاذى الجليل

الدكتور / علاء أحمد حمروش

صاحب الروح المستنيرة بنور الايمان ، والخالدة
بذكراها العطرة الطيبة . والراضية بقضاء الله
تعالى .

فى ذكرى وفاته الأولى .

أهديهما أول ثمرة من ثمرات بحشى العلمى
المتواضع تقديرا لأستاذيتهما وسيرا على نفس
الطريق .

تصدير د. عاطف العراقي

تحتل دراسة التصوف مكانة كبيرة فى فكرنا الفلسفى العربى الاسلامى . نقول هذا اذا وضعنا فى اعتبارنا التمييز بين دائرة ضيقة محددة ودقيقة للفلسفة العربية ، وبين دائرة واسعة لتلك الفلسفة . ان الدائرة الاولى لا يدخل فى اطارها الا الفلاسفة فقط ، فلاسفة العرب أمثال الفارابى وابن سينا والبغدادى (أبو البركات) فى المشرق العربى ، وابن باجه وابن طفيل فى بلاد الأندلس أى المغرب العربى . أما الدائرة الثانية الواسعة الفضاضة فاننا نستطيع أن ندخل فى اطارها ، بالإضافة الى فلاسفة العرب ، أصحاب الفرق الاسلامية كالمعتزلة والأشاعرة والخوارج والشيعة ، أى علم الكلام ، وصوفية الاسلام وسواء مثلوا التصوف السنى والذى اعتمد على المصدر الدينى الاسلامى بالدرجة الاولى ، أو عبروا عن التصوف الفلسفى ، أمثال الحلاج والسهروردى المقتول وابن عربى وابن الفارض وابن سبعين ، والذين اضافوا الى المصدر الدينى الاسلامى ، مصادر خارجية أجنبية كالمصدر اليونانى أو المصدر الفارسى أو المصدر الهندى .

التصوف اذن يدخل فى اطار الفلسفة العربية بمعناها الواسع . وكم بذل الصوفية - وبصرف النظر عن اختلافنا معهم فى المنهج أساساً - الكثير من الجهودات وقدموا لنا العديد من الكتب والرسائل التى تقوم على المنهج الذوقى القلبى الوجدانى ، فى حين اعتمد المتكلمون على المنهج الجدلى ، واعتمد الفلاسفة بالدرجة الاولى على المنهج العقلى البرهانى وخاصة عند آخر فلاسفة العرب ، ابن رشد عميد الفلسفة العقلية فى بلداننا العربية .

ويحتاج التصوف الى العديد من الدراسات ، فمازلنا نجد تراثاً ضخماً للصوفية ، وما زلنا نخلف حول رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها هذا الصوفى أو ذاك من صوفية الاسلام .

ومن هنا كانت سعادتنا حين أقدمت الباحثة فاطمة فؤاد على دراسة موضوع من الموضوعات الصوفية ، وهو موضوع السماع ، هذا الموضوع الذى نجد الآراء العديدة والمختلفة حوله . وقد بذلت الباحثة فى دراستها ، جهدا ، وجهدا كبيرا ، اذ أن هذا الموضوع كان فى الأصل رسالتها للدكتوراة والتى نوقشت بقسم الفلسفة بكلية الآداب ببها . - جامعة الزقازيق - وأشرفت على بحثها مع زميلى وصديقى الأستاذ الدكتور علاء حمروش رحمه الله تعالى برحمته الواسعة . وكم كان يود ان يظهر هذا البحث الى عالم النور ولكن ماذا نفعل ازاء القضاء والقدر . أقول ان الدكتورة فاطمة فؤاد قد بذلت جهدا كبيرا فى دراستها لموضوع السماع عند صوفية الاسلام . ورجعت الى العديد من المصادر والمراجع ، وسواء كانت مصادر ومراجع قديمة ، أو كانت مراجع حديثة تهتم بدراسة التصوف وقضاياها .

وإذا كنا من جانبنا نختلف مع الباحثة حول رأى أو أكثر من الآراء التى ذهبت اليها ، كما نختلف معها حول منهج الصوفية ، وبحيث نقول اننا لا نرتضى بالمنهج العقلى بديلا ، الا أن هذا الاختلاف يعمد شيئا طبيعيا ومتوقعا . أن الخلاف من طبيعة الفلسفة والفلسف ، وخاصة من خصائص الفلسفة ، وبحيث لا نجد فيلسوفا من الفلاسفة ، منذ نشأة الفلسفة فى القرن السادس قبل الميلاد ، قد اتفق مع فيلسوف آخر جملة وتفصيلا .

وقد قسمت الدكتورة فاطمة فؤاد ، كتابها الى مجموعة من الفصول والعناصر والنقاط . قدمت لفصولها بالحديث عن أهمية الموضوع الذى اختارته مجالا للبحث والدراسة ، كما أشارت الى المنهج الذى سارت عليه فى دراستها لموضوع السماع عند صوفية الاسلام .

أما بالنسبة لفصول الرسالة والتى تقدمها اليوم للطبع والنشر ، فقد استطاعت تقسيمها تقسيما دقيقا الى حد كبير ، يدلنا على درايتها بموضوع كتابها .

كشفت فى الفصل الأول من كتابها عن تطور معانى السماع عند صوفية الاسلام ، وأذا كنا نجد أكثر من معنى للسماع ، فقد أشارت الى هذه المعانى المختلفة ، وذلك من خلال الرجوع الى العديد من المصادر والمراجع ، وهذا يدلنا على سعى من جانبها نحو الالتزام بالبعد الأكاديمي الجاد بدرجة ملحوظة .

أما الفصل الثانى من كتابها ، فقد تناولت فيه دراسة السماع والناحية النفسية ، اذ من الواضح أن موضوع السماع يرتبط ارتباطا وثيقا بالجانب النفسى ، وخاصة اذا وضعنا فى الاعتبار أن التصوف فى

اساسه يعد معبرا عن الجانب الذوقى الوجدانى وكم كان ابن سينا على سبيل المثال حريصا فى تصوفه على ابراز هذا الجانب ، وخاصة حين تحدث عن السماع وهو بصدد دراسة درجات العارفين والتى تتمثل فى الارادة والرياضة والأوقات والوصول التام . لقد تحدث عن السماع والألحان فى دراسة لدرجة من درجات حركات العارفين ، وأعنى بها درجة الرياضة .

واذا كانت باحثتنا قد دربت فى الفصل الثانى من كتابها ، ارتباط السماع، بل قيامه على الناحية النفسية الوجدانية القلبية، فإنها خصصت فصلا من كتابها ، وهو الفصل الثالث لدراسة موضوع السماع والترقى الأخلاقى . وكلنا يعرف الصلة الوثيقة بين الجانبين ، وارتباط كل واحدة منهما بالأخرى . لقد رجعت الى العديد من المصادر والمراجع فى تحليلها لهذا الجانب الذى استغرق فصلا بأكمله ، وان كنا نرى أن العديد من آراء الصوفية فى هذا الجانب ، بالإضافة الى الجوانب الأخرى من فكرهم ، كان يحتاج الى وقفة نقدية من جانب الباحثة ، ولكن غلب على دراستها الدفاع عن آراء الصوفية بوجه عام .

انتقلت باحثتنا الدكتورة فاطمة فؤاد فى الفصل الرابع فى كتابها الى تحليل موضوع السماع من خلال علاقته بالمقامات والأحوال وميزت بين المقامات من جهة ، والأحوال من جهة أخرى ، وذلك على النحو الذى نجده فى كتابات الصوفية ، وكتابات من اهتموا بدراسة آرائهم . وإذا كانت الباحثة قد عولت بالدرجة الأولى على المصادر الرئيسية فى دراستها لموضوع هذا الفصل ، فان هذا يكشف عن الجهد الذى قامت به فى الدراسة والبحث والتحليل والمقارنة بين العديد من الآراء .

أما الفصل الخامس والأخير ، فقد كان موضوعه ، السماع والتحقق بالمعرفة والوجود . والجهد فى هذا الفصل من جانب باحثتنا يعد واضحا وبارزا .

ونظرا لالتزام الباحثة بالاطار الأكاديمى فى الدراسة والتحليل ، فقد وجدت لزاما عليها ذكر قائمة بأسماء المصادر والمراجع التى استعانت بها فى دراستها وهذا ان دلنا على شئ ، فانما يدلنا على أمانتها العلمية فى البحث والدراسة .

ان الكتاب الذى تقدمه اليوم الدكتورة فاطمة فؤاد ، مفيد للباحثين والدارسين والمهتمين بالفكر الفلسفى العربى عامة ، والتصوف على وجه الخصوص . وأرجو لباحثتنا كل تقدم فى المستقبل نحو البحث والدراسة ، وهى تملك أدوات البحث ، والمجال أمامها يعد

مفتوحاً ، اذا ما أكثر الموضوعات الصوفية التي تحتاج الى عدد ضخم من الباحثين والدارسين وحتى نستطيع فهم تراثنا القديم فهما دقيقاً وموضوعياً وبحيث نأخذ منه ما نأخذ ، ونرفض منه ما نرفض . نأخذ الجانب المشرق للوضاء منه ، ونبتعد تماماً عن الجانب المظلم منه والذي لا يتفق مع مطالب حياتنا التي نعيشها ، وحياتنا عند الدخول في القرن الجديد ، القرن الواحد والعشرين .

اننا من جانبنا لا نتردد في القول بأن هذا البحث الذي تقدمه الدكتورة فاطمة فؤاد للنشر والطبع ، يعد خطوة على الطريق ، وكلنا أمل أن تواصل باحثتنا مسيرة الدراسة والبحث .

والله هو الموفق للسداد .

عاطف العراقي

مدينة نصر في العاشر من ديسمبر

عام ١٩٩٦ م

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه • وبعد •••

فالسماع عند صوفية الاسلام هو احدى الرياضات الروحية التي يمارسها المريد من أجل التطهر والصفاء ، ولكنه على ما فيه من تطهر وصفاء وما يثيره في الشعور والعقل من متاع ، لم يعن به الباحثون العناية التي تكفى للكشف عن معانى السماع وتطورها عند صوفية الاسلام ، وعما اذا كان لهذه الرياضة من آثار قيمة في حياة الفكر والروح والدين ، وهو لما يتمتع به من هذه الأهمية وما يثيره في النفس من هذا المتاع قد أقبل عليه كثير من المستشرقين وعلماء التحليل النفسى ، وقد درسوه دراسة علمية منظمة كان من نتائجها الكثير من البحوث الخصبة ذات القيمة والأهمية العلمية والدينية والاجتماعية •

وقد عنى هذا البحث بدراسة السماع عند الصوفية خاصة وأنه يناقش قضية لم تحظ بالاهتمام الواسع من جانب الباحثين في الفكر الاسلامى بصفة عامة ، والفكر الصوفى بصفة خاصة ، حتى يتسنى لنا معرفة حقيقة السماع عند الصوفية وموقف الاسلام من سماع الغناء ، وكذلك موقف الصوفية من أنواع السماع المختلفة ، حيث تعددت الآراء حول سماع الغناء فمنهم من أباحه ومنهم من عارضه ، ومنهم من أباحه مع الكراهة ، واستدلوا على ذلك بالأحاديث النبوية الشريفة ، كما أن للسماع عند الصوفية جوانبه النفسية والأخلاقية ، بالإضافة الى جوانبه المعرفية •

فالسماع هو العمود الأساسى فى الإيمان بالحق ورسوله ، مثله فى ذلك مثل البصر ، اذ لا يحب العبد الشيء الا عن طريق السماع عنه أو المشاهدة له ، ومن ثم فإن السماع شرط أساسى فى الإيمان لا يمكن اهماله أو اغفاله •

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه الآن هو :

— أى نوع من أنواع السماع يكون العمود الأساسى فى الايمان ؟

— نقول أولا : هو السماع الحق الذى لا يثير الشهوات ولا يحرك الأهواء وخباثت النفس ووسواسها ، فمثل هذا السماع يعارضه الشرع ويخرج بصاحبه الى ارتكاب المعاصى والذنوب ، ولكن السماع الحق هو سماع آيات الذكر الحكيم ، وكذلك سماع الأشعار ، وكل ما يحدث على العبادة ، والطاعة من غير الخروج عن حدود السماع ، والتفهم لمعانى المسموع وتدبر معانيه .

ودراسة موضوع السماع عند الصوفية ليس بالأمر الهين ، وبدافع من الرغبة الصادقة فى العناية بتراثنا الاسلامى حاولت جاهدة دراسة تطور معانى السماع عند صوفية الاسلام ، كما عالجت المعانى الاصطلاحية للسماع عندهم وربطها بالكتاب والسنة ، وألقيت الضوء على السماع من الناحية النفسية وما يعانيه المستمع من مشاعر وأحاسيس واستمتاعه بسماع الأصوات الجميلة والموسيقا العذبة للترويح عن نفسه من أعباء الحياة ؛ إذ أن النفس تستلذ النغمات الطيبة وتستجيب لها .

فالسماع هو إحدى الرياضات الروحية التى يمارسها المريد من أجل التطهر والصفاء ، ومحاولة تخلي النفس عن أخطائها وتذكرها الدائم للحق تعالى .

ولقد أقدمت على اختيار هذا الموضوع بالرغم من العديد من الصعاب ، وجمعت من مصادر هذا البحث كل ما تيسر ، وتأنيت فيه ما وسعنى الجهد احساسا منى بأهمية موضوع السماع ، خاصة وقد انتشرت مجالس الذكر والشرب والفساد فى الموالد تحت شعار السماع الصوفى .

كما عنيانا فى هذا البحث أيضا تتبع أقوال الصوفية على اختلاف عصورهم ومذاهبهم فى السماع من ناحية الظاهر ومقارنة بعضها ببعض الآخر ، مما يظهرنا على التطور التاريخى لهذه الظاهرة ودورها فى بناء الطريق الصوفى ، كما لم يغفل البحث أيضا المقارنة بين آراء كل الصوفية والفقهاء .

أما عن منهجنا فى هذا البحث ؛ فهو المنهج التاريخى ، من خلال عرض نصوص الصوفية حول معانى السماع على مر العصور ، وكذلك المنهج التحليلى الذى يقوم على تحليل النصوص واستعراضها بطريقة موجزة مؤيدة بالكتاب والسنة .

ويتألف البحث من مقدمة وخمسة فصول ، فبعد أن استعرضنا في المقدمة أهمية الموضوع ومنهجنا في دراسته ، جملنا الفصل الأول لموضوع السماع عند الصوفية من حيث تطور معانيه ، وبدأناه باستناد السماع الى مصدر اسلامي من الكتاب والسنة ، وعما يمكن أن يكون لادى الزهاد في القرنين الأول والثاني للهجرة من معانى السماع ، بالاضافة الى اعطاء لمحة سريعة عن السماع وآلته من الناحية الطبية ، ثم التعريف بالسماع واطهار العلاقة بينه وبين الأذن ، وفي الفصل أيضا معالجة للمعاني الاصطلاحية للسماع عند الصوفية السنيين والمتفلسفين في القرنين السادس والسابع مع ربطها بالكتاب والسنة ، باعتبارهما المصدرين الأساسيين للتصوف الاسلامي الخالص .

ويأتى بعد ذلك الفصل الثانى لمعالجة ظاهرة السماع من ناحيتها النفسية ومن حيث صلتها بما يعاينه الصوفى من مشاعر وأحاسيس داخلية مختلفة أثناء قيامه بباقي الرياضات والمجاهدات البدنية الأخرى ، وقد حاولنا أيضا تحديد دور النغمات فى نفس السالك ، إذ أن النفس تستلذ وتطرب بالنغمات والأصوات الجميلة .

أما الفصل الثالث فعالجت فيه ارتباط السماع بالسلوك من الناحية الأخلاقية ودور السماع فى الترقى الأخلاقى بالسلوك من خلال ترك سماع مجالس السوء والفحش ، والمصارعة الى مجالس العلم والحكمة ، وكل ما من شأنه أن يعلى بالانسان من الناحية الأخلاقية ، وكذلك تعرضت — أيضا — للعديد من الآداب التى لا بد لكل مريد من الالتزام بها فى مجالس السماع .

ويجىء بعد ذلك الفصل الرابع ليتناول ارتباط السماع بالمقامات والأحوال ، وكيف أن المريد لا ينتقل من مقام الى مقام الا اذا تحقق فى المقام الذى هو فيه ، وكذلك الحال ، ومن بين هذه الأحوال حال الفناء والبقاء والوصول والقبض والبسط وغير ذلك ؛ إذ جعل الصوفية السماع هو الوقت الذى لا يضيعه المريد فى الباطل وإنما يسمع ويحقق فيه ما يسمعه بحيث لا يعارض آداب الكتاب والسنة ، فالسماع اذن وسيلة وأداة للوصول المريد الى الحق تعالى .

وتنتهى فصول البحث بفصل خامس تناولت فيه صلة السماع بالمعرفة الكشفية التى يصل اليها الصوفى فى نهاية الطريق من خلال الوجد الوارد عليه من قبل الحق تعالى ، وفناؤه عن كل ما حوله وتحققه بالمعرفة الالهية ، كذلك حاولنا الربط بين المعرفة الحاصلة عن السماع

وتصورهم للوجود ، كما فسرنا التصورات المختلفة في تفسير الوجود
التي يقدمها لنا صوفية الاسلام وارتباطها بالسمع مثل القول بالوحدة
والاتحاد والحلول عند صوفية الشطح ، ووحدة الوجود عند أصحاب
الوحدة .

واختتمت هذا البحث بتعقيب وخاتمة ، لخصت فيها أهم النتائج
التي توصلت اليها وبينت أثرها من قيمة في الحياة من الناحيتين الروحية
والعملية ، وفي النهاية عرضت أهم المراجع العربية والأجنبية .

تلك المامة موجزة بأهم العناصر التي تتألف منها فصول هذا البحث
الذي أتقدم به الى قسم الفلسفة بكلية الآداب بينها للحصول على درجة
الدكتوراه في الفلسفة .

ولعلني بهذا أكون قد قمت بواجبي نحو الكشف عن موضوع السماع
عند صوفية الاسلام ، وتطوره خلال العصور المزدهرة للتصوف
الاسلامى .

ولقد سعدت بمن أشرفوا على هذا البحث : أستاذي الجليل والمفكر
العظيم الأستاذ الدكتور / محمد عاطف العراقي ، أستاذ الفلسفة
العربية بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، وأيضا أستاذي الفاضل
والأب الروحي لكل أبنائه الأستاذ الدكتور / علاء أحمد حمروش ،
أستاذ الفلسفة الاسلامية ورئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب بينها ،
جامعة الزقازيق ورئيس المركز القومي لثقافة الطفل بالهرم ، فلقد فزت
بالكثير من جهدهما ووقتهما في تصحيح بعض الأخطاء العلمية والمنهجية،
وتحليل بعض النصوص والكشف عن معانيها الغامضة على ، فجزاهما
الله عنى وعن أخواني الباحثين خير الجزاء وأطال الله في عمرهما .

والله الموفق واليه يرجع الأمر كله

الفصل الأول

تطور معنى السماع عند صوفية الإسلام

— تمهيد :

- أولا : تعريف السماع
- ثانيا : السماع والكتاب والسنة
- ثالثا : معنى السماع عند زهاد القرنين الأول والثاني للهجرة
- رابعا : معنى السماع عند صوفية القرنين الثالث والرابع للهجرة
- خامسا : معنى السماع عند الصوفية السنيين
- سادسا : معنى السماع عند الصوفية المتفلسفين منذ القرنين السادس والسابع للهجرة
- سابعا : موقف الفقهاء ورجال الدين من السماع خاصة عند الصوفية

تمهيد :

إذا أردنا بداية أن نعرف شيئاً عن رياضة السماع وتطورها والعوامل المؤثرة فيها ، أو عن السماع عند العامة والخاصة وما يثمره في نفوسهم وارتباط ذلك السماع بالكتاب والسنة ، فإنه يتضح لنا اختلاف الصوفية حوله في الظاهر ، ولكنهم في الحقيقة متفقون على أن الأصل والمصدر الأساسى واحد ألا وهو الكتاب والسنة ، وإن استدعى القياس ، ولهذا حاولنا أن نوضح في هذا الفصل تطور معانى السماع عند صوفية الاسلام ابتداء من الزهاد في القرنين الأول والثاني للهجرة ثم صوفية القرنين الثالث والرابع للهجرة والصوفية السنيين من أصحاب الطرق ، وكذلك الصوفية المتفلسفين حتى نهاية القرنين السادس والسابع للهجرة .

والكلام في السماع ومعانيه المختلفة وأقسامه ومراحلته وسلوك النفس وآدابها وقت السماع ، خط مشترك بين صوفية القرنين الثالث والرابع جميعاً ، وكتبهم حافلة بالكثير من أقوالهم في ذلك ، ومن بين هذه الأقوال المتعمقة فى السماع قول أبى بكر الكتانى (ت ٣٢٢ هـ) : « سماع العوام على متابعة الطبع وسماع المريدين رغبة ورهبة ، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعماء ، وسماع العارفين على المشاهدة وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان ، ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام » (١) .

(١) عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية ، طبعة الخانجي ١٩٥٣ م ، ص ٣٧٥ ، وانظر أيضاً أنسهروردى ، شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد : عوارف المعارف ، الجزء الخامس من أحياء علوم الدين ، مكتبة الحلبي عام ١٢٨٧ هـ - ١٩٦٨ م ، ص ١٦٦ .

(هو محمد بن على بن جعفر الكتانى وكنيته أبو بكر ويقال أبو عبد الله وأبو بكر أصح ، أصله من بغداد صاحب الجنيد وأبا سعيد الخراز وأبا الحسن النوى ، وأقام بمكة إلى أن مات سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة ، انظر الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١٧٢ ، وانظر طبقات الصوفية ، طبعة ليدن ، ص ٣٨٦) .

والسمع لا يقتصر فقط على الغناء الموسيقى والانشاد وانما يمتد الى سماع القرآن الكريم ومجالس العلم والمعرفة ، وهذا النوع الأخير من السماع ليس هناك خلاف على ابحاثه ، اذ أن الحق تعالى أمر العباد بسماعه والانصات له وتدبر معانيه وفهمها ، اذ يقول الحق تعالى :

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢)

لكن الاختلاف الذى دار بين الصوفية حول سماع القرآن وما يثمر عنه الوجد كأن يغشى على صاحب الوجد أو يصفق أو يبكى بصوت مرتفع أو يرتقى على الأرض بسبب سماعه لآيات الذكر الحكيم ، فمن العلماء من يبيح ذلك ، ومنهم من ينكره ، لكن الالتزام بالهدوء والثبات والخشوع فى الاستماع الى القرآن فيه وقار واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة .

أولاً : تعريف السماع :

السؤال الذى يطرح نفسه فى البداية هو : ما هو السماع ؟ وما هى الله وما هى الخصائص العامة التى اذا وجدت فى سماع ما صح من جانبنا ان نصفه بأنه السماع الصوفى (الشرعى) ؟ .

نقول — بداءة — ان السماع بوجه عام « حس الأذن » ، ويرد كثيراً بمعنى ما يصل الى السمع كالموسيقى والانصات اليها ، . . . ، ويقال فى أصول اللغة والنحو (السماعى) وهو ضد القياس . . . ، ويرد فى علم الكلام هو و (سمع) بالمعنى نفسه ، ويكون بذلك ضد العقل . . . ، ولكن أهم استعمال للسمع بالمعنى الاصطلاحي هو بلا شك استعمال الصوفية له « (٣) » .

فالسمع اذن له فائدة عظيمة لا تقل أهمية عن فائدة الابصار ، فالسمع هو وسيلة من وسائل المعرفة واللذة ، فمن طريق السمع يعرف العبد ربه وما يجب عليه تجاه ربه من عبادات وطاعات ، من خلال

(٢) سورة الاعراف : آية (٢٠٤) .

(٣) خورشيد (د . ابراهيم زكى) : دائرة المعارف الاسلامية أصدرها باللغة العربية احمد الششتاوى ، وابراهيم زكى خورشيد ، مكتبة دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ج ١٢ ، ص ١٨٨ .

سماعه للقرآن الكريم ومجالس العلم والذكر والوعظ ، وكل ما من شأنه يحث على الطاعة .

وتد حفلت كتب الصوفية بالعديد من الأقوال التى توضح ظاهرة السماع وفائدتها من الناحية الدينية وأيضا من الناحية العملية والاجتماعية والأخلاقية ، كما حفلت مؤلفات علماء النفس بالعديد من الأبحاث والدراسات التى توضح حاسة السمع وآلتها الأذن ، والوصف العلمى والتفصيلى لمكونات الأذن الرئيسية ووظائف كل من هذه الأجزاء « والمنبه الصوتى هو عبارة عن موجات هوائية تصل القوقعة عن طريق الطبلة والعظيمات والسائل الليمفى الموجود فى الأذن الباطنية » (٤) .

والسمع له مفهوم عام يشمل كل ما يسمعه الانسان من موسيقيا عذبة وغناء وأصوات مطربة ، ولا شك أن الانسان يستمتع ويستلذ بسماع الأصوات الجميلة والموسيقا العذبة للترويح عن نفسه وإزالة هموم الحياة وأعبائها من قلبه ، فالنفس تستلذ النغمات الطيبة وتنفعل بها انفعالا فطريا .

وقد وردت العديد من التعريفات العامة للسمع ، منها تعريف الجرجاني بأن السمع هو « قوة مودعة فى العصب المفروش فى مقعر الصماخ تدرك بها الأصوات بطريقة وصول الهواء المتكيف بكيفية الصوت.

(٤) مراد (د يوسف) : مبادئ علم النفس العام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، الطبعة الأولى ، ص ٦٢ ، ٦٣ ، وانظر ابن سينا : رسالة القوى الانسانية وإدراكاتها ، مطبعة كردستان العلمية ، ١٩٥٠ ، ص ٣١٤ ، وانظر أيضا د أحمد عكاشة : علم النفس الفسيولوجى ، دار المعارف ١٩٦٨ ، ص ٩٢ : ٩٥ .

حاسة السمع وآلتها الأذن ، ومن أجزائها الرئيسية الطبلة وسلسلة العظيمات ثم الأذن الباطنية وهى تقوم بوظيفتين : الاحساس بالتوازن وإليته الكيبس والشكية والقنوات الهلالية الثلاث ، والاحساس بالأصوات وآلة القوقعة (الطبلة - المطرقة - السندان العظم - العدس - الركاب ٠٠٠ ، والذبذبات الصوتية التى تدركها الأذن البشرية يتراوح سلمها بين ٢٠ ، ٢٠٠٠٠ ذبذبة فى الثانية ، انظر نجاتى (د محمد عثمان نجاتى) : الإدراك الحسى عند ابن سينا ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٨٠ م ، الطبعة الثالثة ، ص ١٠٥ ، وانظر ابن سينا : القانون فى الطب : ج ٣ ، ص ٣٥٤ ، وانظر ابن سينا : الشفاء ، ج ١ ، ص ٤٤٦ .

الى الصماخ السماعى فى اللغة ما ينسب الى السماع . وفى الاصطلاح هو ما لم يذكر فيه قاعدة كلية مشتملة على جزئياته « (٥) » .

ويشرح لنا أرسطو كيف تتم عملية السماع فيقرر أن الأذن هي العضو الخاص بالسمع وأن الحيوان لا يستطيع أن يسمع بجميع أجزاء جسمه ، ذلك لوجود هواء بداخل الأذن يتحرك بتحريك الهواء الخارجى ، وهذا ما يؤكده بقوله : « هناك هواء يوجد متحدا اتحادا طبيعيا بعضو السمع ، وحيث أن عضو السمع فى الهواء ، فاذا تحرك الهواء الخارجى تحرك الهواء الموجود داخل الأذن كذلك ، وهذا هو السبب أن الحيوان لا يسمع بجميع مواضع جسمه » (٦) .

مما سبق يتضح لنا أن آلة السماع هي الأذن ، وأن باقى الأجزاء الموجودة بالجسم لا تتمتع بالسمع ، لما فى الأذن من هواء داخلى يتحرك بتحريك الهواء الخارجى ، وأن الأصوات نوعان : طبيعية ، وغير طبيعية ، والطبيعية هي أصوات الريح والخشب والجمادات ، أما الغير طبيعية فهي أما حيوانية ، أو غير حيوانية ، فالحيوانية هي أصوات الحيوانات ، أما غير الحيوانية فهي أصوات الناس سواء كانت مفهومة كالكلام أم غير مفهومة كالضحك والبكاء .

ولحاسة السمع ما للحواس الأخرى من قيمة عقلية فهي تدرك الأصوات البعيدة مما يتيح فرصة الاستعداد لمواجهة الموقف بطريقة ناجحة ، كما أن السمع أيضا وسيلة من وسائل الإدراك والأمن وهو يفوز بذلك على حاسة البصر، وهذا ما يوضحه علم النفس الفسيولوجى : « السمع كالبصر ، يتيح لنا استقبال المؤثرات الحسية الناشئة من

(٥) الجرجانى (الشريف على بن محمد) : التعريفات ، المطبعة الزهنية ، القاهرة ، ١٢٨٣ هـ ، ص ٨٢ ، وانظر الغزالى (أبو حامد) : معارج القدس فى مدارج النفس ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٤٥ - ٤٦ ، وانظر أيضا ابن رشد : كتاب النفس ، تحقيق د. أحمد فؤاد الأهوانى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠ م ، ص ٣٥ .

(٦) أرسطو : كتاب النفس ، تحقيق د. أحمد فؤاد الأهوانى ، مراجعة الأب جورج شحاتة قنوتى ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٨١ م ، ص ٧١ ، وانظر العراقى (١) د. محمد هاطف) : مذاهب فلاسفة المشرق ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨ م ، الطبعة السادسة (كما بين لنا أيضا اخوان الصفا كيف تتم عملية ادراك القوة السامعة للأصوات على اختلاف أنواعها أن الأصوات نوعان : حيوانية وغير حيوانية نراعان طبيعية وآلية ٠٠٠ ، وانظر اخوان الصفا الرسائل ، مطبعة نخبة الأخبار ، القاهرة ، ١٣٠٥ هـ ، ص ١٣٧) .

مصادر بعيدة ومع أن صلاح أحوالنا أقل اعتماداً على رهافة أسماعنا منه على حدة أبصارنا إلا أن السمع وسيلة هامة للإدراك والأمن» (٧) .

هذا هو التعريف العام لمفهوم السماع وآلته من وجهة نظر علماء النفس ، أما عن تعريف السماع من الناحية الشرعية ، فهو ما سوف نتعرف عليه من خلال عرض آراء للأئمة الأربعة ، وكيف نحكم على أن هذا السماع شرعى أم لا .

ثانيا : السماع والكتاب والسنة :

هذا عن السماع عموماً ، أما عن تعريف السماع من وجهة نظر الشرع واعتماده على مصدر إسلامي من الكتاب والسنة فهو أن « السمع احساس الأذن بالأصوات ، والسمع كمفردة من مفردات القرآن جاء في ٢٢ موضعاً » (٨) ، قال تعالى :

إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَخْرُولُونَ (٩) .

وقوله تعالى :

الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْمَعُونَ
سَمْعًا (١٠) .

أو يكون السمع بمعنى الأذن نفسها ومنها قوله تعالى :

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى
أَبْصَارِهِمْ غَشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) .

(٧) د. أحمد عكاشة : علم النفس الفسيولوجي ، دار المعارف ، ١٩٦٨م ، صص

٩١ : ٩٥ .

(٨) د. أحمد عطية : القاموس الإسلامى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،

١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م ، ج ٣ ، ص ٤٩٧ .

(٩) سورة الشعراء : آية (٢١٢) .

(١٠) سورة الكهف : آية (١٠١) .

(١١) سورة البقرة : آية (٧) .

أو يكون بمعنى الإدراك والفهم عن طريق المسموعات ... أو يكون السمع كذلك بمعنى الطاعة فقال تعالى :

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٢) .

كما ورد عدد من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحت على السماع وتدعو اليه ، منها قول البراء بن عازب : (سمعت رسول الله ﷺ — يقول « حسنوا القرآن بأصواتكم ، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا » (١٣) .

وينصح الرسول — ﷺ — القارئ بتحسين الصوت في القراءة ؛ ذلك لأن الصوت الحسن يجذب انتباه السامع ويجعله يفهم معانيه .

وفي الخبر أن رسول الله — ﷺ — كان ينتظر عائشة (رضى الله عنها — فأبطأت عليه ، فقال ما حبسك ؟ فقالت : يا رسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتا منه فقام — ﷺ — حتى أستمع اليه طويلا ، ثم رجع فقال : « هذا سالم مولى أبى حذيفة ، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله » (١٤) ، وأستمع رسول الله أيضا الى قراءة أبى موسى الأشعرى فقال : « لقد أوتى هذا زممارا من مزامير آل داود » فبلغ ذلك أبا موسى فقال : يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا (١٥) . (١٦) .

(١٢) سورة الأنفال : آية (٢١) .

(١٣) ابن حنبل (الامام أحمد) : مسند ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ م ، ص ٣ ، وانظر صحيح البخارى ، آداب ٩٠ ، وانظر صحيح الترمذى ، آداب ٦٩ ، أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث البراء بن عازب ، وانظر أبى طالب المكي : قوت القلوب فى معاملة المحبوب . مكتبة الحلبي ١٩٦٤ م : ج ١ ، ص ١٣٦ .

(١٤) أبو طالب المكي : قوت القلوب فى معاملة المحبوب ، مكتبة مصطفى البابى الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ج ١ ص ١٣٦ .

(١٥) التحبير : التزين والتحسين .

(١٦) ابن قيم الجوزية : روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، مكتبة الحلبي ١٣٠٤ هـ ، ص ٢٦٧ : ٢٦٨ ، وانظر قوت القلوب : ج ١ ، ص ١٢٦ ، وانظر صحيح مسلم ، وانظر المشيرى (عبد الكريم بن هوزان) ، تحقيق د. عبد الصليم محمود ومحمود ابن الشريف دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٤ ج ٢ ، ص ٦٤٢ ، وانظر د. محمد مصطفى حلمي : علم التصوف ، القاهرة ، ١٩٨٣ م ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، وانظر السهروردى (شهاب الدين أبو حفص عمر) : عوارف المعارف ، الجزء الخامس من احياء علوم الدين ، مكتبة الحلبي ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٨ م ، ص ١٥٦ .

فالسماح لا يقتصر على القرآن الكريم فقط وإنما يمتد ليشمل سماع
الأشعار والأنشيد الدينية التي تثير السعادة والبهجة الروحية من خلال
القيام بالواجبات والأوامر الإلهية ، وهذا ما يؤيده الحديث الشريف :
روى الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنهما
اجمعين أن أبا بكر - رضي الله تعالى عنه - دخل عليها وعندها جاريتان
تغنيان وتضربان على الدفين ورسول الله ﷺ مسجى بثوبه فانتهرهما
فكشف رسول الله ﷺ عن وجهه وقال : « دعهما يا أبا بكر فانها أيام
عيد » (١٧) .

فالسماح اذن مباح شرعا وله شواهد الصريحة من الكتاب والسنة ،
وذلك ما توضحه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية السابقة ذكرها ،
هذا بالإضافة الى القياس الذي قام به أئمة الفقه الأربعة في محاولة
التعرف على السماع الحق (الشرعى) الذي يدعو اليه الحق تعالى
وكرهه السماع الشيطاني المخرج عن حدود الشرع (سماع الغناء) ،
فقد سئل أبو مصعب مالك بن أنس عن السماع ، « فقال مالك :
ما أدري ، أهل العلم ببلدنا لا ينكرون ذلك ، ولا يتعدون عنه ، ولا ينكره
الا غبي جاهل أو ناسك عراقى غليظ الطبع » (١٨) .

أما عن رأى الشافعى ، فانه يذكر في كتاب أدب القضاء « أن
الغناء لهو مكروه يشبه الباطل والمحال ، ومن استكثر منه فهو سفيفه
ترد شهادته » (١٩) .

(١٧) روى هذا الحديث بصيغ متعددة ، أخرجه البخارى فى صحيحه (باب
العبيدين) ، ورواه ابن ماجه فى سننه عن عائشة ، ج ١ ص ٦١٢ (باب الغناء والدب) ،
وانظر الرسالة القشيرية ج ٢ ، ص ٦٣٩ ، وانظر السراج (أبى نصر) : المع
تحقيق د. عبد الحليم محمود ، طه عبد المبقى فى سرور دار الكتب الحديثة يصر
١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م ، ص ٣٤٥ ، وانظر السهروردي : عوارف المعارف ، دار الكتاب
اللبنانى ، بيروت ، ١٩٧٤ م ، ص ٩٧٤ ، وانظر أبو الفضل (كمال الدين) ، الامتاع بأحكام
السماع ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٦٨ تصوف ، ميكروفيلم ١٢٣٢٥ ، ص ٣٦ ،
وانظر الاسكدارى (محمود بن محمد) : كشف القناع عن وجه السماع ، مخطوط بدار
الكتب المصرية رقم ٢٦٤ فقه تيمور ، ميكروفيلم ٥٠٠٩٥ ، تاريخ النسخ ١٢٨٢ هـ -
عدد ورقة ١٥ ، ص ١٠ .

(١٨) ابن القيسرانى (طاهر المقدس) : كتاب السماع ، تحقيق أبو الوفا المرازى ،
مكتبة لجنة احياء التراث الاسلامى ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م ، ص ٤٦ .

(١٩) ابن قيم (الجوزية) : حكم الاسلام فى الغناء ، تحقيق أبى حذيفة ابراهيم
ابن محمد ، مكتبة الصحابة بطنطا ، ١٩٨٥ م ، ص ١١ ، وانظر كتاب السماع : ص
٤٦ ، ٤٧ ، وانظر أيضا احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ .

أذن فالغناء نوع من أنواع اللهو والخبائث التي أنكرها الشرع ودعا إلى تركها لما فيه من إثارة الشهوة واضاعة الأوقات في الباطل وارتكاب الذنوب ، وهذا ما يوضحه أبو حنيفة عندما جعل سماع الغناء من الذنوب بقوله : « ويجعله من الذنوب ، وكذلك مذهب أهل الكوفة — وسفيان وحيد — إبراهيم — والشعبي وغيرهم . . » (٢٠) .

كما روى عن عبد الله بن أحمد بن حنبل أنه قال « سألت أبي عن الغناء فقال : الغناء ينبت النفاق في القلب ، لا يعجبني » ، ثم ذكر قول مالك (إنما يفعله عندنا الفساق) « (٢١) .

أما عن اعتبار السماع من أهم شروط الإيمان . وارتباطه بالطاعة والعمل بها فليس القرآن الكريم وحده الذي ذكر ذلك وإنما كذلك الانجيل والتوراة وجميع الكتب المقدسة ، « فان سماع كلمة الله وقبولها لا يعنى الاستماع اليها باذن مصفية فحسب ، بل يتضمن فتح القلب لها أيضا ، والعمل والطاعة لها تلك هى طاعة الإيمان التى يتطلبها سماع البشارة . . . ، الا ان الانسان لا يريد أن يسمع وتلك هى درامته (مأساته) ، أنه أصم عن نداءات الله ، وأغلق الأذن والقلب — تلك هى الخطيئة التى واجهها يسوع عند اليهود : « انكم لا تطيقون الاستماع الى كلامى . . من كان من الله سميع كلام الله ، فاذا كنتم لا تسمعون فلأنكم لستم من الله ، أن الله وحده فى الواقع هو الذى يستطيع أن يفتح أذن تلميذه » (٢٢) .

فان صح فهمنا لهذه الآيات الكريمة والأحاديث وآراء الأئمة الأربعة من ناحية ، ومذهب الصوفية فى السماع وأنه مختلف فى المظهر متفق فى الجوهر من ناحية أخرى ، استطعنا أن نلتمس لمذهب الصوفية هنا مصدرا قرآنيا لا شبهة فيه ، ولا اختلاف حوله ، وهما هى أقوال الصوفية فى السماع ابتداء من الزهاد الأوائل حتى الصوفية المتفلسفين فى القرن السابع الهجرى ، تدل على ان المصادر الأساسية عندهم هى الكتاب والسنة .

ثالثا : معنى السماع عند زهاد القرنين : الأول والثانى للهجرة :

فاذا انتقلنا الى تتبع معنى السماع عند زهاد القرنين : الأول والثانى للهجرة ترى أن البذور الأولى لرياضة السماع كانت موجودة عندهم ، فالسماع نسمة روحية تثيرها نفحة الهية فى أصوات تعمل على هياج

(٢٠) حكم الاسلام فى الغناء : ص ١١ ، وانظر عوارف المعارف ، ص ١٦٢ .

(٢١) حكم الاسلام فى الغناء ، ص ١٤ .

(٢٢) معجم اللاهوت الكتابى ، دار الشرق ، بيروت ، ١٩٨٦ م ، ص ٤٣٢ — ٤٣٣ .

ما فى القلوب ، فان هبت هذه النسمة على قلوب طاهرة وأرواح صافية تحقق لهذه القلوب المعرفة الالهية ، وأن هبت على نفوس دنسة وقلوب محجوبة أثارت من داخلها الغرائز الحيوانية والنزعات الشهوانية ، « فالسمع ، اذن ، هو احدى الرياضات الروحية التى يمارسها المريد من أجل التطهر والصفاء وهذا لا يثبت عليه الا أقدام العلماء وقيل السماع مقدحة سلطانية لا تقع نيرانها الا فيمن قلبه محترق بالمحبة ونفسه محترقة بالمجاهدة » (٢٣) .

كما يذهب الزهاد الأوائل الى أن السماع يثير مشاعرهم فى الاقبال على الله — تعالى — والحب له ، ولذلك قسموا الناس فى السماع الى ثلاث درجات ، وأعلى هذه الدرجات هو من كان ساكناً فى سماعه بحيث لا يؤدى سماعه الى اضطراب أو اهتزاز أو غشية ، بل يتدبرون بتفهم معانى المسموع فى هدوء وصمت ، وهذه الدرجة من السماع تثمر فى القلب ما يسمى بالوجد (٢٤) .

فالسمع الذى يتدبر معانيه ويتفهمه المريد هو سماع القرآن الكريم ، أما اذا كان هذا السماع من أجل التذاذ أو شهوة فهذا

(٢٣) السهروردى (عبد القاهر أبو النحيب) : آداب المريدين ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تصوف ١١٧ مجاميع — ميكروفيلم رقم ٥١٨٢٨ ، ١٧٤ وزقة ، ص ٤٧ ، وانظر تحقيق هذا المخطوط (محمد فهم شلتوت ، القاهرة ، بدون تاريخ طبع ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، وانظر عوارف المعارف ، ص ١٧٨ ، وانظر « أبو حامد الغزالي » : مكاشفة القلوب ، الى حضرة علام الغيوب ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٨٠ م ، ص ٣٦١ ، وانظر قوت القلوب ج ٢ ، ص ١٢٢ ، وانظر ابن عبد السلام (عز الدين) : حل الرموز ومفاتيح الكنوز ، مكتبة جريدة الاسلام ، القاهرة ، ١٣١٧ هـ — ١٨٩٩ م ، ص ٦١ ، ٦٢ ، وانظر ابن عجيبة الحسنى : الفتوحات الالهية فى شرح المباحث الاصلية ، مطبعة الجمالية ، عام ١٣٢١ هـ — ١٩١٣ م ، الطبعة الثانية ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .

(٢٤) الوجد : قال السراج ، اختلف أهل التصوف فى الوجد : ما هو ؟ فقال عمرو ابن عثمان المكي رحمه الله لا يقع على كيفية الوجد عبارة ، لأنها سر الله تعالى عند المؤمنين الموقنين وقيل أيضا : ان الوجد مكاشفات من الحق ، لا ترى أن أحدهم يكون ساكناً فيتجرك ويظهر منه الزفير والشهيق ؟ وقد يكون من هو أقوى منه ساكناً فى ربه لا يظهر منه شيء من ذلك ، وقال الله تعالى : (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ٠٠٠) سورة الحج آية ٣٥ ، انظر أبى نصر السراج الطوسى : اللمع ، تحقيق د عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، مكتبة دار الكتاب الحديث بمصر ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م ، ص ٣٧٥ ، وانظر احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ ، وانظر الجرجاني : التعريفات ص ٨٢ ، وانظر د نكى مبارك : التصوف الاسلامى فى الادب والأخلاق ، مطبعة الرسالة ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م ، ط ١ ، ص ٧٣ ، وانظر أيضا القشيري : الرسالة القشيرية ، ص ٥٧ .

ما يرفضه الزهاد الأوائل خوفاً من أن يصبح عادة تشغل المرید عن عبادته ومراعاة قلبه .

وللسماع عند الصوفية شأن عظيم حتى قيل أن السماع لقوم كالغذاء يتقوى به على الطى والوصال ، ويثير عندهم من الشوق ما يذهب عنهم ألم الجوع ولهب العطش ، وهذا لا يصلح الا لقلب صاف من الأكدار . فإذا تطلعت نفسه الى الغذاء عدل بها الى السماع فأنار منه مواجيدته ، فشفله ذلك عن الطعام وهو (أى السماع) لقوم كالداء أى يصبح عادة تجعل النفس تسعى دائماً الى تحقيق شهواتها ويذهب هيبتها ، وفيه هلاك النفس وقسوة القلب وفساده ، ولقوم آخرين وسيلة للترفيه والترويح عن النفس من متاعب الحياة ، لهذا قيل : « السماع لقوم كالغذاء ولقوم كالدواء ولقوم كالداء ولقوم مروحه » (٢٥) .

كما أدرك الزهاد الأوائل أهمية الأساس العقلى للسماع ، فجعلوا اهتمامهم موجهاً اليه ، وذهبوا الى أن أى سماع لا يقترب بالعقل والتفهم والالتزام بأوامر الشرع : فلا جدوى منه ولا طائل تحته ، وهذا أعلى درجات السماع التى يؤكد بها الحسن البصرى (ت ١١٠ هـ) بقوله : « فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل لأن الشرع لا يرد ما يمنع منه العقل ، والعقل لا يتبع فيما يمنع منه الشرع ، فلذلك توجه التكليف الى من كمل عقله » (٢٦) .

فالعقل يتبع كل ما يدعو اليه الشرع من حلال أو حرام ، وكذلك الشرع يسمح بكل ما لا يمنع منه العقل ؛ ذلك لأن الشرع لا يرد ما يمنع منه العقل ، أى انهما وجهان لشيء واحد هو السماع الحسن .

(٢٥) السهروردى (أبو نجيب) : آداب المريدين ، ص ٥٠ ، وانظر أيضاً السهروردى (أبو حفص شهاب الدين) : عوارف المعارف ، ص ١٩٧ .
 (٢٦) البصرى (أبى الحسن) : كتاب أدب الدنيا والدين ، المطبعة الأميرية ، ١٣١٤ هـ - ١٩٢٣ ، ص ٣٦ ، ٦٩ . (أبو سعيد الحسن البصرى ، كان والده من أهل مسيانه فسيبى ، فهو مولى الانصار ، وكان من أبرز زهاد البصرة وأحد كبار الزهاد فى القرن الاول وأوائل الثانى للهجرة ، توفى سنة عشر ومائة للهجرة ، انظر الشعرائى (عبد الوهاب) ، الطبقات الكبرى ، مكتبة صبيح ، القاهرة ، ١٣٤٢ هـ ، ج ١ ، ص ٣٩ ، وانظر ابن العماد . شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، الطبعة الثامنة ، دار المعارف ، ١٩٨٠ م ، ج ١ ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ ، وانظر نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ، ج ٣ ، ص ١٢٨ ، وانظر محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الاسلام ، دار احياء الكتب العربية ، ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م ، ص ٧٢ ، وانظر الشعرائى (عبد الوهاب) : المنن الكبرى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٢٢ تصوف ، ميكروفيلم ٣٣٠٦٠ ، بدون ترقيم صفحات .

ويربط الزهاد الأوائل أيضاً بين السماع ومجاهدة النفس إذ يجب على المريد أن يزهد في سماعه بأن يترك حظوظ الدنيا التي يثريها السماع وأن يتذكر الحق تعالى في سماعه والشوق الدائم إليه من خلال سماع القرآن الكريم وسماع الأشعار والأناشيد الدينية التي تحثه على الطاعة والقيام بأوامر الحق ونواهيه ، وتشوقه الى الجنة وترهبه من النار ، وهذا ما يؤكد قول عطاء بن أبي رباح (ت ١١٥ هـ) : « أن من سمع فظهرت عليه صفات نفسية ، وذكرته حظوظ دنياء ، فالسماع عليه حرام ، ومن سمع فظهر له به ذكر ربه وتذكر به أجل ما شوق الله إليه ، وأعد له لأوليائه فهو له ذكر من الأذكار » (٢٧) .

وهكذا يرى الزهاد الأوائل أن اباحة السماع تتوقف على نوعية السماع ، فإذا كان موضوع السماع يعمل على مجاهدة النفس ويقتطعها والتخلي عن أهوائها ، كان هذا السماع حسناً ، أي أن من صح فهمه وحسن قصده وتخلي عن الشهوات ، وتطهر من دنس وخبث النفس لا يكون سماعه حراماً ولا فعله خطأ ، وعن ابن جريح أنه كان يرخص في السماع « فقليل له أيؤتى به يوم القيامة في جملة حسناتك أو سيئاتك فقال لا في الحسنات ولا في السيئات لأنه شبيه باللغو » (٢٨) قال تعالى :

لَا يَأْخُذُكُمْ اللَّهُ بِاللُّغُوِّ فِي أَيْمِينِكُمْ وَلَا بِمَا كَسَبَتْ
 قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٩) .

(٢٧) قوت القلوب : ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(هو عطاء بن أبي رباح ، حج عطاء سبعين حجة وتوفي بمكة سنة خمس عشرة ومائة ، انظر الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ٤٣) .

(٢٨) اللغو : ما يلهى عن الله ، ويقال اللغو ما لا يوجب وسيلة عند الله ، ويقال هو ما صدر عن قلب غافل ويقال هو ما يوجب سماعه اللغو انظر القشيري (عبد الكريم بن هوزان) لطائف الاشارات ، تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم ، تحقيق ابراهيم بسيوني ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦٨ ، ج ٥ ، ص ٧٣ .

(٢٩) سورة البقرة : آية (٢٢٥) .

فهو من المباحات وأما الطلخانات فهو من البدع التي لا بأس بها إذا أصبحت اليتة فيها ودعت الحاجة اليها (٣٠) .

فالسماح - اذا - على ضربين : ضرب يتعلق بالمستمع ، منبعه نفس المستمع وقلبه الملوث بحب الدنيا يستمع تكلفا لطلب جاه بأن يشار اليه بالمشيخة وغلبة الجال والوجد أو منفعة دنيوية من مال أو طعام أو سمعه ، وذلك مذموم لما فيه من التلبس على العسامة باظهار ما ليس فيه .

وأما الضرب الثاني منه فمحمود وهو التكلف الراجع الى نفس السماع بأن يتكلف في تحصيله وهو طلب حصول حقيقة السماع وهذا ليس بمذموم كمن يطلب الوجد بالتواجد وذلك على حد قول مالك بن دينار (ت ١٣١ هـ) : « ان الصديقين اذا قرئ عليهم القرآن ، طربت قلوبهم الى الآخرة » (٣١) .

يتضح لنا أيضاً أن الزهاد يصطنعون السماع للوصول الى حال الوجد (٣٢) وهو حالة نفسية يشعر الانسان خلالها بأن قلبه معلق بالحق تعالى وأن روحه تميل الى اتصال به من خلال الشوق والحب الذي يسيطر على كل جوارحه وحينئذ تصدر عنه شهقة أو رعدة أو تفيض عينه بالدموع أو يغشى عليه ، وفي نفس الوقت يفنى عن نفسه وجميع ما حوله ويبقى بالحق تعالى ، وهذا يتضح من خلال استعراض

(٣٠) الهروي (على بن محمد سلطان) : فتح الأسماع في شرح السماع ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨ تصوف مجاميع ، ميكروفيلم رقم ٥١٨٦١ ، ص ٦٠ ، وانظر حل الرموز ومفاتيح الكنوز : ص ٦٠ ، وانظر الكوراني (نفيس الكردي والغزالي) ، بوارق الالاع في تكفير من يحرم السماع ، مخطوط بدار الكتب ١٧٨ م مجاميع ، ميكروفيلم رقم ٤٥٣٢ ، ص ٢٥ ، وانظر الغزالي (أبو حامد : مكاشفة القلوب المقرب الى حضرة علام الغيوب ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ ، وانظر التصوف الاسلامي الخالص : ص ٧٧ : ٧٨ ، وانظر ايضا الرسالة القشيرية ، ص ٢٦١ .

(٣١) الأصفهاني (أبي نعيم) : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، بيروت ، ١٩٦٧ م ، ج ٢ ، ص ٣٥٨ . وانظر أيضا ابن الجوزي : صفة الصفوة ، مكتبة النهضة الجديدة ، ١٩٧٠ م ، ص ٢٠٧ .

(٣٢) الوجد : اما أن يكون ضعيفا أو يكون قويا ، والذي يحجب المرید عن الوجد هو رؤية آثار النفس والتعلق بالاسباب والعلائق الخارجية التي تحجب النفس عن رؤية أو مشاهدة النور الالهي في حال الوجد ، ولهذا قال أبو سعيد بن الأعرابي : (الوجد مشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب) ، انظر احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ ، وانظر أيضا ص ٢٧ في هذا الفصل ، فالوجد اذن ما يصادف القلوب ويرد عليه بلا تكلف وتصنع وقيل هو بروق تلمع ثم تخدم سريعا .

بغض أحوال الزهاد ، « يحكى أن ابراهيم بن ادهم (ت ١٦١ هـ)

سمع قارئاً يقرأ : **إِنَّا السَّمَاءُ أَنْشَقْنَا** ^(١) فاضطربت أوصاله وارتعدت » (٣٣) .

وتذكر المصادر أن سفيان الثوري (ت ١٦١ هـ) كان يستمع الى آيات العذاب فيطيش ويخرج هائماً ، وكان يقرأ يوماً في الزوال فمر

بهذه الآية : **وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ^(٧) **فَإِذَا نَقَرْنَا فَأَنقَرُوا** ^(٨) **فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ**

فخرج هارباً هائماً على وجهه حتى رده أصحابه الى الكوفة (٣٤) .

ويذهب الصوفية الى أن القلب اذا صفا وخلا من حب الشهوات والأهواء وعمر بحب الله واستنار بنوره من خلال سماعه للقرآن الكريم أو ذكر الحق تعالى ، ظهر به الخوف والحزن على ارتكابه الذنوب والندم عليها وفاضت عيناه وبكى ، وهذا يتضح من أحوال الفضيل ابن عياض (ت ١٨٧ هـ) : « كان الفضيل من الفريق الأول اذا ذكر الله أو سمع القرآن ، ظهر به الخوف والحزن وفاضت عيناه وبكى » (٣٥) ، فالمرید الصادق في وجده مع الحق تعالى لا تكون له ارادة بل تكون كل حركاته واهتزازاته بتوجيه من الحق تعالى ، لأنه قد فنى عما سواه وشعر بالنور الالهى في جسده .

وقد جعل بعض الزهاد ومنهم الفضيل بن عياض أهل السماع على طبقات ثلاث : طبقة العوام وهم من يحرم عليهم السماع لعلمهم مجاهداتهم وغفلة القلب ، وطبقة المريدين المبتدئين مكروه لهم السماع

(٣٣) المنارى (عبد الرموف) : الكواكب الدرية ، مكتبة الازهر عام ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م ، ج ١ ، ص ٧٤ ، سورة الانشقاق : آية (١) .

(ابراهيم بن آدم كان من كورة بلخ من اولاد الملوك ، انظر الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ٧٦ ، وانظر نيكلسون (رينولد) : فى التصوف الاسلامى وتاريخه ، ترجمة وتعليق د. أبو العلا عفيفى ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م ، ص ٤٨ .

(٣٤) نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام : ج ٣ ، ص ٢٤٢ ، ١٧٤ ، سورة المدثر : آية ٧ ، ٨ ، ٩ (سفيان بن سعيد الثوري ، ولد سنة سبع وتسعين ، وتوفى بالبصرة سنة احدى وستين ومائة ، وكان عالم الامة وعابدها وزاهدها ، انظر الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٥٢ .

(٣٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : ج ١ ، ص ١٩٨ ، وانظر الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٧٥ : ٧٦ (أبو على الفضيل بن عياض خرساني من ناحية مرو وقيل أنه ولد بسمرقند ونشأ بآبيور ومات بمكة فى المحرم سنة سبع وثمانين ومائة ، انظر الرسالة القشيرية ، ص ١٥ ، وانظر الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٧٥) .

خوفاً عليهم من بقاء نفوسهم فيه ، وطبقة العارفين وهم أهل الصفا واليقظة القلبية في السماع ، وهو مباح لهم ، وهذا ما يوضحه بقوله : « السماع على العوام حرام لعدم مجاهداتهم وعلى المريدين مكروه لبقاء أنفسهم ، ومباح للعارفين لصفاء قلوبهم » (٣٦) .

مما سبق ، يتضح لنا أن معنى السماع عند زهاد القرنين الأول والثاني للهجرة ، هو سماع القرآن الكريم والأحاديث والأشعار الدينية التي تدعو إلى القيام بواجبات الشرع ونواهيها والتذكر الدائم بالوعد والوعيد ، وهذا المعنى مستمد من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية ، وهو السماع المباح شرعاً ، عكس السماع الشيطاني الذي يدعو إلى غفلة القلب وإثارة الشهوة ، كما يتضح أيضاً أن القلب إذا صفا من الشهوات تمتع بمشاهدة النور الإلهي في حال الوجد .

رابعاً : معنى السماع عند صوفية القرنين : الثالث والرابع للهجرة :

لقد استخدم صوفية الإسلام في القرنين الثالث والرابع السماع أحياناً بنفس معناه الذي سبق عند زهاد القرنين : الأول والثاني للهجرة إلا أنهم قاموا بتعميقها وتحليلها وأضافوا إليها العديد من المعاني ، فالسماع عندهم قد أصبح وسيلة أو أداة لظهور حالة كامنة في القلب من خلال الاستماع إلى الأشعار والنفثات الموزونة .

وإن السماع لا يجعل في القلب ما ليس فيه ، ولكن يحرك ويهيج ما هو فيه ، وهذا ما يوضحه قول أبي سليمان الداراني (ت ٢١٥ هـ) : « السماع لا يجعل في القلب ما ليس فيه ولكن يحرك ما هو فيه ، فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد في مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار في القلب وهي سبعة مواضع ، الحجيح . . ، ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الفزو . . . ، أصوات النياحة ونفثاتها . . ، الفناء في أيام العيد وفي العرس . . . ، سماع العشاق تحريكاً للشوق وتهيجاً للعشق وتسليّة للنفس . . ، سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه » (٣٧) .

(٣٦) الهروي (إبراهيم الأنصاري) : كشف القناع عن حكم الوجد والسماع ، تحقيق ودراسة قسم التحقيق بدير الأدباء الدومينكيين ، دار الصحابة للتراث بطنطا . ١٩٩٢ م ، ص ٣٦ .

(٣٧) الغزالي (أبو حامد) : أحياء علوم الدين ، مطبعة الحلبي ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م ، ج ٢ ، ص ٣٥١ : ٣٥٢ (أبو سليمان عبد الرحمن بن علية الداراني ، داران قرية من قرى دمشق مات سنة خمس عشرة ومائتين ، وكان يقول من صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه والله تعالى أكرم . . انظر الرسالة القشيرية : ص ٢٥ ، وانظر الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ٨٨) .

من ذلك يتضح لنا أن صوفية هذه الفترة قد حددوا بعض المواضع التي يجوز التزعم فيها بالكلمات والأشعار الموزونة ، مثل الغناء في العمل والسفر ، حيث اعتاد الناس استعماله في حمل الأثقال وقطع مفاوز السفر والطرق الصحراوية الطويلة ترويحاً للنفوس وتنشيطاً لها مثل حذاء الراعى وراء الأبل والأغنام ، وغناء الأمهات لاسكات أولادهن ، والغناء في الحجيج للتعبير عن مشاعرهم برؤية البيت الحرام ، وكذلك الغناء وقت الغزو لشد حماسهم واستحضار العزائم مثلما فعل المسلمون في حفر الخندق وغيرها أيام الرسول ﷺ .

ويذهب الصوفية أيضاً إلى أنه لكي يتحقق المرید بالسماع الحسن لا بد له من الالتزام بآداب السماع وتعاليمه ، فمن التزم وتحقق بهذه التعاليم تحقق بالسماع الحسن ، أما إذا أصفى بنفسه إلى السماع المثير لشهواتها وأهوائها تزندق وخرج عن حدود السماع الحسن ، وهذا ما يشير إليه ذو النون المصري (ت ٢٤٥ هـ) بقوله : « انه وارد حق يزعج القلوب إلى الحق فمن أصفى إليه بحق تحقق ، ومن أصفى إليه بنفس تزندق » (٣٨) .

فالالتزام بالكتاب والسنة في الوجد الناتج عن السماع شرط أساس لا يمكن الإخلال به والا يصبح هذا السماع باطلا ، فمن كان قلبه ضعيفاً ملوثاً بحب الدنيا لا يصح له السماع ، ذلك لأن السماع الطيب يستلزم القلب النقي الصافي البعيد عن الاهتمام بالشهوات والاهواء ، وهذا ما يؤكد قول سهل التستري (ت ٢٨٣ هـ) بقوله : « كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل فلا يصح السماع لمن قلبه يعد ملوثاً بحب الدنيا أو شهوة المجرة » (٣٩) .

(٣٨) احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٣٧٢ ، وانظر اللع : ص ٢٤٢ ، وانظر الرسالة القشيرية : ص ٢٦٤ ، وانظر د . عبد الحليم محمود : العارف بالله ذو النون المصري ، دار الكتب ١٩٧٣ م ، ص ١٥٧ .

(١) أبو الفيض ذو النون المصري ، اسمه ثوبان بن ابراهيم ، كان أبوه نوبيا توفي سنة خمس وأربعين ومائتين بالجيزة بمصر ، الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٧٧ ، وانظر مجمع اللغة العربية : المعجم الكبير ، المجلد الأول القسم الأول (الأخميمي) ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥٦ م .

(٣٩) فتح الاسماع في شرح السماع : ص ٨٦ .

(٢) أبو محمد سهل عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن ربيع التستري ، صاحب خالد ومحمد بن سوار ، مات سهل سنة ثلاثة وثمانين ومائتين ، انظر الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٨٥ : ٨٦ ، وانظر طبقات الصوفية : ص ١٩٩ ، وانظر أيضاً أحمد عطية الله : القاموس الاسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، عام ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م ، ج ٣ ، ص ٥٤١ .

كما يتبين لنا أيضا أن الزهاد الأوائل قد قسموا السماع الى ثلاثة اقسام : العوام فسماعهم حرام عليهم خوفاً من بقاء نفوسهم في السماع واستلذاذه ، ومن ثم يصبح عادة تشغلهم عن القيام بالطاعات وأوامر الحق تعالى ، وسماع الزهاد وهو مباح لهم اذا كان يعمل على مجاهدتهم ويقتطعون قلوبهم وعدم الغفلة وقت السماع وسماع العارفين وهو مستحب لهم لما فيه من حياة قلوبهم بالحق تعالى ، واعتباره غذاء لأرواحهم لا يمكن الاستغناء عنه ، وقد أكد هذا المعنى وعمقه بعض صوفية تلك الفترة ، فقد ذهب أبو القاسم الجنيد (ت ٢٩٧ هـ) : « الناس في السماع على ثلاثة أصناف : العوام ، والزهاد ، والعارفون ، فأما العوام فحرام عليهم لبقاء نفوسهم ، وأما الزهاد فيباح لهم لحصول مجاهدتهم وأما أصحابنا فيستحب لهم لحياة قلوبهم » (٤٠) .

ونلاحظ أن السماع عند صوفية هذا العهد يحصل به رقة القلب وخشوعه وآثاره الشوق الى لقاء الله والتشوق الى دار القرار والخوف من عدم استقامة الظاهر والباطن حتى يستخرج السماع من قلوبهم أنواعاً من اللطائف والمعارف والمكاشفات الالهية ، وهذا ما يوضحه ابن مسروق (ت ٢٩٩ هـ) : « عندما سئل عن الرباعيات فقال : أن أبحنأ لها رخصة ، أى تتخطى الى رخص ، ولا أرى سماع الرباعيات فقال : الا لمستقيم الظاهر والباطن ، قوى الحال ، تام العلم » (٤١) .

(٤٠) بوارق الالمام فى تكفير من يحرم السماع : ص ٣٤ ، وانظر الهيثمى (ابن حجر) كف الرعاع عن محرمات الله والسماع ، حكم الاسلام فى الغناء والموسيقى والشطرنج ، تحقيق عادل عبد المنعم أبو العباس ، مكتبة القرآن ، ١٩٨٩ م ، ص ٢٦ ، وانظر الكلاباذى (أبو بكر محمد : التعريف لمذهب أهل التصوف ، تحقيق محمود أمين النواوى ، مكتبة الكليات الأزهرية عام ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م ، الطبعة الثانية ، ص ١٩١ ، وانظر أيضا معجم مصطلحات الصوفية : ص ١٣٤ ، وانظر قول أبو عثمان الحيرى فى الرسالة القشيرية : ص ٢٦٦ .

(سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد بن محمد الزجاج ، كان أبوه يبيع الزجاج ، لذلك يقال له القواريرى أصله من نهاوند ومولده ومنشؤه بالعراق صاحب السر السقطى والحرث الحاسبى ومحمد بن على القصاب ، مات سنة سبع وتسعين ومائتين . انظر الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ٩٣) .

(٤١) عبد الرحمن السلمى : طبقات الصوفية ، طبعة الخانجى عام ١٩٥٣ ، ص ٣٣٩ .

(ابن مسروق من أفضل أهل طوس ، سكن بغداد ومات بها سنة تسع وتسعين ومائتين ، انظر الطبقات الكبرى : ج ١ ، وانظر أيضا طبقات الصوفية ، طبعة ليدن ، ١٩٦٠ م ، ص ٢٣٣) .

ومن بين هذه الأقوال المتعمقة في السماع قول أبي بكر الكتاني (ت ٣٢٢ هـ) : « سماع العوام على متابعة الطبع وسماع المريدين رغبة ورهبة ، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعماء ، وسماع العارفين على المشاهدة وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام » (٤٢) .

وكذلك يرى صوفية القرنين : الثالث والرابع أن السماع يعرض صاحب النفس الضعيفة للبلية والهلاك ، أما صاحب النفس القسوية من خلال مجاهدتها وقمعها وامانة شهواتها والقلب الحى بنور الحق يكون سماعه عبرة وعظة ؛ ذلك لأنه يتدبر معانى الكلمات المسموعة ، ولا يسمع من أجل الالتذان فقط ، وهذا ما يشير اليه الششبل (٣٣٤ هـ) : « عندما سئل عن السماع فقال ظاهره فتنة وباطنه عبرة فمن عرف الاشارة حل له استماع العبرة والا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية ، وقيل لا يصح السماع الا لمن كانت له نفس ميتة وقلب حى فنفسه ذبحت بسيف المجاهدة وقلبه حى بنور الموافقة » (٤٣) مما سبق ، يتضح لنا أن صوفية القرنين : الثالث والرابع للهجرة قد عمقوا المعانى المختلفة للسماع عند الزهاد الأوائل وتناولوها بالتحليل والتدقيق ، فهم قد تحدثوا عن السماع وارتباطه بالكتاب والسنة ، وفناء النفس ومجاهدتها وقت السماع ، كما أباحوا سماع الأشعار والانشاد الدينى وانشاد الحجيج وعند الغزو وكل ما لا يثير كوامن النفس وشهواتها .

(٤٢) طبقات الصوفية : ص ٣٧٥ طبعة الخانجي ١٩٥٣ م ، وانظر عوارف المعارف : ص ١٦٦ (هو محمد بن على بن جعفر الكتاني وكنيته أبو بكر ويقال أبو عبد الله وأبو بكر أصح ، أصله من بغداد صاحب الجنيد وأبا سعيد الخراز وأبا الحسن النووى ، أقام بمكة الى ان مات سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة ، انظر الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١٧٢ ، وانظر أيضا طبقات الصوفية ، طبعة ليدن ، ص ٣٨٦) .
(٤٣) اللع : ص ٢٤٢ ، وانظر الرسالة القشيرية : ص ٣٦٥ ، وانظر بوارق الالاع فى تكفير من يحرم السماع : ص ٣ ، وانظر عبد الغنى النابلسي : الحديقة الندية شرح الحديقة المحمدية ، دار الكتب عام ١٩٢١ م ، ج ٢ ، ص ٤٠٧ ، وانظر معجم مصطلحات الصوفية : ص ١٣٤ ، وانظر الامام أحمد الغزالي : بوارق الالاع فى تكفير من يحرم السماع ، تحقيق هشام عبد العزيز ، مجلة القاهرة ، عدد ١٤٨ مارس ١٩٩٥ م .
ص ١٦٤ - ١٨٥ .

(أبو بكر بن حجر الششبل ، خرساني الأصل بغدادى المولد والمنشأ ، صاحب أبا القاسم الجنيد ومن عاصره من المشايخ ، عاش سبعا وثمانين سنة ، ومات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ودفن ببغداد فى مقبرة الخيزران ، انظر الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١١٥) .

خامسا : معنى السماع عند الصوفية السنيين :

إذا نظرت في أقوال الصوفية نظرة فاحصة وجدت أنهم مختلفون في الظاهر ، متفقون في الباطن ، هذا الاختلاف الظاهري في أقوالهم يكشف الغطاء عن اتفاقهم في حقيقة السماع ، فمنهم من أنكر السماع ، ومنهم من أجاز السماع مع عدم الاشتغال به .

كما أشار صوفية الاسلام في هذه الفترة الى نفس معانى السماع عند صوفية القرنين : الثالث والرابع للهجرة ، وهو ان السماع على ثلاث درجات ، وهو الذى يكشفه أبو نصر السراج (ت ٣٧٨ هـ) « أهل السماع على ثلاث طبقات : طبقة منهم يرجعون في سماعهم الى مخاطبات الحق لهم فيها يسمعون ، وطبقة منهم يرجعون فيما يسمعون الى مخاطبة أحوالهم ومقاماتهم فهم مربوطون بالعلم ومطالبون بالصدق ، وطبقة منهم الفقراء المجردون الذين قطعوا العلايق ولم تتلوث قلوبهم بمحبة الدنيا والجمع والمنع فهم يسمعون بطيبة قلوبهم ويليق بهم السماع فهم أقرب الناس الى السلام واسلمهم من الفتنة وكل قلب ملوث بحب الدنيا فسماعه سماع طبع وتكلف » (٤٤) .

فأعلى درجات السماع عند الصوفية هى درجة المريد الذى يرى الحق تعالى فيها يسمعه ، فكأنه يخاطب الحق تعالى ، أما الطبقة الثانية فيسمع فيها المريد حسب المقام أو الحال الذى هو عليه ، وهذه الدرجة تستلزم من السماع أن يكون صادقا فيما يسمعه عالما بمعانى المسموع متدبرا لما تحتويه هذه المعانى ، والطبقة الثالثة والاخيرة فى السماع هى طبقة الزاهدين الذين قطعوا العلايق ولم تتعلق قلوبهم بحب الدنيا وشهواتها ، فهم يسمعون سماع طبع لا تكلف أو تصنع فيه ، وهذا ما أوضحه قول أبى نصر السراج السابق .

كما يتضح لنا أيضاً أن السماع عند القشيري (٤٥) (ت ٤٦٥ هـ) ،

(٤٤) أبو نصر السراج : اللمع ، ص ٢٥١ ، وانظر السهروردي : آداب المريدين ، ص ٤٩ ، وانظر ابن قيم الجوزية : تلبيس ابائيس ، مكتبة النهضة ١٩٢٨ م ، ص ٢٤٨ . قول أبى على الدقاق ، (أبو نصر عبد الله بن على السراك الطوسى ، الملقب بطاؤوس الفقراء ، ص ٢٤٨ . (ت ٣٧٨ هـ) يقول عنه صاحب النفحات هو عبد الله بن على بن محمد ابن يحيى الصوفى الزاهد ، صاحب اللمع فى التصوف ، انظر اللمع : ص ١٢ : ١٤ .

(٤٥) هو أبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، ولد فى شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين وثلثمائة وتوفى صبيحة يوم الأحد سادس عشر ربيع الآخر سنة خمس وستين وأربعمائة بمدينة نيسابور ، انظر الرسالة القشيرية فى علم التصوف ، شرح زكريا الأنصارى ، ص ١) .

كالداء لطبقة العوام لأنهم يأخذون بظاهر الأمور ولا يعرفون حق المعرفة ، ذلك لأن معرفتهم ضعيفة ، فاذا غلبت عليهم صفات النفس يخاف عليهم من السماع من تهيج الشهوات واثارة الأفات المستكنة ، ولقوم كالغذاء وهم الذين يفنون عن أنفسهم وجميع ما حولهم ويبقون بالحق تعالى ، ولقوم وسيلة للترفيه ، والترويح عن نفوسهم ، والصادق في طلبه مقصور الهمة على قهر نفسه واحياء صفات القلب فيراعى أوقاته ، ويعالج باطنه بما يوافقه ، هذا ما يوضحه بقوله : « فاعلم أن السماع لقوم كالداء وهم العوام الذين مصدر سماعهم مكروه اللذات العاجلة فهؤلاء سماعهم على متابعة الطبع لأنهم يعرفون ما وراء الأمور الطبيعية ... لقوم كالدواء وهم الذين يغلب السماع على نفوسهم العاقبة أرواحهم عن الحضرة الالهية باستئناسه لها ، ولقوم كالغذاء وهم أرباب القلوب الداعية الى التواب . . ، ولقوم كالمروحة وهم أرباب البقاء تستروح أرواحهم عن نفوسهم المطمئنة بالسماع » (٤٦) .

ويرى الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) أنه مهما كان للسماع من تأثير في القلب فأننا لا نستطيع أن نحكم باباحته أو تحريمه بشكل مطلق ؛ لأن السماع يختلف حسب الأحوال التي يقال فيها ويختلف أيضاً بحسب الأشخاص الذين يسمعون ، كما يختلف أيضاً باختلاف النغمات ، فحكمه حكم ما في قلب السامع ، وهذا ما يوضحه بقوله : « ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقاً باباحته أو تحريمه بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص واختلاف طرق النغمات فحكمه حكم ما في القلب » (٤٧) .

كما يذهب الغزالي الى أنه كما أن حاسة الشم تستلذ بالروائح الجميلة ، وحاسة البصر تستلذ بالنظر الى الحضرة فان استلذاذ

(٤٦) رسالة في السماع والتواجد : المؤلف مجهول ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تصوف رقم ٦٩٥ ، ميكروفيلم رقم ٣٧٥١٢ ، عدد ورقة ٨ ، ص ١ .

(٤٧) احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٣٤٥ .
(يعتبر الامام الغزالي أكبر مدافع في الاسلام عن التصوف : هو محمد بن محمد ابن محمد بن أحمد بن أحمد الملقب بابي حامد والمعروف لعلو مكانته بحجة الاسلام . وقد ولد بطوس من أعمال خراسان عام ٤٥٠ هـ ، وظل الغزالي ملازماً لآستاذه الجويني الى أن توفي هذا الأخير سنة ٤٧٨ هـ وانتقل الى ربه سنة ٥٠٥ هـ ، وقد ألف عددا ضخماً من الكتب والرسائل ، انظر ١٠ د أبو الوفا التفنازاني : مدخل الى التصوف الاسلامي ، دار الثقافة عام ١٩٧٤ م ، صص ١٨٢ : ١٨٣ .

السمع بالأصوات الجميلة والنغم الطيب مباح شرعاً ، وهذا ما يوضحه بقوله : « السمع هو استماع صوت طيب ووزون مفهوم المعنى ، محرك للقلب ، وليس في جملته الا التذاذ حاسة السمع والقلب ، فهو كالتذاذ حاسة البصر بالنظر الى الحضرة التذاذ القلب به » (٤٨) .

ويكشف الغزالي عن دلالة السمع بالنسبة للانسان خاصة فيذهب الى أن للسمع تأثيراً غريباً على الانسان ، فان لم يتأثر الانسان بما يسمع فهو ناقص العقل بعيد عن الشفافية والروحانية ويصبح مثل الجمادات التي لا تتأثر بالسمع .

والسمع له تأثير أيضاً على الحيوانات والطيور ، فقد كانت الطير تقف على رأس داود عليه السلام لاستلذاذها بصوته ، واذا كان الطير يتأثر بالسمع فمن باب أولى أن يتأثر الانسان بالسمع ، وهذا ما يوضحه الغزالي بقوله : « فاذا للسمع تأثير غريب ، ومن لم يحركه السمع فهو ناقص العقل مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية ، وكان الطير يقف على رأس داود عليه السلام لاستماعه صوته » (٤٩) .

ويعتبر ابن حزم الأندلسي (ت ٥٦ هـ) من المفكرين المسلمين الذين أباحوا السمع ؛ ذلك لأن الانسان في نظر الاسلام عند ابن حزم روح وعقل وجسم ، ويجب أن يعطى لكل منهم حقه في الغذاء اللازم له ، فالطعام غذاء للجسم والمعرفة غذاء للعقل والسمع غذاء للروح ؛ وذلك من أجل انسجام الحياة وتكاملها .

فسماع القرآن الكريم أمر لا جدال حوله مثله في ذلك مثل باقى علماء الدين والصوفية ، أما عن موقفه من سماع الغناء ، فابن حزم يرى أن الغناء « فن سمعى من الفنون الجميلة .. ، مباح ولكن تركه أفضل ، كسائر فضول الدنيا التي أباحها الدين الاسلامي الحنيف ، ويستند ابن حزم في قوله باباحة الغناء الى النصوص القرآنية الكريمة والأحاديث المروية عن النبي — عليه الصلاة والسلام — في عدم تحريمها الغناء [فلا يحل تحريم شيء ، ولا إباحته الا بنص من الله تعالى أو من رسوله عليه السلام لأنه أخبار عن الله تعالى ، ولا يجوز أن يخبر عنه تعالى الا بالنص الذي لا شك فيه] » (٥٠) .

(٤٨) الغزالي : المرشد الأمين الى موعظة المؤمنين من أحياء علوم الدين ، مطبعة الحلبي ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، الطبعة الثالثة ، ص ١١٠ ، وانظر أحياء علوم الدين . ج ١ ، ص ٢٦٩ .

(٤٩) أحياء علوم الدين : ج ٢ ص ٣٥١ ، وانظر المرشد الأمين الى موعظة المؤمنين : ص ١١٢ .

(٥٠) ابن حزم : الاخلاق والسياسة ، تحقيق صلاح الدين بسيوني رسلان ، مكتبة نهضة الشرق ، ١٩٨٥ ، ص ص ٢٨٤ : ٢٨٥ .

وعلى ذلك فسماع الغناء عند ابن حزم لا يتعارض بحال من الأحوال مع قواعد الشريعة الإسلامية التي تدعو إلى الترويح عن النفس الإنسانية اعانة لها على العمل ، وسماع الغناء يخفف عن الإنسان أعباء الفكر ومتاعب الحياة ، والقلوب إذا أكرهت عميت ، وترويحها اعانة لها على الجهد ومواصلة الطاعات ، وهذا ما يؤكد به قوله : « اللهم روح للقلوب مخفف عن الإنسان أعباء الفكر ، والقلوب إذا أكرهت عميت ، وترويحها اعانة لها على الجهد ، فالمواطب على التفقه مثلاً ينبغي ان يتعطل يوماً في الأسبوع ويفضل له يوم الجمعة ، لأن عطلة يوم تبعث على النشاط في سائر الأيام . . ، فالعطلة معينة على العمل ، واللهو معين على الجهد » (٥١) .

وعلى ذلك فسماع الغناء عند ابن حزم لا يحرم شرعاً ما دام يدعو إلى العمل والجهد ويلتزم فيه صاحبه بآداب الشريعة ، أي إباحة سماع الغناء الغير مثير للشهوة ، ومن الأحاديث النبوية التي يستند إليها ابن حزم في دعوته إلى إباحة الغناء ، « الحديث المروي عن السيدة عائشة أم المؤمنين أن أبا بكر دخل عليها وعندها جارتان تغنيان في أيام منى وتضربان بالدفوف ورسول الله مسجى بثوبه فنهروا أبو بكر فكشف رسول الله عن وجهه فقال : « دعهما يا أبا بكر غانمهما في أيام عيد » والحديث المروي عن أبي داود السجستاني عن نافع قال : سمع ابن عمر مزماراً فوضع أصبعيه في أذنيه ونأى عن الطريق ، وقال يانافع هل تسمع شيئاً ؟ قال : لا فرفع أصبعيه وقال : كنت مع رسول الله فسمع مثل هذا ، فصنع مثل هذا ، فلو كان حراماً ما أباح رسول الله لابن عمر سماعه ولا أباح ابن عمر لنافع سماعه . . » (٥٢) .

(٥١) الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ، ص ٢٨٨ .

(٥٢) الأخلاق والسياسة عند ابن حزم : ص ٢٨٥ : ٢٨٦ ، وانظر السجستاني (أبي داود) : سنن أبي داود مراجعة محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة الحلبي ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م ، ج ٤ ، ص ٢٨١ : ٢٨٢ ، وانظر ابن أبي الدنيا (الحافظ) كتاب الورع : حققه وخرج أحاديثه مسعد عبد الحميد السعدني ، مكتبة القرآن الكريم ١٩٩٣ م ، ص ٣٠ ، وانظر البيهقي ، ميزان الاعتدال ، مطبعة الحلبي . ١٣٨٣ هـ ، الطبعة الأولى ، ج ٤ ، ص ٨٤ ، وانظر أحمد بن حنبل : مسند ، ص ٢ ، ٨ ، ٣٨ ، وانظر ابن ماجه : كتاب النكاح : ص ٢١ ، وكتاب الطهارة ، ص ٥٢ ، وانظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : ج ٦ ، ص ١٢٩ ، وانظر تهذيب التهذيب : ج ١٠ ، ص ٤٢ : ٤٤ ، وانظر ابن قدامة : فتاوى في ذم الشبابة والرقص والسماع ، تحقيق ابن عبد الرحمن بن عقيل الظاهري ، مراجعة سهير محمد مختار ، دار الكتب ، عام ١٩٧٦ م ، ص ٥٠ ، وانظر أحياء علوم الدين ج ٢ : ص ٢٩٩ .

كما يهاجم ابن حزم القائلين بتحريم سماع الغناء مستنداً في ذلك الى الأحاديث النبوية الصحيحة ، والتشكيك في الأحاديث الغير سليمة المستندين اليها ، ومن بين هذه الأحاديث الغير صحيحة « ما رواه سعيد بن أبي رزين عن أخيه عن عائشة أم المؤمنين عن النبي ﷺ أنه قال : « أن الله حرم المفنية وبيعها وشمنها وتعليمها والاستماع اليها » يقول ابن حزم عن هذا الحديث أن فيه سعيد بن أبي رزين عن أخيه ، وكلاهما لا يدرى أحد من هما ؟ (٥٣) ، أى أن ابن حزم لا يصدق الا بالأحاديث المخرجة عن الفقهاء والعلماء المعروفين والغير قابلين للتشكيك في أقوالهم مثل البخارى ومسلم وابن ماجه .

ويتفق حجة الاسلام الغزالى مع ابن حزم في اباحة سماع الغناء والاستماع الى الصوت الطيب الشجى خاصة وأنه لم يرد في تحريمه نص صريح من النصوص الدينية لما تثيره من الفرح والسرور والطرب ، وبالتالي اعانة للانسان على العمل والجد والاجتهاد ، وفي هذا يقول ابن حزم : « أما الغناء في مجالس السماع الصوفى ، أو لم يكن جائزاً لما أباحه الامام الغزالى حجة الاسلام ولما قال بحله وهو فقيه متشدد الى درجة كبيرة وقد هاجم الفلسفة وكفر الكثير من أقول الفلاسفة » (٥٤) .

فسماع الصوت الطيب أمر حلال بالنص والقياس ، هذا ما يؤكد ابن حزم ويتفق معه فى ذلك الغزالى بقوله : « لا ينبغي أن يحرم سماع الصوت الطيب بل هو حلال بالنص والقياس ويدل على اباحة سماع الصوت الحسن فهو امتنان الله على عباده به ، اذا قال تعالى فى سورة فاطر الآية رقم (١) « يزيد فى المخلوق ما يشاء » ، فقل هو الصوت الحسن (٥٥) .

ومن هنا يتفق ابن حزم مع الصوفية فى اباحة السماع الطيب ، ويهاجم الذين يحرمون الغناء على أساس أنه لم يرد نص صريح أو حديث يمنع من سماعه مثل غناء العرس والحجيج والغزو والانشاد الدينى .

اختلف الصوفية فى الظاهر حول معانى السماع الا أن المعنى الحقيقى للسماع واحد عندهم ، ويرجع اختلافهم وتباينهم الى أن بعضهم رفض

(٥٣) الاخلاق والسياسة عند ابن حزم ، ص ٢٨٦ .

(٥٤) الغزالى (أبو حامد) : تهافت الفلاسفة ، تحقيق سليمان دنيا ، دار المعارف ، ١٢٨٥ هـ - ١٩٦٦ م ، ص ٢٠ ، وانظر السمانى (عبد المحمود نور الدائم) : النظرة العلمية لأهل الطريقة الصوفية ، دار الكتب ، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م ، ص ٦٦ .

(٥٥) الاخلاق والسياسة عند ابن حزم ، ص ٢٨٧ .

السماع حتى لا يكون سبباً من أسباب انتشار الفساد والأمراض والنزوات النفسية ، بينما البعض الآخر أجاز السماع على اعتبار أنه من أهم الوسائل التي تحت على الطاعة والقيام بواجبات الشرع وفوائده ؛ وهذا ما يوضحه الدكتور قاسم غنى بقوله : « والحاصل أن السماع انتشر بين الصوفية وسبب الانشقاق والاختلاف بينهم فعد جماعة السماع أمراً مشروعاً ومستحباً من قبيل العبادات ، وعده جماعة آخرون أمراً مخالفاً للشرع وبدعة تحض على المعاصي لأن زمرة من المبتدئين وغير الناضجين يعتبرون محافل السماع مجالا للأنس والمتعة واطهار النزوات النفسانية » (٥٦) .

ومن الصوفية السنيين الذين أباحوا السماع أيضاً عبد القادر الجيلاني (٥٧) (ت ٥٦١ هـ) حيث يرى مثل باقي الصوفية أن السماع الحقيقي هو القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، وسماع العلم في مجالس العلماء والابدال وما خلا ذلك كله فهو مكروه وباطل عنده ولعل ما يؤكد قوله : « السماع الحقيقي هو الحديث والكلام الذي هو سنة الله عز وجل مع العلماء به والخواص من الأولياء والابدال ، وخلصت بواطنهم من ذلك كله » (٥٨) .

وإذا كان الجيلاني قد ذكره سماع الألحان والغناء واعتبر أن السماع الحقيقي هو القرآن الكريم والأحاديث النبوية مثل باقي الصوفية ، فإن أحمد الرفاعي (ت ٥٧٨ هـ) يرى أن سماع الألحان والأشعار يوفّر الرغبة في القيام بأوامر الحق تعالى ويحمل المستمع على التحرر من غفلة القلب وقسوته التي تسيطر عليه ويحمله إلى صفاء القلب ورفقته ، والتحرر من زلات النفس وشهواتها ، وهذا ما يؤكد بقوله : « سماع الألحان يوفّر الرغبة في الطاعات ويرفع إلى ما أعد الله لعباده من

(٥٦) د. قاسم غنى : تاريخ التصوف في الاسلام ، ترجمة صادق نشأت ومراجعة أحمد ناجي القيس ، د. محمد مصطفى حلمي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ م ، ج ٢ ، ص ٥٧١ .

(٥٧) عبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية ولد في جيلان ٤٧٠ هـ ، ورحل إلى بغداد سنة ٤٧٨ هـ ، ودرس فقه الحنابلة وسلك طريق الصوفية ، توفي سنة إحدى وستين وخمسائة ودفن ببغداد ، انظر مدخل أبي التصوف الاسلامي : ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، وانظر أيضاً الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٥٨) الجيلاني (عبد القادر) : الغنية لطالبي طريق الحق في الأخلاق والتصوف والادب الاسلامية ، مطبعة الطبلي ، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م ، الطبعة الثالثة ، ص ١٨٠ ، وانظر المطبعة الاميرية بمكة ، ١٣١٤ هـ ، ج ٢ ، ص ١٥٧ .

الدرجات ويحمل المستمع على التحرز من الزلات ويؤدى قلبه الى صفاء
الواردات « (٥٩) » .

واذا انتقلنا الى معنى السماع عند الامام الشاذلى (٦٠) رحمه الله
نجد أنه من القائلين بعدم اباحة السماع لأهل الطريق ، مثله فى ذلك
مثل باقى الصوفية السنيين فى قولهم ، اذا كان السماع من أجل اللهو
والتسلية وسرور القلب فان فى ذلك جفاء وخروجاً عن حدود الشرع ،
أما اذا كان السماع بعيداً عن اللهو وشهوات النفس فهو ليس مكروهاً ،
وهذا ما يوضحه ابن عطاء الله اذا يقول : « قيل لسيدي أبى الحسن
يا سيدي ألا تحب السماع ؟ فقال : السماع من الخلق جفاء » (٦١) ، أما
عن كراهة أبى الحسن الشاذلى للسماع من الخلق واعتباره جفاء
يقول الحافظ جلال الدين السيوطى : « وكان الشيخ أبو الحسن — رضى
الله عنه — ليس فى طريق السماع » (٦٢) ، فأبو الحسن الشاذلى يقترب
من الامام الغزالى فى الأخذ والتقيد بالكتاب والسنة فى كل أحواله
وأموره .

ويضيف ابن عطاء الله السكندرى (ت ٧٠٧ هـ) وهو صوفى لسه
مكانته فى التصوف السنى معنى جديداً هو اعتبار السماع مقياساً

=

(٥٩) الرفاعى (احمد) : الفجر المنير ، مطبعة بولاق ، ١٢٠٠ هـ ، ص ٧٩ .
(١) ولد الامام احمد الرفاعى فى أم عبيدة ، وهى جزيرة قرب واصل بالعراق عام ٥١٢ هـ ،
وهو ابن صالح أحمد محبى الدين بن العباس والمعروف بالرفاعى الكبير ، وقد حفظ
الرفاعى القرآن الكريم وهو صغير جداً ، ونظم الامام الرفاعى طريقه ، انظر الطبقات
الكبرى : ج ١ ، صص ١٥٦ : ١٦١ .

(٦٠) الطريقة الشاذلية هى المنسوبة الى أبى الحسن الشاذلى ، وهو صوفى بارز
سنى الاتجاه ، وأصله من شاذلة بتونس ، ووفد الى مصر ومعه جملة من تلاميذه ومريديه
واستوطنوا مدينة الاسكندرية . وكان ذلك حوالى سنة ٦٤٢ هـ ، ثم كونوا مدرسة
صوفية مشهورة بها ، وكان من أبرز من وفد مع الشاذلى الى مصر من تلاميذه أبو العباس
المرسى ، وهو الذى خلفه فى قيادة أتباع الطريقة فى حياته وبعد مماته . وظل قائماً
عليها حتى توفى بالاسكندرية سنة ٦٨٦ هـ ، وكان تصوف الشاذلى والمرسى وابن عطاء
الله وهم أركان المدرسة الشاذلية مبتعداً عن تيار مدرسة ابن عربى ومذهبه وتأثرهم به ،
انظر د. أبو الوفا التفتازانى : مدخل الى التصوف الاسلامى ، دار الثقافة للطباعة
والنشر ، ١٩٧٩ م ، صص ٢٢٩ : ٢٤٠ م .

(٦١) د. عامر النجار : الطرق الصوفية فى مصر ، نشأتها ونظمها وروادها
(الجيلانى — الرفاعى — البدوى — الشاذلى — الدسوقي) الطبعة الثالثة ،
دار المعارف ، ١٩٨٧ ، ص ٢٠٩ .

(٦٢) الطرق الصوفية فى مصر نشأتها ونظمها وروادها ، ص ٢١٠ .

للخير والشر . فالإنسان الكامل ينقش السماع في قلبه الأمور والأحوال الربانية والصفات والأخلاق الحميدة ، أما الإنسان الناقص (العقل) ينقش السماع في قلبه الأمور والأحوال الشيطانية والنفسانية ولم يبق بعده إلا القسوة والغلظة والحرص والطمع وغير ذلك من الصفات الذميمة ، بقوله : « السماع نقاش القلوب فيخرج ما فيه من خير وشر كمن ينقش على الماء فيخرجه أن كان صافيا شرب وأن كان مغفيرا طرح » (٦٣) .

مما سبق يتضح لنا أن معنى السماع عند أغلب الصوفية السنيين هو الالتزام بالكتاب والسنة فيما يسمع ، وعدم تحريم سماع الغناء الملتزم بأداب الشريعة ، واعتبار السماع مقياس الخير والشر والحكم على المسموع ، أما عن ارتباط السماع بالوجود واعتبار أن الوجود الحق لله تعالى وأن المرید في وقت سماعه لا يرى ولا يحس بوجوده ولا بأى شئ من الموجودات ، هذا ما أوضحه الصوفية المتفلسفون من أصحاب الوحدة القائلين بالفناء والبقاء ، أى بقاء الحق تعالى وفناء ما سواه من المحدثات .

سادسا : معنى السماع عند الصوفية المتفلسفين منذ القرنين السادس والسابع الهجريين :

استخدم الصوفية المتفلسفون في القرنين : السادس والسابع الهجريين السماع أحيانا بنفس معانيه السابقة عند السابقين عليهم ، من أن العبد لا بد وأن ينزى عن سماع ما سوى الحق تعالى ، وتفريغ خاطره من كل شاغل يشغله عن الحق تعالى وقت السماع ، وذلك لأن الجوارح إذا لم تتفرغ وتفنى عن كل ما يشغلها وتتحدى بالصفات والأسماء الالهية ، لا يتحقق لها الوجود ، وهذا ما يوضحه ابن عربى (ت ٦٣٨ هـ) بقوله : « أصل حصول هذه المنازل تفريغ خاطر من كل شاغل يشغلك عن تحققك بما سمعت أو رأيت أو تكلمت في أى مقام كنت من أعمال الجوارح فان لم تتفرغ الخواطر للسمع لم تتفرغ الأعضاء

(٦٣) ابن عجيبة الحسنى : الفتوحات الالهية فى شرح المباحث الاصلية ، ج ٢

ص ٢٧٨ .

(تاج الدين بن عطاء الله السكندرى ، هو تلميذ الشيخ ياقوت العريشى ، وأبى العباس المرسى ، مات سنة سبع وسبعمائة ، ومن أهم مؤلفاته التنوير فى إسقاط التدبير ، وكتاب الحكم ، ولطائف المنن ، انظر الطبقات الكبرى ، ج ٢ ، ص ٧٣) .

المتخلق وإذا لم يصح التخلق لم يكن التحقق ... فأسع يا بنى في تفرغ
الخطر للسمع المراد منك في أى مكان كنت » (٦٤) .

ولهذا يهاجم ابن عربى دخول جلسات السماع من هم ليسوا من
الصوفية سواء كانوا من العامة أو المريدين الذين لم يصلوا الى مراتب
الكمال الصوفى ، خوفاً عليهم من أن يؤدى حضورهم هذه المجالس الى
اثارة شهوة النفس وعدم التحكم فيها ، اذا يقول ابن عربى « تجرى
جلسة السماع فى زاوية لا يدخلها العامة ، ولا يغشاها الا الصوفية من
أهل الطريقة ويمنع حضورها من ليسوا من أصحاب الطريقة والمريدون
المبتدئون فى أول الطريق الذين يعجزون عن تلقى تجربة الاحوال
الصوفية العالية » (٦٥) .

ويعلل ابن عربى عدم حضور العامة والمريدين المبتدئين فى مجالس
السماع ، بأنهم يشوشون على العابدين أصحاب المراتب الكاملة
من عدم التدبر والتفكير فى معانى المسموع ، كما أنهم قد يكونون عائقاً
عن تحقيق الاحتشاد النفسى اللازم لهذا التفكير الدينى . فالصمت
والسكوت من آداب مجالس السماع ، وهذا ما يوضحه ابن عربى
بقوله : « وهى تجنب أن يؤدى العامة أو غير المشاركين فى نفس الأفكار
والشاعر والأمانى — يؤدى الى التشويش على نفوس العابدين
والحيلولة بينهم وبين الوصول الى الاحتشاد النفسى اللازم للتفكير
والانفعال الدينى ، بسبب عدم الانتباه وانشغال خاطرهم بأمور
أخرى » (٦٦) .

وإذا كان صوفية القرنين : الثالث والرابع للهجرة ومن بعدهم من
الصوفية السنيين قد أباحوا السماع الطيب وكرهوا سماع الغياء
بالموسيقى والايقاع فإن ابن عربى سلك هذا المسلك ، من حيث أنه

(٦٤) ابن عربى (محيى الدين) : مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار ، مكتبة
صبيح ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م ، ص ٧٢ .

(ولد أبو بكر محمد بن على من قبيلة حاتم الطائى ، والمعروف باسم (ابن عربى)
وبالقاب (محيى الدين) ، (والشيخ الأكبر) ، وابن أفلاطون ، ولد فى مدينة مرسية
فى ١٧ رمضان سنة ٥٦٠ هـ فى عهد خلافة المستنجد فى المشرق ، وكان من أسرة نبيلة
غنية وافرة القوى ٠٠ توفى فى دمشق فى منزل ابن الزكى سنة ثمان وستمائة ، ١٦
نوفمبر سنة ١٢٤٠ م ، انظر أسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ترجمه عن
الاسبانية د/ عبد الرحمن بدوى ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٥ م ، ص ٥ : ٩٢ .
(٦٥) أسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ص ١٧٦ .
(٦٦) المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

رفض دخول السالكين المريدين الذين لم يبلغوا مرتبة الكمال مجالس السماع ، حتى تثير هذه المجالس أغواء الشيطان ووساوسه ، وإنما هذه المجالس تتمتع بالهدوء والتفكير فى معانى المسموع ، حتى يحدث لبعض المريدين حالة وجد ، وحتى لو كان الشخص صادقاً ، وهو أمر نادر الوقوع ، فإنها تدل على التطلّى بالنعم الالهية لا بالله ذاته .

ومن ثم فإن ابن عربى كان يفضل دائماً سماع القرآن الكريم فى هدوء وخشوع ، دون الحاجة الى الآلات الموسيقية التى تثير الشهوة ومن ثم تبعد النفس عن التعبد الحسى ، فاستعمال الموسيقى فى السماع من الأمور المستحدثة الخارجة على الشريعة الاسلامية ، ولهذا هاجم ابن عربى هذه المظاهر ، « وابن عربى ، الذى نشأ فى الأندلس فى وسط زاهد صارم .. ، لا يكتف نفوره من هذا المشهد فضلاً عن ألوان الفساد الأخرى للسماع ، مما كان منتشرأ فى الشرق ، مثل التصفيق الايقاعى ، والرقص ، وتمزيق الثياب ، فى أوج الجذبة ، وكل هذه المظاهر الخارجية للتعبد الحسى » (٦٧) .

لا شك أن سماع آيات القرآن الكريم لها مكانة خاصة ومنزلة رفيعة ، ولهذا أمرنا الحق تعالى بسماع القرآن والانصات له فى قوله سبحانه :

وَلِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٨)

وقوله تعالى :

إِنَّ

هَٰذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ يَبْشُرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٦٩)

ولهذا فإن ابن عربى « يفضل دائماً آيات القرآن الكريم تتلى بخشوع ، عن انشاد الشعر العربى ، الحافل بالاشارات والايحاءات الشهوائية التى يصعب تجنب عواقبها ، ومن شأنه أنه يبعث فى النفس الرغبة فى التعبد الحسى » (٧٠) .

(٦٧) أسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٦٨) سورة الاعراف : آية ٢٠٤ .

(٦٩) سورة الاسراء : آية (٩) .

(٧٠) ابن عربى حياته ومذهبه ، ص ١٧٩ .

ويذهب ابن عربي إلى أن المرید القوى في سماعه لا يسمح لنفسه بأن تسمع أصواتاً أو إحياءات دون البقاء بالحق تعالى في سماعه ، ذلك لأن هذه الحالة تعد حالة شيطانية ليست نتيجة لوارد الهی ؛ ولهذا يجب على المرید في سماعه أن يكون منتبه القلب لما يسمع من السماع الحق ، « السماع هو الانتباه بالقلب إلى ما يحمد شرعاً » (٧١) .

كما أن السماع عند ابن عربي نوعان ، حيث ربط السماع بالقول بالوحدة الوجودية ، إذ يرى أن هناك سماعاً مطلقاً هو سماع الكلام الإلهي ؛ ذلك لأن وجود الحق تعالى أيضاً مطلق . وسماع مقيد ، وهو ذلك السماع المقيد والمرتبط بالنغمات مثل سماع الأشعار والموسيقى ، ولهذه النغمات تأثيرها البين في الطباع ، فلا يستطيع أحد أن يدفع عن نفسه عند ورود هذه النغمات وتعلق السمع بها ، فسلطانها قسوى ، ولهذا فإن ذلك السماع لا بد من أن يتركه الأكابر ، أما السماع المطلق لا يمكن تركه ، ذلك لأنه السماع الدال على وجود الحق المطلق الوجود .

وإذا كان ابن عربي يكره السماع المقيد فإنه يرى أن ذلك السماع لم يرد شيء في تحريمه ، وإنما يكرهه خوفاً من أثارته للشهوة ، والهوى في صاحب النفس الضعيفة ، أما الرجل المتمكن من نفسه فلا يؤثر فيه ذلك السماع بشيء ، ولهذا يقول ابن عربي : « فسماع الحق مطلق كما أن وجوده مطلق وتميزه عسير وللنغمات في الكلام الإلهي والقول أصل تستند إليه . . ، ولهذا لها القوة والتأثير في الطباع فلا يستطيع أحد أن يدفع عن نفسه ورود النغمة وتعلق السمع بها إذا صادفت محلها ذلك الطرب والأثر الذي يجده السامع في نفسه فسلطانها قسوى وذلك القوة أصلها الذي تستند إليه » (٧٢) .

فالسامع المحق اذن يأخذ المعاني من الصوت ولا يلتفت إلى النغمة ، أما من سمع على الهوى والشهوة فهو لعب ولهو ، ومن سمع باستخراج الفهم ومشاهدة العلم على معاني صفات الحق ، وسمع تدبر لهذه المعاني كان محققاً في سماعه ، وهذا سماع أهل المعرفة الإلهية ، وهذا ما سبق أن أشار إليه الصوفية السنيون مثل عبد القادر الجيلاني ، حيث ينصح مريده بالسمع والفهم لما يسمع وكذلك الإخلاص والعمل به ، والفناء في إخلاصه وسماعه حتى يتحقق له الوجود بالسماع الحق ، ولذلك يقول : « يا غلام كم يقال لك ولا تسمع وكم تسمع ولا تفهم ،

(٧١) مراقع النجوم ، ص ١٦٤ .

(٧٢) ابن عربي (محيي الدين) : الفتوحات المكية ، القاهرة ، مطبعة بولاق ،

١٨٧٦ م ، ج ٢ ، ص ٤٨٥ .

وكم تفهم ولا تعمل ، وكم تعمل ولا تخلص ، ولا تغيب في اخلاصك
• وجودك « (٧٣) .

وبعلل الدكتور أبو الوفا التفتازاني إباحة الصوفية للسمع ، من حيث أنه يعين المريد على الطاعات وصفاء قلبه من وساوس النفس وخنسها ، كما أنه يقوى الوجد في نفس السالك من خلال صفاء قلبه والقرب من التعبد الحسى « فمن كلام أولئك الصوفية الخالص يتبين لنا ان السماع عندهم يعين على الطاعات وتجذب الزلات ، وصفاء الواردات ، وهو يقوى الوجد في نفس المستمع ، وهو فوق هذا وذاك استجمام للسالك ، وتنفس له ، ومعين له على استحضار ما تأخر عنه فى السلوك » (٧٤) •

وإذا كان ابن سبعين (٧٥) يتفق مع الصوفية السابقين عليه فى القول بأن السماع هو استجمام وترفه للسالك من متاعب الحياة ، ومعين له على القيام بالطاعات والأوامر الإلهية ، الا أنه يجعل السماع وسيلة وأداة تعين النفس على التذكر بعالم المثل ، وهو عالم النفس قبل أن تحل بالبدن الذى يساعدها على تنفيذ أهوائها وشهواتها .

ومن ثم فابن سبعين يفلسف السماع ويفسره من خلال القول بالوحدة المطلقة وهو تعلق النفس بالنظام القديم ، وهذا ما يوضحه الأستاذ الدكتور التفتازانى من خلال شرحه لمعنى السماع عند ابن سبعين بقوله : « أما ابن سبعين فببفتق مع أولئك الصوفية الذين اشرنا اليهم فى أن السماع وسيلة الى رد الفئات من الأحوال ، وحفظها ، والى راحة الفقراء فى سلوكهم ، ولكنه يختلف معهم فى أنه يفلسف السماع على طريقته ، فيجعل تلك الراحة التى تحدث للنفس فى السماع نتيجة تهيؤها لقبول الأمر الذى لا من جنس ما يكتسب ويعنى بذلك علم التحقيق ، وتعلقها بالنظام القديم الذى هو عين الوحدة المطلقة فيقول ابن سبعين : « والسماع يكون فى وقت الحاجة اليه ... لأن السماع يطلب به خمس

(٧٣) التاذقى (محمد بن يحيى) : قلائد الجواهر فى مناقب عبد القادر ، وبهامشه فتوح الغيب لمحمى الدين عبد القادر الجيلانى ، مطبعة مصطفى الحلبي ، الطبعة الثالثة ، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦ م ، ص ٧١ •

(٧٤) ١٠ د. أبو الوفا التفتازانى : ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، دار الكتاب اللبنانى ، الطبعة الأولى عام ١٩٧٣ م ، ص ٤٥١ •

(٧٥) هو عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر بن محمد ، ويلقب من الألقاب المشرقية بقطب الدين ، وهو ينسب الى عدة بلاد فينسب الى بلاد الأندلس فيلقب بالأندلسى ، وينسب الى مرسية فيقال له (المرسى) • يقع مولد ابن سبعين اذن فى النصف الاول من القرن السابع الهجرى ، وذلك فى أواخر عصر الموحدين بالأندلس ، ولد سنة ٦١٤ هـ ، وتوفي سنة ٦٦٩ هـ ، انظر ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، صص ٢٥ : ٣٥ •

مُضائل : أولهما رد الفائت من الأحوال ، والثانى حفظ ما يحث الملكة
والثالث استجلاب ما لم يفهم بالمدرک الفقير « لعله يعنى به العقل » ،
ورابعها حديث النفس بالأمر الذى لا من جنس ما يكتسب ، وخامسها
أحداث راحة الفقراء . . لأن القلوب فى السماع منشرحة تنظر ما يخلق
فيها وما يحدث عنها من النظام القديم (أى الوحدة المطلقة) « (٧٦) .

مما سبق يتضح لنا أن السماع فى ظاهره فتنة واثارة للشهوة
والهوى ، لذا جعل ابن سبعين مثل باقى الصوفية السماع فى وقت
الحاجة اليه فقط ، حيث لا يصبح عادة تخرج السالك عن حدود
الشرع ، أما السماع فى باطنه اثاره لما يكنه القلب من مظاهر الخوف
والتشويق والترهيب نتيجة لتفهمه لمعانى المسموع ، فالسماع المحقق
هو اخلاص النية ويقين القلب وصدقته لما يسمع ، وفناؤه عن كل ما يشغله
عن السماع وقت السماع ، ووجوده بالصفات والأسماء والمعارف الالهية،
« وأما من اتصفت نفسه بالصفات القلبية فيكون حاسة سمعه
تبعاً لحقيقة سمع قلبه ، فلا يستمتع فى الظاهر شيئاً الا وقد سمع فيه
من القلب أشياء فتارة يسمع من مجرد الصوت حقائق الترغيب
والتشويق ، ولطائف المخاطبات ، أو الترهيب والتخويف ومستلذات
المعانيات ، وتارة يسمع الكلمات فيسبق السمع الباطنى السمع
الظاهرى فيتغير مدرک الظاهر » (٧٧) .

كما يذهب ابن سبعين الى أن السمع لا بد أن ينصرف الى سماع
آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية والمواعظ والأمر الذى تذكر
بالله تعالى وبالوعد والوعيد ، بدلا من انصراف العبد الى سماع الشعر
بالألحان والنغمات الحسنه بقوله : « السمع الذى كان يوصل له الألحان
والنغمات الحسنه ينصرف الى سماع كتاب الله تعالى الذى هو كلامه
وسماع حديث رسول الله ﷺ وسماع المواعظ والأمر المذكرة بالله
عز وجل » (٧٨) .

فكما أن ابن سبعين يذهب الى اباحة الشعر والغناء على القسدر

(٧٦) د أبو الوفا الفتازانى : ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، صص

٤٥١ : ٤٥٢ .

(٧٧) أبو بكر عبد الله بن شاهاور : منارات السائرين ومقامات الطائرين ،

تحقيق سعيد عبد الفتاح ، دار سعاد الصباح ، ١٩٩٣ ، صص ٥٢٥ - ٥٢٦ .

(٧٨) ابن سبعين : الرسائل ، رسالة العهد ، تحقيق د عبد الرحمن بدوي ، الدار

المصرية للتأليف والترجمة ، دار الطباعة الحديثية ، ١٩٦٥ م ، ص ١٠٠ .

المعتول فان ابن عربى يذهب الى ذلك بقوله : « فان لم يحرمه بل أبحنا الشعر والغناء على القدر الذى جاءت به الشريعة » (٧٩) .

كذلك يذهب ابن عربى الى أن المدعى للسمع والوجد الناتج عن السماع اذا لم يكن صادقاً في سماعه ووجدته وما يصدر عنه من حركات واهتزازات وصرخات ، كأن هذا العبد يتخذ دينه لعباً ولهواً ويعتبر ما يصدر عنه ما هو الا تعبير وتنفيس عن لذة شيطانية ، مثله في ذلك مثل راعى الغنم في نعيته ، وهذا ما يؤكده ابن عربى بقوله : « وأما أهل السماع والوجد في هذه البلاد فقد اتخذوا دينهم لعباً ولهواً لا تسمع الا من يقول لك رأيت الحق وقال لى وفعل وصنع ثم تطالبه بحقيقة منها أو سر استفاده في شطحه فلا تجد الا لذة نفسانية وشهوة شيطانية يصرخ على لسانه الشيطان فيصعق مادام المغرور ينهق فلا أشبههم الا براعى غنم ينهق فتقبل وتدبر بتعميقه » (٨٠) ، فابن عربى يهاجم الصوفية في السماع لما في ذلك من خوف على أصحاب النفوس الضعيفة من اغواء الشيطان ومطامعه .

ولتلاميذ ابن عربى كلام في السماع ، ومنهم عبد الغنى النابلسى صاحب كتاب الحديقة الندية في شرح الطريقة المحمدية ، الذى يوضح فيه أن السماع اذا اقترن بشئ من المحرمات أو اتخذ سبباً في ارتكاب المحرمات كان هذا السماع محرماً ، أما اذا سلم هذا السماع من ذلك ، وكان دعوة الى الطاعة والعبادة والاقتداء بالرسول ﷺ والصحابه كان هذا السماع مباحاً لا كراهة فيه .

ويوضح عبد الغنى النابلسى وهو أحد فقهاء القرن الثانى عشر « أن من آفات الأذن أيضا استماع الملاحى وهى الترنم بأشعار الفسقة وأصوات الدفوف والمزامير في مجالس الخمر ورقص الفتيات الداعى الى الزنا واللواط لا مطلق استعمال الترنم بآلات اللهو مجرداً عن جميع ذلك في الظاهر والباطن . . ، لا الخالى من جميع ذلك بلا اضطراب لذلك الاستماع أى ضرورة داعية اليه وعدم امكان الاحتراز عنه كالتجار في سوق ، اذا لم يكن فعل التجارة والغزو والحجيج الا مع استماع الملاحى بالوصف المذكور فانه لا يضر في أمر الدين » (٨١) .

(٧٩) ابن عربى (محبى الدين) : الرسائل ، رسالة روح القدس ، تصحيح عبد الرحمن حسن محمود ، تقديم بدوى طه علام ، مكتبة عالم الفكر ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م ، ص ٦١ .

(٨٠) رسالة روح القدس : ص ٤٠ ، وانظر عبد الغنى النابلسى : الحديقة الندية فى شرح الطريقة المحمدية ، مكتبة دار الكتب ، ١٩٢١ ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ .

(٨١) عبد الغنى النابلسى : الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية ، ج ٢ ، ص ٤٠٤ : ٤٠٥ ، وانظر عامر النجار : الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها ،

ص ٥٧ .

لا شك أن عبد الغنى النابلسي أباح السماع المطلق الغير مقترن بالحرمان مثل الغناء من أجل الحجيح أو الغناء من أجل النداء على تجارة وترويجها وتحقيق الثراء الاقتصادي وأيضا الغناء في المناسبات مثل العرس والوليمة إذا لم يكن هناك خمر أو اقتران بآلات الهوى والشهوة ، بقصد الفاحشة ، ومن ثم فإنه يعد استماع الملامى معصية والتعود عليها والتذاذها فسق وخروج عن حدود الشرع ، وهذا ما يوضحه بقوله « استماع الملامى والجلوس عليها فسق والواجب أن يجتهد ما أمكن أن يسمع ولا بأس بأن يتغنى وحده إذا لم يكن على سبيل اللهو وعن الحسن بن زياد رحمه الله يقول : لا بأس بضرب الدف في العرس وعن أبى يوسف رضى الله عنه « لو ضربت المرأة الدف في غير العرس للصبي لا للغناء لا بأس به » (٨٢) ، وفى هذا يقتدى عبد الغنى النابلسي بقول رسول الله ﷺ « استماع الملامى معصية والجلوس عليها فسق والتلذذ بها من الكفر » وبعد عرض آراء الصوفية في السماع فسند أن الصوفية كانوا متفقين فى الباطن مختلفين فى الظاهر ، فمنهم من عده بدعة تخرج عن حدود الشرع وتعرض على الرذيلة فقال بانكاره ، ومنهم من جعل الحكم عليه بحسب التفهم لمعانى المسموع والمناسبة التى يسمع فيها فقال باجارتها ، ومنهم من جعله مندوبا وقال باباحتها .

والسماع عند الصوفى عبد الكريم الجبلى (ت ٨٣٢ هـ) وهو من اصحاب وحدة الوجود على ثلاث مراتب ؛ واجد وهو الشخص الذى يحدث له وجد نتيجة لنزول وارد عليه من قبل الحق تعالى ثمرة لصفاء قلبه فى السماع ؛ متواجد وهو ذلك الشخص الذى يدعى الوجد فى السماع فيقوم بحركات واهتزازات لا صلة لها بالوجد وإنما هى من صنعه ، أما المرتبة الثالثة فهى موافق وهو ذلك الشخص الثابت فى السماع ، قوى الارادة يستطيع أن يتحكم فى جوارحه أثناء السماع ويحاول تفهم معانى المسموع . فهذه التقسيمات الثلاثة للأشخاص فى السماع قد قال بها أيضا الصوفية السابقون على الصوفى عبد الكريم الجبلى ، اذ يقول : « اهل السماع فى فئات ثلاث يسميهم : واجد ومتواجد وموافق ، كما يحصر حركاتهم الصادرة عنهم بأربع أيضا ، فتكون هذه الحركات صادرة ، اما عن علم اليقين . أو عين اليقين ، أو حقيقة اليقين أو حق اليقين » (٨٣) .

(٨٢) عبد الغنى النابلسي : ايضاح الدلالات وسماع الآلات ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، الممزم تصوف ٨٦٠ ، ميكروفيلم رقم ٣٤٩٥٩ ، عدد ورقة ٤٠ ، ص ٤ .

(٨٣) سهيلة عبد الباعث الترجمان : نظرية الانسان الكامل عند عبد الكريم الجبلى ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ م ، ص ٢٤٥ .

ويبدو تأثر الجيلي بمذهبه في وحدة الوجود الذى يفرق فيه بين حق وخلف ، وذلك في مجال رياضة السماع ، ولذلك فهو يمتدح السماع الذى يحصل في مقام الجمع عند وجود جلال أو شهود جمال ، ويشير الى الأحوال المرتبطة بمقام الجمع في السماع فيجعلها عشرة هي : « المكاشفة — والمشاهدة — والمعينة — والحياة — والقبض — والبسط — والسكر — والصحو — والاتصال — والانفصال » (٨٤) .

سابعا : موقف الفقهاء ورجال الدين من السماع خاصة عند الصوفية :

اختلفت الآراء حول السماع ، هل هو حرام أم حلال ، حيث ذهب فريق من العلماء ورجال الدين الى اباحة السماع ، وذهب فريق آخر الى كراهة سماع الغناء واعتباره مصدراً من مصادر الفسق والزنا واللواط .

وسوف نعرض أهم آراء أئمة الفقه الأربعة وعلماء الدين من بعدهم ، الذين ذهبوا الى عدم اباحة السماع لأصحاب النفوس الضعيفة حتى لا يثير السماع في نفوسهم الشهوة والهوى ، ومن بين هذه الآراء رأى أحمد بن حنبل : « اذ روى عنه ابنه عبد الله أنه قال : « الغناء ينبت النفاق في القلب لا يعجبني » (٨٥) .

أما مالك بن أنس فإنه نهى عن الغناء وعن استماعه . « وقال اذا اشترى جارية فوجدتها مغنية كان له ردها بالعيب وهو مذهب سائر أهل المدينة الا ابراهيم بن سعد وحده » (٨٦) .

وكذلك كره أبو حنيفة سماع الغناء وجعله من الذنوب (٨٧) ، وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة ، ابراهيم والشعبي ، وحماد ، وسفيان الثوري ، وغيرهم لا اختلاف بينهم في ذلك .

(٨٤) نظرية الانسان الكامل عند عبد الكريم الجيلي ، ص ٢٤٦ .

(٨٥) ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن) : تلبيس ابليس ، المطبعة المنبرية ،

١٣٤٧ هـ ، ص ٢٢٨ .

(٨٦) تلبيس ابليس : ص ٢٢٩ ، وانظر احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

(٨٧) نفس المرجع السابق ، ص ٢٢٩ ، وانظر احياء علوم الدين ج ٢ ، ص ٢٣٨ هـ ،

ص ٢٢٨ ، وانظر طاهر المقدس : كتاب السماع ، تحقيق أبو الوفا المرافى ، لجنة احياء التراث الاسلامي ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

أما مذهب الشافعى فى السماع ، فقد ذهب الى كراهة السماع للعوام ، بل كان يعتبره مما يسقط المروءة ولهذا فان الشافعى يقول « الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ، ومن استكثر منه فهو سفیه ترد شهادته » . . . ، كما نص الشافعى فى كتاب أدب القضاء « على أن الرجل اذا داوم على سماع الغناء ردت شهادته وبطلت عدالته » (٨٨) .

إذن سماع الغناء من الذنوب وما أباحه الا نفر قليل من الفقهاء ومن أباحه من الفقهاء أيضا لم ير اعلانه فى المساجد والبقاع الشريفة وقيل فى تفسير قوله تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ
مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيُغَيِّرَ عِلْمَهُ وَيَخُونَهَا
هُنَرًا أَوْ لِبَاسًا لِيُخَالِفَ بِإِثْمِهِ مَنَاسِكَ اللَّهِ لَعَلَّ الْكَافِرُ يَأْخُذُهَا
هَزْوًَا أَوْ لِبَاسًا لِيُخَالِفَ بِإِثْمِهِ مَنَاسِكَ اللَّهِ لَعَلَّ الْكَافِرُ يَأْخُذُهَا

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : هو الغناء والاستماع اليه (٨٩) .

ويوضح هذه الآراء الدكتور عامر النجار اذ يقول « يقصد بالسماع الغناء والموسيقا وهى الضابط للابقاع وأنشاد الشعر والمنظومات والغناء والرقص والتمايل وهى من أقسام السماع ، وبالطبع : اذا كان السماع يهدف للعب بالفرائز والشهوات فهو منهى عنه ، وخاصة رأى أئمة المسلمين المجتهدين التحرز من السماع والاقلال منه خوفاً من أن يؤدى الى شرور النفس وفسادها ، أما الاباحة فللمستمع الذى يتوفر فيه الرغبة فى الطاعات وتذكره بما أعدده الله لعباده المتقين من الدرجات فى الجنة » (٩٠) .

هذا ، وقد هاجم السماع أيضاً جملة من علماء المسلمين من بينهم أبو بكر الطرطوشى الذى يصف السماع بأشد الألفاظ تجريحا محاولا اثبات تحريمه شرعا وأورد الكثير من الأدلة الشرعية على تحريم الغناء حيث (سئل عن جماعة يجتمعون فى محل وينشدون مثل هذه الأشعار وهى هذه :

(٨٨) تلبس إبليس : ص ٢٢٠ ، وانظر الرسالة القشيرية ، تحقيق د. عبد الحليم محمود : ج ٢ ، ص ٦٣٨ ، وانظر السهروردى : عوارف المعارف الجزء الخامس من احياء علوم الدين ، ص ١٦٢ .

(٨٩) عوارف المعارف : ص ١٦٢ ، سورة لقمان : آية (٦) .

(٩٠) د. عامر النجار : الطوق الذهبية فى مصر. نشأتها ونظمها وروادها ، ص ٥٥ : ٥٦ .

يا شيخ كف عن المعاصي والذنوب قبل التفريق والزلل
واعمل لنفسك صالحاً ما دام ينفعك العمل
أما الشباب فقد مضى ومشيبي رأسك قد نزل

قالوا : أجاب بقوله : مذهب هؤلاء بطالة وجهالة ، الى أن قال :
وما الاسلام الا كتاب الله وسنة رسوله الى آخر كلامه « (٩١) .

فهجوم الطرطوشي على سماع الأناشيد والأشعار عند الصوفية خطأ كبير ، فكيف يذكر أبياتاً تحت على ترك المعاصي والذنوب وتدعو الى اليقظة وعدم الغفلة والدعوة الى العلم النافع ، أما اذا كان انكاره خوفاً على المريدين من أن يشغله السماع عن القيام بالطاعات والواجبات التي تدعو اليها الأبيات فهذا صحيح وواجب حتى لا يضيع المريدين وقتهم في السماع فقط دون التفهم لما يسمعه ، وهذا ما يوضحه القول السابق .

كما هاجم السماع ، ايضاً ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) وهو من فقهاء القرن السابع الهجري ، ونقد مسالك الصوفية في الغناء والرقص وذكر أدلة على كراهة الغناء والآثار الناجمة عن سماعه ، وكان في أغلب أحواله من ألد خصوم الصوفية في هذه المسألة ، وقد أنكر عليهم حب الغناء الشيطاني ويستشهد بقول ابن مسعود (الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل ويذكر أنه شاهد ثقل القرآن على أهل الغناء والسماع » (٩٢) .

أنه لا يتحرر الكلام في هذه المسألة الا بعد معرفة صورة المسموع وحقيقته ومرتبته ، ولن يجعل الله من سماع الآيات البيّنات كمن سمع الغناء والأبيات ، ولهذا يرى ابن القيم أن من اهتم بسماع الغناء لذاته ضل وبعد عن طريق الحق ، وأصبح سماع القرآن ثقيلاً على قلبه ؛ ذلك لقسوة قلبه وفساده بالغناء الخارج المثير للشهوة . هذا ما يؤكده بقوله : « لا تجد أحداً عني بالغناء وسماع آياته الا وفيه خلال عن طريق الهوى علماً وعملاً وفيه رغبة عن استماع القرآن الى استماع الغناء بحيث اذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن عدل عن هذا

(٩١) محمد بن أحمد نور بن حمدين : قطع النزاع وكشف القناع عن دليل جواز السماع ، مكتبة الحلبي ١٣٨٣ م - ١٩٦٤ م ، ص ١٦ ، ١٧ ، ٣٨ ، وانظر ايضاً ابن قيم الجوزية : اغاثة اللهفان في مصايد الشيطان وبهامشه كتاب الهجرتين باب السعادتين ، المطبعة الميمنية عام ١٣٢٠ هـ ، ص ١٢٠ .

(٩٢) ابن القيم : مدارج السالكين ، تعليق السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بمصر عام ١٣٣٢ هـ ، ج ١ ، ص ٢٧٥ ، وانظر د. زكي مبارك : التصوف الاسلامي في الأدب والأخلاق ، مطابع دار الكتاب العربي بمصر عام ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م ، المطبعة الثانية ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ .

الى ذاك وثقل عليه سماع القرآن وربما حمله الحال على أن يستثت
القارئ ويستطيل قراءته ويستزيد المغنى ويستقصر توبته « (٩٣) .
ومن الفقهاء أيضاً الذين هاجموا الصوفية في القول
بسماع الاناشيد والرباعيات هو ابن تيمية الذى اعتبر سماع الرباعيات
والرقص بالايقاع كفرا وفسقا ، وهذا ما يؤكد بقوله : « وما جرى
على وصف المرثيات ونعت المخلوقات فاستماع ذلك كفر ، واستماع
الغناء والرباعيات على الله كفر ، والرقص بالايقاع ونعت الرقاصين
على أحكام الدين فسق ، وعلى أحكام التواجد والغناء لهو ولعب ،
وحرام على كل من يسمع القصائد والرباعيات الملحنة . . . الا لمن تقدم
له العلم بأحكام التوحيد ومعرفة أسمائه وصفاته . . . فيكون استماعه
كما قال تعالى [سورة الزمر : آية ١٨]

الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ

فَيَلْعَنُونَ أَحْسَنَهُ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ

وكل من جهل ذلك وقصد استماعه على الله غير تفصيل فهو كافر
لا محالة « (٩٤) .

ومن ثم فان السماع المحدث وهو سماع الغناء والآلات الموسيقية ،
فلم يكن الصحابة والتابعون لهم يجعلون هذا طريقا الى الله تعالى ،
ولا يعدونه من القرب والطاعات ، بل يعدونه من البدع المذمومة

إذن فالسماع من حيث هو سماع لا حرمة فيه وإنما اذا اتخذ هذا
السماع وسيلة وأداة الى طريق المحرمات كان هذا السماع محرما
عند أجلة القوم والفقهاء .

ومن رجال الدين أيضا كرهوا سماع الغناء واعتباره وسيلة
وأداة توصل المريد الى سخط الحق تعالى هو ابن قدامة (ت ٦٢٠ هـ) ،
اذ يقول : « فأما من يجعله ديناً ويجعل استماعه واستماع الغناء :
قربة وطريقاً الى الله سبحانه فلا يكاد يوصله ذلك الا الى سخط الله

(٩٣) ابن القيم : الروح ، دار المعارف ١٣٢٤ هـ - ١٩٣٠ م ، ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ ،
وانظر مدارج السالكين ، ج ١ ، ص ٢٧٤ ، وانظر اغاثة اللهفان فى مصايد الشيطان ،
ص ١٢٩ ، وانظر ابن القيم : حكم الاسلام فى الغناء ، تحقيق أبو حذيفة ابراهيم بن
محمد ، مكتبة الصحابة بطنطا ، ١٩٨٦ ، ص ٢٧ ، وانظر روضة المحبين ونزهة
المشتاقين ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٩٤) ابن تيمية (تقى الدين أحمد) : الفتوى الحموية الكبرى ، دار الكتب
المصرية ، ١٣٨٧ هـ ، القاهرة ، ص ٥٧ ، وانظر الصوفية والفقراء ، ص ١٣٣ ،
١٣٤ .

ومؤثته « (٩٥) ، ومن ثم قد أعد الفقهاء سماع الغناء والشعر هو السماع الشيطاني ، وسماع القرآن الكريم والحكم هو السماع الروحاني .

وإذا كان معظم الفقهاء رفضوا سماع الأناشيد بالدف ، فإن طاهر المقدسي (ت ٥٠٧ هـ) قد ذهب إلى أن الضرب على الدف وسماعه سنة لا يمكن أن يرفضها إلا جاهل بالسنة ، ولذلك قال « وأما ضرب الدف والاستماع إليه فنقول : أنه سنة ، سمعه رسول الله ﷺ وأمر بضربه لا ينكره إلا جاهل مخالف للسنة ، وقد قال رسول الله ﷺ « من رغب عن سنتي فليس منه » أخبرنا أبو القاسم علي بن أحمد ابن البندار (٩٦) .

فالشعر عندما يأمر بالطاعة أو يدعو إلى الحكمة ومكارم الأخلاق والفضيلة ، وغير ذلك من خصال الخير ، لا يمكن لأى عالم بالدين أن يجهله ، فالشعر غذاء للأرواح مثل الطعام للبدن ، أما إذا كان هذا الشعر يدعو إلى المجون والهو والمعصية والزيلة ، فإنه لا يباح سماعه ، وهذا ما يدعو إليه الفقهاء ، وقد اتفقت معهم في هذا القول وأيضا ابن حجر الهيتمي ، (ت ٩٧٣ هـ) بقوله : « أن كل شعر فيه الأمر بالطاعة ، أو كان حكمة أو كان في مكارم الأخلاق ، أو الزهد ، أو نحو ذلك من خصال الخير ، كحث على طاعة أو سنة أو اجتناب معصية

(٩٥) فتيا في ذم الشبابة والرقص والسماع ، ص ٦٢ .

(ابن قدامة هو أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الجماعلي الدمشقي الصالحى الحنبلى ، ولد بجماعيل من علم نابلس قرب بيت المقدس بفلسطين في شعبان سنة ٥٤١ هـ وارتحل مع والده إلى دمشق حوالى سنة ٥٥١ هـ ، وتوفى حوالى سنة ٦٢٠ هـ ودفن في سفح قاسيون ، وقد جاهد هو وبعض أفراد أسرته مع صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٢ هـ ، انظر فتيا في ذم الشبابة والرقص والسماع ، ص ١٣) .

(٩٦) طاهر المقدسي (ابن القيسرائى) : كتاب السماع ، تحقيق أبو الوفا المرازى ، مكتبة لجنة احياء التراث الاسلامى ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م ، ص ٥١ .
(ابن القيسرائى علم من اعلام القرن الخامس ، أولع بعلم الحديث ، فسافر في طلبه إلى أكثر من أربعين مدينة وبلدا من بلاد العالم الاسلامى ، فابن القيسرائى هو محمد ابن طاهر بن على بن أحمد بن أبى الحسن الشيبانى أبو الفضل المقدسي المعروف بابن القيسرائى المولود سنة ٤٤٨ هـ وقيل سنة ٥٠٧ هـ ، وانظر كتاب السماع ، ص ٢٤ - ٢٦ .

يكون كل من انشائه وانشاده وسماعه سنة ، كما صرح به غير واحد من أئمتنا وهو ظاهر ، اذ وسيلة الطاعة طاعة « (٩٧) .

ويجهل الشيخ محمود شلتوت آراء الفقهاء في السماع في الاباحة والتحريم بقوله : « فسماع الآلات أو الأصوات الجميلة لا يمكن أن يحرم باعتباره صوت آلة أو صوت انسان ، وانما يحرم اذا استعين به على محرم أو اتخذ وسيلة الى محرم أو الهى عن واجب » (٩٨) .

ومن رجال العلم والدين في القرن السابع الهجرى الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ، اذ يورد السماع في ثلاث مراتب مثله في ذلك مثل باقى الصوفية السابقين عليه اذ يقول : « ان السماع ينقسم الى ثلاثة أقسام :

١ — منها ما هو حرام محض ، وهو لأكثر الناس من الشباب ، ومن غلبت عليهم شهواتهم ولذاتهم ... فلا يحرك السماع منهم الا ما هو الغالب عليهم وعلى قلوبهم من الصفات الذميمة سيما في زماننا هذا وتكثر أحوالنا وفساد أعمالنا .

٢ — ومنها ما هو مباح لن لا حظ له منه الا التلذذ بالصوت الحسن واستدعاء السرور والفرح ، أو يتذكر غائباً أو ميتاً فيثير حزنه وفرحه بما يسمعه .

٣ — ومنها ما هو مندوب : وهو لن غلب عليه حب الله تعالى والشوق اليه ، فلا يحرك السماع منه الا الصفات المحمودة وتضاعف الشوق الى الله سبحانه وتعالى .. » (٩٩) .

وهكذا يتضح لنا مدى اهتمام الفقهاء بفكرة السماع وما يثمره في نفس العبد من التحلى بمكارم الأخلاق والفضيلة من خلال السماع الحسن بالصوت الطيب ، والبعد عن السماع المثير للهوى والمجون

(٩٧) ابن حجر الهيتمى : كف الرعاع عن محرمات اللهن والسماع ، حكم الاسلام فى الغناء والموسيقى والشطرنج ، تحقيق : عادل عبد المنعم أبو العباس ، مكتبة القرآن ١٩٨٩ ، ص ٢٦ .

(٩٨) عامر النجار : الطرق الصوفية ، ص ٥٨ .
(٩٩) العز بن عبد السلام : حل الرموز مفاتيح الكنوز ، صص ٢٨ : ٢٩ .

والسمو بالروح الى عالم الكمال الاخلاقي ، وهذا ما يؤكد شول
الدكتور عامر النجار : (فاذا كان هدف السماع مجرد اللهو
والتسليية واشتغال النفس وانبساطها وسرورها وفسادها وتقوية
الغرائز وامتدادها والتذاهها فالسمع مكروه محرم ، أما اذا كان السماع
بعيدا عن المجون بريئا من اللهو يرجو منه صاحبه سمو روحه وارتفاع
نفسه بهمته فهو ليس مكروها » (١٠٠) .

» وفي ترك سماع الأشعار ، والصوت الموزون مخالفة للنبي عليه
الصلاة والسلام ، وانحراف عن متابعتة ومن خالف النبي ، وترك
ما فعله عليه السلام ، معتقدا تركه ، فقد كذب القرآن ، حيث قال الله
تعالى :

مَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولٍ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ
وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَلِذِينَ السَّبِيلِ لَا يَكُونَ
دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ
عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

وعن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « ان من الشعر
لحكمة » (١٠٢) (١٠٣) .

(١٠٠) عامر النجار ، الطرق الصوفية ، ص ٥٨ .

(١٠١) سورة الحشر : آية (٧) .

(١٠٢) الحديث أخرجه البخاري من حديث أبي بن كعب في كتاب العلم .

(١٠٣) انظر قول الامام أحمد الغزالي في : بيارق الالاع في تكفير من يحرم

السمع ، تحقيق هشام عبد العزيز مجلة القاهرة ، العدد ١٤٨ ، مارس ١٩٩٥ ،

ص ١٦٥ .

الفصل الثانى

صلة السماع بالناحية النفسية

تمهيد *

- أولا : شعور الصوفى بالسماع
 - ثانيا : السماع والاستعداد النفسى
 - ثالثا : السماع والرياضات الروحية
 - رابعا : السماع وتأثيره فى نفس المستمع
- [الموسيقى - الحركة - الرقص
- تقطيع الخرقه] *

تمهيد •

إن مسألة السماع وما ينتج عنه من وجد (١) لها علاقة عظيمة بالنفس ورياضتها ومجاهدتها ؛ لذلك يهدف هذا الفصل الى شرح وتوضيح فكرة السماع من الناحية السيكلوجية ، فالسماع حالة وجدانية خاصة يعانيتها المريد من خلال شعور داخلي بذاته وبالأحوال التي ترز عليه ، وهى من الأعمال الباطنية •

ونوضح فى هذا الفصل أيضاً فكرة السماع وعلاقتها بالرياضيات البدنية الأخرى كالعزلة والخلوة والصمت والذكر وغيرها وهى من الأعمال الظاهرية ، والسماع هو احدى الرياضيات الروحية التى يمارسها المريد من أجل التطهر والصفاء ، ومحاولة تخلق النفس عن أخطائها وتذكرها الدائم للحق تعالى ، وحول هذا المعنى يقول الهجویری : « اعلم أن السماع واره من الحق وتزكية لهذا الجد من الهزل واللهو ولا يكون طبع المبتدىء قابلاً لحديث الحق بأى حال وبورود ذلك المعنى الربانى يكون للطبع انقلابه وحرفته ، فجماعة تفقد الوعى فى السماع وجماعة تهلك ولا يوجد أحد الا ويخرج طبعه عن حد الاعتدالى » (٢) •

فالسماع عند الصوفية هو دعوة الى الجد وتزكية النفس وطهارتها وصفائها من الهزل واللهو ، والسماع الصافى يورد فى نفس صاحبه

(١) يقول ابن قيم الجوزية « ان الوجد والاحساس بالمؤلم والعلم به وتحرك النفس فى رفعه فهو كمال ، انظر الروح : ص ٣٦٩ ، ويقول أبو بكر الكلابادى : الوجد هو ما صادف القلب من فزع أو غم ، أو رؤية معنى أحوال الآخرة ، أو كشف حال بين العبد والله عز وجل ، انظر التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص ١٣٤ •

(٢) الهجویری (أبو عثمان حسن بن الجلاب) كشف المحجوب ، مخطوط يدار المكتب تحت رقم ١٧٩٣ ، القاهرة ، ١٩٦٧ م ، ج ٣ ، ص ٦٥٥ •

وجداً ، فاذا كان صاحب هذا الوجد قوى الحال ، فانه يؤثر فيه دون ان يتحرك ، بل يظل ثابتاً على حاله ، أما المريد الضعيف فيؤثر فيه الوجد في صورة غشية ، أو تصفيق أو رقص أو خروج عن حد الاعتدال ؛ لذلك ينصح الهجویری الصوفية بعدم دخول المريد المبتدئ في الطريق جلسات السماع . وهذا ما يؤكد المعنى السابق .

ولقد اهتم الصوفية برياضة السماع اهتماماً بالغاً من الناحية النفسية ، فالسماع غذاء للروح وشفاء من الأمراض والشبهوات والملاذات الدنيوية ، أى حفظ للنفس من الاحتراق بأمور الدنيا وزخرفها ، وهذا ما يؤكد قول أبى سعيد بن أبى الخير (ت ٤٤٠ هـ) : « السماع يحتاج الى إيمان قوى لأن الله تعالى قال :

وَمَا أَنْتَ بِإِلَهٍ الْمَعْنَى ضَلَّكُمْ إِنْ سَمِعُوا إِلَّا مِنْ دُونِ بَابِنَا فَرُّهُمْ مُسْتَعْلُونَ ﴿١١﴾

فالسماع غذاء الأرواح وشفاء الأشباح ، والسماع لسلك الطريق ومن لم يسلك الطريق لا يكون له سماع بالتوفيق » (٣) .

فكما أن الطعام غذاء للبدن فان السماع غذاء للروح ، ولذلك لا يمكن التركيز على طرف دون الطرف الآخر من أجل انسجام النفس الانسانية وتكاملها .

وفي هذا الفصل ايضا سيوضح البحث دور الارادة في وقت السماع والاشتغال بالطاعات والأوامر الالهية ، ونطرح بعض الأسئلة ونحاول الاجابة عليها من خلال هذا الفصل .

هل تنتفى الارادة البشرية وقت السماع ؟

وما هى الحالة التى تنتاب المريد بعد السماع نتيجة الوجد أهى حركة أم ثبات ؟ وما نوع تلك الحركة التى تسيطر عليه أهى موزونة أم غير موزونة ؟ .

أولاً : شعور الصوفى بالسماع :

النفس تنقوى بالخير والفضيلة كما ينقوى الجسد بالغذاء والرياضة فاذا فقدت حاجتها من الخير والنور ضعفت وأظلمت ، كما يضعف الجسد عند فقدان الطعام والشراب والضوء والرياضة والسماع الذى

(٣) محمد بن المنور : أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد ، ترجمة إسعاد عبد الهادى قنديل ، مراجعة د . يحيى الخشاب ، دار الكتب المصرية ، ١٩٦٨ م ، ص ٣٥١ ، سورة النحل : آية ٨١ .

يعتبر مذموماً بصورة عامة ويعد أهما عند أكثر أكابر الصوفية ومن أهم الطرق للوصول الى حالة الوجد ، لذلك قالوا « ان السماع يولد حالة في القلب تسمى الوجد ويولد هذا الوجد حركات في أعضاء البدن ، فان كانت غير موزونة تكون اضطراباً وان كانت موزونة فحينئذ يكون تصفيقاً ورقصاً » (٤) .

فالحركة الغير موزونة هي اضطراب أو حالة اغشاء وغشية تصيب المريد فترة نتيجة لقوة الوارد عليه من قبل الحق سبحانه تعالى، ثم بعدها يعود الى حالته الطبيعية ، أما الحركات الموزونة عند الصوفية فتتجسد في التصفيق ، والرقص ، لكن رقص الصوفية هو اهتزاز وتمايل ولا يشبه الرقص المثير للشهوة والهوى .

فاذا كان الوجد طريقاً نفسياً الى الفناء فان السمع طريق نفسى أيضاً الى الوجد ، والوجد هو حالة صافية روحية خالصة ، تقوى فيها الروح على الجسد ، فيصير السالك في نشوة ربانية يحس فيها أنه من الحق ، وهو يلحق العبد مصادفة بلا تعدد ، فكل وجد فيه من صاحبه شيء فليس بوجد ، والتواجد بداية ، والوجد نهاية (٥) ، والوجد واسطة بين البداية والنهاية ، والسماع عند الصوفية كما يقول النهرجورى : « حال يبدى الرجوع الى الأسرار من حيث الاحتراق » (٦) .

فالسماع يمثل جانباً نفسياً عميقاً فى الطريق الصوفى ، وتختلف درجة شعور الصوفى بالسماع من حالة الى أخرى ، كما أن لكل صنف من السماع أحواله الخاصة المتفاوتة ، فهنهم من يسمع ويتأمل ما يرد عليه ويتفهم معانيه المختلفة من ذكر عتاب أو هجر أو غير ذلك من معانى المسموع ، وهذا هو حال المستمع بالحال ، أما من يسمع بحق

(٤) تاريخ التصوف فى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٥٥٧ .

(٥) التواجد استدعاء الوجد بضرب اختيار وليس لصاحبه كمال الوجد اذ لو كان لكان وجداً ، ٠٠٠ فقال الجنيد قال تعالى .

وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَمَادَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ
الَّذِى أَقْنَىٰ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

ثم قال وانت يا أبا محمد مالك فى السماع شيء فقلت يا سيدى أنا اذا حضرت موضعاً فيه سماع وهناك محتشم أمسكت على نفسى وجدى فاذا خلوت أرسلت وجدى فتواجدت فاطلق فى هذه الحكاية من التواجد ولم ينكر عليه الجنيد « فالتواجد ابتداء الوجد » فالتواجد فى بداية الوجود نهاية والوجد واسطة بين البداية والنهاية ٠٠ ، يقول أبو على الدقاق ٠٠٠ ، فالتواجد يوجب استيعاب العبد والوجد يوجب استغراق العبد والوجد يوجب استهلاك العبد فهو كمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق فى البحر انظر الرسالة التفسيرية فى علم التصوف : ص ٥٧ : ٥٨ .

(٦) اللع : ص ٣٤٢ .

فهو الذى يسمع بالله تعالى ومنه والبه فان عن صفاته البشرية في سماعه ، وهذا ما يوضحه قول بNDAR بن الحسين (ت ٣٥٣ هـ) : « السماع على ثلاثة أوجه فمنهم من يسمع بالحال ومنهم من يسمع بالحق فالذى يسمع بالحال يتأمل ما يرد عليه من ذكر عتاب أو خطاب أو وصل أو هجر أو قرب أو بعد أو تأسف على فائت . . ، وأما من يسمع بحق فيسمع بالله تعالى والله تعالى ولا يتصف بهذه الأحوال التى هى ممزوجة بالحفظ البشرية فانها ميثاة مع العمل ، فيسمعون من حيث صفاء التوحيد بحق لا بحظ » (٧) .

« ولقد روى أنه عندما زال الإنكار عن باطن الأستاذ (القشيري) ، كان لا يزال يذكر السماع الذى يقيمه الشيخ أبى سعيد (ت ٦٠٠ هـ) ، ذلك أنه كان ينكر السماع في البداية ، ومر يوماً على باب خانقاه الشيخ ، وكان عندئذ يقيمون السماع فى الخانقاه . . وكان الشيخ قد أمر بالسماع ، وقد تملكه حال من الوجد ، وشملت النشوة جميع الدراويش وأخذ القوال ينشد هذا البيت :

لا عار عليك اذا أصبحت وثنيا من أجل صنم
لأنك اذا لم تصبح وثنيا لا يكون الصنم صديقا لك

فأنكر الأستاذ الامام (القشيري) ذلك البيت وقال لنفسه : لو أمكن تأويل جميع الأبيات على وجه من الوجوه ، فان هذا البيت يكون من الأبيات التى لا يمكن تأويلها . . . ، ولما جلس ألفت الشيخ اليه وقال : يا أستاذ (بيت) :

الا يلحق بك العار اذا أصبحت وثنية من أجل صنم ؟
واذا لم تكن وثنية هل يكون الصنم صديقا لك ؟

قال الشيخ البيت هكذا على وجه الاستفهام ، وعندما يسمع الأستاذ (القشيري) طريقة تفسير هذا البيت الذى لم يستطع تفسيره ، ورغم ما له من علم ودراية فى التصوف ورغم أنه فكر فيه كثيراً ، أقر بأن السماع مباح للشيخ ، وسلم به . . « (٨) .

(٧) الرسالة القشيرية : ص ١٧٠ ، وانظر للمع : ص ٣٤٩ : ٣٥١ ، وانظر الرسالة القشيرية فى علم التصوف ، ص ٢٦٧ .
(بNDAR بن الحسين هو محمد بن المهلب كنيته أبو الحسن من أهل شيراز ، مات سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ، انظر طبقات الصوفية : ص ٤٩١ ، وانظر الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١٣٨ .

(٨) سعيد بن أبى الخير : أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد
ص ٩٨ ، ٩٩ .

فالتفهم لمعانى المسموع حالة لا يستطيع أى مريد أن يقوى عليها وذلك يتضح من عدم قدرة القشيري على تفهم معانى الأبيات السابقة فى البداية ، ومن ثم أنكرها لعدم معرفة المعنى الحقيقى لهذه الأبيات ، ولكن عندما تفهم هذه المعانى أقر بها وأباح سماعها ؛ ذلك لأن هذه دعوة الى التوحيد وترك عبادة الأصنام .

من ذلك يتضح لنا اختلاف أنواع السماع حسب حالة المريد فى السماع ، والنوع الثالث من السماع هو سماع خاصة الخاصة ، وهم أهل الولاية والكمال ، وهذا النوع هو محل دراستنا لأنه مقترب يحدث الاضطراب والانزعاج والغشية والشبهة وغير ذلك ، وأما الثابتون الصامدون فلا يتغير حالهم وهذا أفضل ، وذلك ما يؤكد قول أبى عمر الزجاجى (ت ٣٤٨ هـ) عندما سئل عن السماع فقال : « ما أدون حال من يحتاج الى مزعج يزعجه اليه السماع من ضعف الحال ولو قوى الاستغنى عن السماع والأسباب » (٩) .

فحال القوى فى السماع يفنى عن الارادة الانسانية وعن كل شئ حوله وقت السماع ويبقى بالارادة الالهية وذلك لقوة الوارد عليه وثباته وعدم انزعاجه لهذا الوارد — كما سبق ذكره — ويثمر السماع الوجد ، وهو حالة تنتاب المريد بعد سماعه ، فهتلا سماعه للقرآن الكريم لحبه وتشوقه الدائم الى لقاء الحق تبارك وتعالى والشوق اليه وعدم تعلقه بالمخلوقين ، وصاحب الوجد اما أن يكون فى حركة اثناء الذكر واما أن يكون فى سكون وثبات بالرغم من ذكره .

فالحشوع والوجل من مظاهر الوجد الذى ينتجه السماع ، وهذا ما يؤكد الغزالى بقوله : « الوجد الحق هو ما ينشأ من فرط حب الله تعالى وصدق ارادته والشوق الى لقائه ، وذلك يهيج بسماع القرآن ايضا ، وانما الذى لا يهيج بسماع القرآن حب الخلق وعشق المخلوقين

(٩) طبقات الصوفية : طبعة ليدن ، ١٩٦٠ ، ص ٤٥٣ .
(أبو عمر الزجاجى ، اسمه محمد بن ابراهيم بن يوسف بن محمد نيسابورى الاصل ، صاحب أبا عثمان والجنيد والنورى وروى وابراهيم الخواص ، توفى سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ، انظر طبقات الصوفية : ص ٤٤٩ : ٤٥٠) .

ويبدل على ذلك قوله تعالى :

الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ
أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (١٠) (١١)

وإذا تخلص العبد من حظوظه وأوصاف بشريته قرب من حضرة ربه لصحة قلبه واشراقه بنور مولاه ، وإذا تهذبت نفسه وتربت تربية دينية تحقق لها الانتقال من شهود الخلق والأغيار الى شهود نور الحق تعالى ، وعلامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عن الوجد لوجود الراحة منها عند الفقد ، ولا شك أن أعظم الأعمال وأروعها هو سماعها لذكر الحق تعالى ، ولا ينبغي للمريد أن يعدل عن هذا السماع ، ولذلك قيل : (لا يصلح السماع الا لمن فنيت حظوظه وبقيت حقوقه وخمدت بشريته) (١٢) .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو ما شعور الصوفى أثناء السماع ؟

يتضح لنا أن السماع إما أن يثير فى نفس السالك حزناً وندماً على ذنب ارتكبه أو يثير الشوق الى لقاء الحق تعالى ، أو الاحساس بالخوف والرهبة والرجاء من الحق تعالى ، وهذه المشاعر تنعكس على نفس السالك فتفيض عيناه بالدمع أو يقشعر جلده من خشية الحق تعالى ثم يلين قلبه ويصلح بذكر الحق تعالى ، ومن ثم تحققت له الهداية والرشاد ، وهذا ما يوضحه السهروردى البغدادي (ت ٦٣٢ هـ) بقوله ، وقال عن وجل :

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ
تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْبُنَّا

مَعَ الشَّاهِدِينَ (١٣) (١٤)

(١٠) سورة الرعد : آية (٢٨) .

(١١) احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٣٧٨ ، وانظر قول عبد الرحمن بن الجوزى فى مختصر منهاج القاصدين ، تصحيح ونشر محمد أحمد دهمان ، دمشق ، ١٣٧٧ هـ . ص ١٣٩ .

(١٢) مخطوط آداب المريدين : ص ٤٧ .

(١٣) سورة المائدة : آية (٨٣) .

(١٤) عوارف المعارف : ص ١٧٣ ، وانظر فتح الاسماع فى شرح السماع ، ص ٧٦ .

وانظر الغيبة لطالب طريق الحق : ج ١ ، ص ٣٢ .

هذا السماع هو السماع الحق الذى لا يختلف فيه اثنان من أهل
الايمان محكوم لصاحبه بالهداية واللب ، وهذا سماع ترد حرارته على
برد اليقين فتفيض العين بالدمع ، لانه تارة يثير حزناً والحزن حار ،
وتارة يثير شوقاً والشوق حار ، وتارة يثير ندماً والندم حار ، فاذا
اثر السماع هذه الصفات من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين أبكى
وادمع ، لأن الحرارة والبرودة ، اذا اصطدما عصرا ماء ، فاذا ألم
السماع بالقلب تارة يخف المأمة فيظهر اثره فى الجسد ويقشعر منه
الجلد ، قال الله تعالى :

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ
الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانٍ تَشْعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ
مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (١٥)

وقال أيضاً :

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَعَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ
مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِنْ نَحْلَانَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَمِنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا نَسَلْنَا عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرِّجْزِ وَأَرْسَلْنَا رُسُلَنَا
(١٦)

ويفسر علماء النفس حالة الوجد التى تتتاب المريد أثناء السماع
بقولهم أن النفس تدور حول ذاتها طبقاً لقانون النوع والفرد ، نتيجة
لتعرضها لتيار جارف ، وهو ما يسميه الصوفية بالوجد ، تخرج عن
هذا القانون لحظة وتستسلم لهذا التيار بجملتها ، دون ادراك لهذه
القوة التى تحركها وفى هذه اللحظة (لحظة الوجد) تشعر النفس
بوجودها من خلال تذكرها لعالمها السابق قبل أن تحل بالبدن ، وعند

(١٥) سورة الزمر : آية ٢٣ •

(١٦) سورة مريم : آية (٥٨) •

هذه اللحظة تشعر بأن الحق تعالى حاضر فتغمرها فرحة وبهجة لمشاهدتها لنور الحق تعالى ، فالوجد أذن هو استجمام النفس لحظة شعورها بذاتها ثم العودة الى حياتها الطبيعية مرة ثانية . فيوضح هنري برجسون Henry Bergson بقولته : « إن النفس حين تهتز في أعماقها بالتيار الذي يجرفها ، تكف عن الدوران على ذاتها بافتلاتها لحظة من القانون الذي يريد للنوع والفرد أن يحدد كل منهما الآخر دورانياً ، انها تتوقف كان صوتاً يدعوها ، ثم تستسلم للتيار يحملها ، ويمضي بها قدماً ، انها لا تدرك القوة التي تحركها ادراكاً مباشراً ، ولكنها تحس بوجودها الغامض ، أو تستشفه في رؤية رمزية ، وعند ذلك يغمرها فيض من فرح أو وجد . تفرق فيه أو بهجة تعانيتها ، فتشعر أن الله حاضر . . ، أن نفس الصوفي الكبير لا تقف عند الوجد على أنه غاية المطاف . ان الوجد استجمام ، ان شئت ، ولكنه استجمام كاستجمام القاطرة تتوقف في المحطة ملجومة في مكانها ، ولكنها ما تزال تتحرك بانتظار اندفاع جديدة » (١٧) .

مما سبق يتضح لنا أن الصوفي اذا استمع الى انشاد القصائد الدينية التي ترقق القلب وتشعل حب الله في قلوب عشاقه والتزم في ذلك بشروط السماع وتواجد في غير تكلف والتزم السكون والخشوع ، فلا حرج عليه ، فالسماع سفير ورسول من الحق يحمل أهل الحق الى الحق ، فمن أصغى اليه بفهم وتدبر وصل الى الحق ، ومن أصغى اليه بطبع النفس وهواها خرج عن حدود الشرع وتزندق ، وهذا ما يوضحه قول أبي سعيد بن أبي الخير : « قال الشيخ : سئل الأستاذ أبو علي الدقاق (ت ٤١٢ هـ) عن السماع فقال : السماع هو الوقت فمن لا سماع له لا سمع له ، ومن لا سمع له ، فلا دين له ،

لأن الله تعالى قال **إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَغَرُّونَ** ﴿٣٥﴾

وقال تعالى : **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴿١٧﴾

(١٧) هنري برجسون : منبعها الاخلاق والدين ، ترجمة سامي الدروبي ، وعبد الله عبد الدائم ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٤٠ م ، ص ٢٠٨ ، الشعراء : آية (٢١٢) ، الملك : آية (١٠) .

فالسَّماع سفير من الحق ، ورسول من الحق يحمل الحق ، لأهل الحق بالحق الى الحق ، فمن أصغى اليه بحق تحقق ، ومن أصغى اليه بطبع تزندق » (١٨) .

ثانيا : السماع والاستعداد النفسى :

إن مسألة السماع لها علاقة عظيمة بالنفس وبقاى الرياضيات الأخرى ، كما أن من أهم الحالات الوجدانية التى يعانىها الصوفى هى حالة الاستعداد النفسى ، وهى أيضا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسماع عندهم ، فالنفس تدعو الانسان الى اتباع الشهوات والانغماس فى المذات ، وهى منبع الأخلاق الذميمة والشرور ، وهذا ما يتعارض مع السماع ، وأن الرياضة والمجاهدة يتحققان بمخالفة هوى النفس ، ومهما يكن من أمر السماع فإنه بلا شك كان وسيلة جيدة لترويض النفس وتهذيبها وحملها على طاعة المولى عز وجل فى كل ما يصدر عن السالك ، وهذا ما يؤكده الهجويزى بقوله : « هو وسيلة جيدة للتأثير والتطهير رغم اختلاف القوم فيه وما روى عن سماع القرآن لهر خير دليل على الآثار الروحية التى يحدثها السماع (١٩) قد ذكر عن النبى ﷺ أنه عندما استمع الى قوله تعالى :

إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالَ الْوَحِيمِ ۖ وَطَمَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَلَا بَا
أَلِيمًا ۖ

(٢٠) [أنه وقع مغشياً عليه .

أذن لكى يتحقق للسالك السماع الحقيقى لابد له من مجاهدة النفس وعدم غفلتها وانشغالها بالشهوات والمذات الدنيوية ، فالسماع لأحياء القلوب اليقظة ولأصحاب التقوى ، ومن ثم يهتدون الى الرشيد ، وهذا ما يوضحه قول محمد بن على الباقر (ت ١٤٨ هـ) : « قوت القلوب من »

(١٨) سعيد بن أبى الخير : اسرار التوحيد ، ص ٢٩٨

(١٩) كشف المحجوب : ج ٢ ، ص ٦٦٥ .

(٢٠) سورة المزمل : الآيات (١٢ ، ١٣) .

شبهوات النفس ، فكما رفض شبهوات نال من الحياة بقسطها ،
فالسماح للأحياء لا للأموات ، قال الله تعالى :

إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا السَّمِيعَ
الْصَّمَّ الدَّعَاءُ إِذَا وَلَوْ أَمْذَرِينَ (٢١ ، ٢٢)

فالموت عند الصوفية هو موت شبهوات النفس وأهوائها ، وحياة
القلوب بذكر الحق تعالى وصفائها ، ومن ثم فالسماح هو لأصحاب
القلوب الحية العامرة بذكر الحق تعالى .

ولابن عربي رأى خاص في صاحب النفس الضعيفة يجب عليه أن
يقمع نفسه الشهوانية وذلك بقلة السماع خوفاً عليه من سيطرة
الشهوة التي يثيرها السماع وخاصة سماع المرأة والأمرد ؛ ذلك لأن
السماع الحق هو أن يغنى العبد عن حظوظ نفسه وأحوالها ولا يلتفت
إليها ، وهذا ما يؤكد به قوله : « وينبغي لمن أراد قمع نفسه الشهوانية
أن يقلل من استماع السماع وخاصة النسوان والشابات منهن المتصنعات
فإن للسماع قوة عظيمة في إثارة الشهوة » ، والأولى لمن هم بقهر
الشهوة أن يتجنب السماع وأن لم يكن منه بد ولم تستجب نفسه إلى
هجره بالكلية فليقتصر على استماعه من الرجال ومن لا مطمع للشهوة
فيه ، والاقبال منه خير وأصون للمتعفف » (٢٣) .

وقد يسمع الانسان أصواتا ونغمات موزونة عذبة فيطرب لها دون
أن يكون متقهما لمعناها ، وهذا ما يحدث عندما يسمع الانسان أغنيات
بلغات لا يعرفها ويطرب لسماعها وتثير وجدانه وتحرك روحه ؛ لأن الذي
يؤثر فيه هو جمال الصوت وعذوبة النغمات وليس معاني الكلمات
وهذا ما يوضحه قول ابن عربي السابق .

ويذهب الصوفية أيضا إلى أن القلب إذا أصغى وخلا من حب
الشهوات والأهواء وتطهرت السريرة وعمرت بحب الحق تعالى ، تحقق

(٢١) سورة النمل آية ٨٠ .

(٢٢) عوارف المعارف : ص ٢١ .

(هو محمد اليافر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب وكان رضى الله
عنه يقول لا يتم المعروف إلا بثلاث خصال ، وتصغيره إذا صنعته وتستره وتجله ، توفي
بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومائة ، انظر الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ٣٥ : ٣٩) .

(٢٣) ابن عربي (محيي الدين) : رسالة تهذيب الأخلاق مطبعة كردستان العلمية ،
١٩٥٠ ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ وانظر ابن عربي : فلسفة الأخلاق ، دار الكتب
١٩٤٥ م ، ص ٢٨ ، وانظر أيضا قول عبد الوهاب الشعراني : البحر المورود في الموثيق
والعهود ، هامش على لوائح الأنوار القدسية في بيان العهود المصدية ، المطبعة
الميمنية ١٢٢١ هـ ، ص ١٤١ .

له سماع الخطاب الالهى ، والعكس اذا سيطرت على هذا القلب الوسواس الشيطانية وهو اجس النفس سدت تلك السماع عن ادراك الخطاب الالهى ، وهذا ما يوضحه قول القشيري : « الغفلة على اسماع قلوبهم غطاء الخذلان ، سدت تلك السماع عن ادراك خطاب الحق من حيث الايمان ، فوسواس الشيطان وهو اجس النفس تشغلها هن استماع خواطر الحق » (٢٤) .

ويذهب علماء النفس الى ما ذهب اليه القشيري في الوصف التحليلي لحالة النفس أثناء الوجد ، وما يتحقق لها من الرؤية والمشاهدة والانفعال . وحالة النفس بعد الوجد وشعورها بما حولها ، وما تعانيه من اسى بعد أن تعودت على النور الالهى ، وهذا ما يوضحه هنرى برجسون بقوله : « وهذا الاضطراب في الراحة هو الذى يميز ما نسميه بالصوفية الكاملة : انه يدل على أن الوثبة اتخذت للمضى الى أبعد من ذلك ، وأن الوجد يتصل بملكة الرؤية والانفعال وأنه قد تبقى هناك الإرادة ، فلا بد أن تفر هي الأخرى في الله ، وإذا تضخم هنا الشعور حتى ملأ المكان كله ، ذهب الوجد ، وعادت النفس فألفت ذاتها وحيدة ، وقد تضمن اسى ، فقد تعودت على النور الباهر مدة ، فغدت لا ترى في الفسق شيئاً » (٢٥) .

والجدير بالذكر أيضاً أن الصوفية قد ذهبوا الى أن جامد الطبع وديم الذوق لا يتأثر بالسماع ، ذلك لأن السماع هو تذوق وفهم للمعاني المسموعة واستلذاذ المسموعة ، والذوق من الأمور الضرورية لكل انسان عاقل ، وهذا ما يوضحه الصوفية بقولهم : « أعلم أن جامد الطبع لا يتأثر بالسماع ولا يلين به لكونه عديم الذوق بقول كلما يدعى فيه من الذوق الداعى الى الفرح بالله تعالى أو الخوف منه أو الانكسار أو الافتقار وغير ذلك ممنوع ؛ إذ لو وجد لتحقق في مثلى لأن الأذواق من الأمور الضرورية ولا يتفاوت في ذلك العقلاء » (٢٦) .

(٢٤) لطائف الاشارات : ج ١ ، ص ٧٢ .

(ولد القشيري في عام ٣٧٦ هـ ومات في عام ٤٦٥ هـ ، هو عبد الكريم بن هوزان ابن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري ، وكنيته أبو القاسم ، ولقبه زين الاسلام ، وشهرته القشيري ، ومن أهم مؤلفاته لطائف الاشارات - التيسير في علم التفسير - احكام السماع - آداب الصوفية - الرسالة - انظر د . ابراهيم بسيوني : الامام القشيري ، سيرته ، آثاره ، مذهبه في التصوف ، دار الكتب ، ١٣٩٢ - ١٩٧٢ م ، ص ٢٩ : ٤٢ ، وانظر هذا البحث : ص ٣٧ .

(٢٥) هنرى برجسون : منبع الاخلاق والدين ، ص ٢٠٩ .

(٢٦) رسالة في السماع والتواجد : ص ٣ .

كما يذهب الصوفية أيضاً ، الى أن السماع لا ينشئ شيئاً جديداً في القلوب وإنما يحرك ويهيج ما فيها ، وإذا كانت هذه القلوب صافية من الشهوات والأكدار ومعصورة بذكر وحب الحق تعالى ، تحقق لهذه القلوب الثبات وعدم القلق والاضطراب والهيجان ، أما إذا اصطدمت هذه القلوب بوارد قوى أو قوة سلطانية فأنها تعجز عن الثبات ، فتبعث الجوارح بالحركات والصرخات لثورتها في القلوب ، وهذا ما يوضحه عز الدين بن عبد السلام بقوله : « ومعلوم أن السماع مهيج ما في القلوب ، محرّك لما فيها فلما كانت قلوب القوم معمورة بذكر الله تعالى صافية من كدر الشهوات محترقة بحب الله سبحانه وتعالى ليس فيها سوى الله ، فالشوق والهيجان والقلق والوجد والسيحان كسامن في قلوبهم كمكمون النار في الزناد فلا يظهر الا بمصادفة ما يشاكلها ، فتعجز القلوب عن الثبوت عند اصطلامها فتبعث الجوارح بالحركات والصرخات والصعقات لثوراتها في القلوب لأنه يحدث فيها شيئاً » (٢٧) .

كما يذهب الصوفية أيضاً الى أن كل سماع لا يكون عنه وجد وعن ذلك الوجد وجود فليس بسماع ، كما يصف الصوفية الحالة النفسية للمريد الذي يسيطر عليه الوجد نتيجة السماع بقولهم أنه لا بد من الفهم والتنبيه للمعاني التي تعزب على غيرهم ، وكذلك الفناء عن النفس والسماع حتى يزول الحجاب ويتحقق له المشاهدة للنور الإلهي والفرح به ، فيتحول هذا الفرح الى بكاء ، فمنهم من يبكي ، ومنهم من يهيج ويضحك ، ومنهم من يمزق ثيابه ومنهم من يدور حول نفسه وغير ذلك من الأحوال النفسية وذلك لقوة الوارد الإلهي عليه ، وبعد ذلك يتحقق له الوجود والبقاء ، وهذا ما يوضحه رويم البغدادي (ت ٣٠٣ هـ) عندما سئل عن وجد الصوفية عند السماع : « فقال : ينتبهون للمعاني

(٢٧) حل الرموز ومفاتيح الكنوز : ص ٥٧ : ٥٨ وانظر بوارق الالام في تكثير من يحرم السماع ، ص ٣٠ ، وانظر قول أبي القاسم الجنيد في عوارف المعارف : ص ١٩٣ .

(هو الشيخ عز الدين بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب السلمى أبو محمد شيخ الاسلام وسلطان العلماء ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسائة وتلقه على الفخر بن عساكر وأخذ الأصول عن السيف الأموى وسمع الحديث من عمر بن ظبير وغيره وبرع في الفقه ٥٠ قدم مصر وأقام بها أكثر من عشرين سنة ناشراً للعلم والقي التفسير بمصر دروساً وألف كتباً منها الفتاوى الموضلية ومختصر النهاية وشجرة المعارف والقواعد الكبرى وبيان أحوال الناس يوم القيامة ٥٠ ، قال القطب البونى وكان مع شدته وصلابته حسن المحاضرة بالنوادر والأشعار يحضر السماع ويرقص فيه ، انظر حل الرموز ومفاتيح الكنوز ، ص ٣ ، ٤)

التي تعزب عن غيرهم فيشير اليهم الى آلى فيتنعمون بذلك من الفرح ويقع الحجاب للوقت فيعود ذلك الفرح بكاء فمنهم من يمزق ثيابه ومنهم من يبكي ، ومنهم من يصيح « (٢٨) » .

لأن فالسمع هو انفعالات نفسية واشارات روحية قد تبدو على صاحبها في شكل حركات أو اهتزازات أو شهقة أو صراخ أو زعقة ، وهذه كلها من صفات الفناء عن الارادة وقت السماع ، ومن ثم يلوح د . / إبراهيم ياسين سؤاله « كيف يبدو الجانب النفسى واضحاً في السماع ؟ »

فيجيب على ذلك بقوله : السماع قادر على تحويل الصوفى الى مجموعة من المشاعر والانفعالات بل أن شئنا قلنا أن كل الصوفى يستغرق في أحواله تكون كل إشارة وكل حركة وكل همسة مما يشير انفعالاته النفسية ، يقول د . / إبراهيم بسيونى « ليس أجل على رهافة الحس عند المحبين من هذه النوبات التى كانت تصيبهم إذا ترامى الى أسماعهم وقلوبهم حديث الحب قرب بيت من الشعر ينشده انسان بقصد أو بغير قصد يصيب الحب بانقلاب نفسى أو عضوى عارم فيضطرب أو يرقص ويبكى أو ينشج .. » بل لقد تذهب روحه في نوبة من تلك النوبات « (٢٩) » .

وقد حفلت كتب الصوفية بالعديد من القصص والأقاويل التى توضح الحالة النفسية للمريد التى تنتابه نتيجة لقلبة الوجد عليه الناتج عن سماع بيت من الشعر أو آية من آيات الذكر الحكيم ، « فقد كان الشبلى فى مسجده ليلة من رمضان وهو يصلى خلف امام فقرأ الامام : (ولئن شئت لنتهين بالذى أوحينا اليك) الاسراء آية ٨٦ فزعق الشبلى زعقة ظن الناس أنه قد طارت روحه واحمر وجهه وارتعدت فرائضه ، وكان يقول : بمثل هذا يخاطب الأحباب ، وأخذ يردد ذلك مراراً » (٣٠) .

(٢٨) عوارف المعارف : ص ١٥٥ ، وانظر الامتاع بأحكام السماع : ص ٦٣ ، وانظر قطع النزاع وكشف القناع عن دليل جواز السماع : ص ٣٥ ، وانظر أيضاً الرسالة القشيرية فى علم التصوف : ص ٢٦٦ .
(٢٩) د . إبراهيم ياسين : حال الفناء فى التصوف الإسلامى ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢٩ .

(٣٠) إحياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٣٧٩ ، وانظر اللع : ص ٣٥٥ ، وانظر د . إبراهيم بسيونى : نشأة التصوف الإسلامى ، دار المعارف ، ١٩٦٩ م ، ص ٨١ ، وانظر رواية بهز بن حكيم بن معاوية ، ورواية صالح المرى ، وحال عمر بن عبد العزيز فى حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : ج ٥ ، ص ٢١٨ ، وانظر أحمد بن حنبل : كتاب الزهد ، ص ٢٤٧ ، وانظر اتحاف السادة المتقين : ج ٩ ، ص ٢٥٥ ، وانظر أيضاً تهذيب التهذيب : ج ٣ ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

ويتضح من هذه الروايات أن السماع يذكر النفس بأخطائها ويجرد النفس من آفاتنا ، وتزكية لهذا الجذ من الهزل واللهو ، وهذا السماع الالهي يورد انقلاباً في وجدان المريد ، فجماعة تفقد الوعي ، وجماعة أخرى تهلك ، أي أن السماع ثورة نفسية قوية تجتاح وجدان المريد وتؤدي إلى انقلابه ، وهذا ما يوضحه الهجويري بقوله : « اعلم أن السماع وارد من الحق وتزكية لهذا الجذ من الهزل واللهو ولا يكون طبع المبتدئ قابلاً لحديث الحق بأي حال وبورود ذلك المعنى الرباني يكون للطبع انقلاب وحرقة ، فجماعة تفقد الوعي في السماع وجماعة تهلك ولا يوجد أحد إلا ويخرج طبعه عن حد الاعتدال » (٣١) .

« وقال بعضهم : رأيت حسيفاً الحلاج وقد سمع قارئاً يقرأ فأخذه وجد فرأيته يرقص ورجلاه مرفوعتان عن الأرض فاذ هو يقول :

من أطلعوه على سر فباح به لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وعاقبوه على ما كان من ذلك وأبدلوه مكان الأنس إياحاشا (٣٢)

هذه حالة من الوجد الشديد الذي جعل صاحبه يرقص وفي حالة عدم استقرار ، ومثل هذا الوجد الشديد يكون نتيجة وارد الهوى ، أما إذا كان هذا الحال هو استدعاء للوجد (التواجد) فهذا شرك ويخرج صاحبه عن حدود الشريعة ، ومن ثم يكون صاحبة أشبه بالمرضى النفسي (المذبذب) وهذا الشخص ينال كثيراً من المهانات نتيجة لتعارض حاله مع وضع المجتمع وخروجه عن حدود الشرع .

ويذهب الصوفية أيضاً إلى أن الوارد القوي الناجم عن السماع ينشئ في نفس المريد نوعاً من الاضطراب والقلق النفسي وعدم الثبات والاستقرار ، ويحول هذا الاضطراب مع زوال الوارد الالهي ، هذا الاضطراب ناجم عن لذة الخطاب الالهي ، وهذا ما يوضحه الجنيد بقوله : « عندما سئل : ما هو السبب في أننا نرى الرجل مستلقياً وبمجرد أن يتلقى السماع يتولد فيه الاضطراب والهيح ؟ أجاب : أن الحق تعالى

(٣١) الهجويري : كشف المحجوب ، ج ٢ ، ص ٦٥٥ .

(٣٢) ماسينيون (وب - كراوس) : أخبار الحلاج أو مناجيات الحلاج ، مطبعة القلم ، ١٩٣٦ ، ص ١٢٣ : ١٢٤ ، وانظر رواية الحسن النوري في الرسالة القشيرية . ج ١ ، ص ١٥٢ ، وانظر ترتيب السلوك في طريق الله تعالى : ص ٧٦ ، وانظر نشأة التصوف الاسلامي ، ص ٢٢٧ ، وانظر الكواكب الدرية : ج ١ ، ص ١٩٥ .
(هو أبو مخيثا الحسن بن منصور الحلاج) من أهل بيضاء فارس ونشأ بواسطة العراق . تصنف الجنيد والنوري وعمرو بن عثمان المكي : نقل ببغداد سنة تسع وخمسمائة ، انظر الطبقات الكبرى : ج ٨ ، ص ١٨٩ .

خاطب ذرية آدم في محكم كلامه

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَيَّ آدَمَ مِنْ طُحُوتِهِ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (٣٣)

فغرقت كل الأرواح في بحر لذة ذلك الخطاب ؛ فإذا ما سمعوا السماع
في هذا العالم يندفعون إلى الحركة والاضطراب من تلقاء أنفسهم » (٣٤) ،
ويوضح لنا الصوفية أن الوجد الحقيقي يجعل صاحبه يلقي بنفسه
في النار دون أن يحس بها أو يأكلها بفمه ، أى أن المستمع يتحرك
بارادة الحق تعالى وليس له ارادة فيها يقوم من الأفعال والأحوال ،
وذلك لقوة الوارد الالهي عكس ادعاء التواجد الذين يتظاهرون بالوجد
ولكن لا أصل له عندهم ، ويسمى الصوفية هذه الحالة بال جذب الالهي ،
ولكن هذا الجذب يختلف عن الجذب العقلي الذي يفقد فيه الانسان
عقله ، وهذا ما يتضح من رحلات ابن بطوطة بقوله : « ولما انقضت
صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف وأخذ الفقراء في الرقص .. »
ثم أخذوا في الذكر والشيخ أحمد (٣٥) قاعد على سجادة جده المذكور
ثم أخذوا في السماع وقد أعدوا أحمالا من الحطب فأججوها نارا ودخلوا
في وسطها يرقصون ومنهم من يتمرغ فيها ومنهم من يأكلها بفمه حتى
أطفئوها جميعا وهذا دأبهم » (٣٦) .

فالسماح اذن وسيلة لترقيق القلب وتهذيب النفس ، وإذا كان
السماع بحق وبقلب يقظ بعيداً عن الغفلة آثار الوجد الحقيقي ، أما اذا
كان تصنعاً فإنه يثير التواجد ، ولعل الروايات السابقة والتي تروى
عن ذى النون المصري توضح لنا الفرق بين الحالتين اذ حكى أحمد بن
مقاتل المكي ، قال « ولما دخل ذو النون المصري بغداد ، واجتمع اليه

(٣٣) سورة الاعراف : آية ١٧٢

(٣٤) تاريخ التصوف في الاسلام : ص ٥٦٣ ، وانظر الرسالة القشيرية : ص ٢٦٤ ،
وانظر الطبقات الكبرى ج ١ ، ص ٧٣ ، وانظر ابن الفارض : كشف الوجوه الغر لعابني
نظم الدرر المسماة بنظم السلوك ، شرح عبد الغنى النابلسي وحسن البوريني ، المطبعة
الزهريّة ، ٣١٩ هـ - ١٩٢١ م ، ج ٢ ، ص ٧٠ : ٧١ .

(٣٥) الشيخ أحمد بن أبي العباس الرفاعي منسوب الى بنى رفاعه قبيلة من العرب
وسكن أم عبيدة بأرض البطائح التي أن مات بها يوم الخميس وقت الظهر ثانی عشر جماد
الاول سنة سبعين وخمسائة ، انظر الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١٥٦ : ١٦٠ .
(٣٦) ابن بطوطة : رحلة الى بلاد الهند ، طبعة باريس ، ١٨٧٩ ، ج ٢ ،

ص ٥ - ٦ .

الصوفي ، ومعهم قوال (أى منشد) ، فاستأذنوه أن يقول بين يديه شيئاً فأذن ، فأنشد يقول :

صغير هوأك عذبنى فكيف اذا احتنكا

قال : فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر من جبينه ولا يسقط على الأرض ، ثم قام رجل من القوم يتواجد ، فقال له

ذو النون قال الله تعالى : **الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ** . (٣٧)

فجلس الرجل « (٣٨) »

ويعلق أسامة كامل على ذلك بقوله : « ويتضح من هذه الرواية أن ما آثار ذا النون وجد حقيقى ، أما الرجل الآخر فلم يثر فيه السماع سوى التواجد ، وهذا يعنى أنه لم يسمع بحق بل يسمع بنفسه ، وفطن ذو النون الى ذلك بفراسته فنهاه مبينا له أن الله مطلع عليه » (٣٩)

ويدافع ابن تيمية عن الصوفية وحالة الوجد الحقيقى التى تسيطر على المريد بقوله : « والذى عليه جمهور العلماء : أن الواجد من هؤلاء اذا كان مغلوبا عليه لم ينكر عليه ، وان كان حال الثابت أكمل منه » (٤٠) .

يتضح من هذه الروايات أن السماع يذكر النفس بأخطائها ويجرد النفس من آفاتها ويدفعها دفعا الى طريق التخلّى بالأخلاق والصفات الحميدة فى السماع والتخلّى عن آفات السماع الذى هو أهم أهداف الثبات والاستقرار النفسى ، وهذا الثبات النفسى من أهم أهداف التصوف ، ذلك لأن السماع اذا كان ثابتا نفسيا غير مضطرب ومثابر بالسماع ، كان هذا الرجل هو المستمع بالمعنى الحقيقى ، غير خاضع لازادته فى حالة زيادة الوجد بعيدا عن سماع الشهوات والأهواء ، وهذا

(٣٧) سورة الشعراء : آية (٢١٨) .

(٣٨) الرسالة القشيرية : ج ٢ ، ص ٦٥٠ ، وانظر الامتاع بأحكام السماع ص ٦٣ ، وانظر عبد الحمود نور الدائم السمانى : النصرة العلمية لأهل الطريقة الصوفية - الطبعة الأولى ، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م ، ص ٧١ ، ٧٢ ، وانظر عوارف المعارف : ص ١٧٩ ، وانظر العارف بالله ذو النون المصرى : ص ٧٠ .

(٣٩) أسامة كامل حسن : ذو النون المصرى وتصوفه ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٧٩ .

(٤٠) ابن تيمية (تقى الدين) : الصوفية والفقراء ، مراجعة أسامة محمد عبد العظيم حمزة ، دار الفتح ، ١٩٨٥ ، ص ٨ ، ٩ .

سماع أهل المعرفة والحقيقة ، أما السامع بنفسه فيحرص على أرضاء رغباتها في السماع من ارتكاب المعاصي والذنوب التي تخرج عن حدود الشرع .

ثالثا : السماع والرياضات الروحية الأخرى :

وإذا كان الصوفية قد اعتبروا السماع من أهم الرياضات الروحية التي لا بد لكل مريد أن يتحقق بها ، فإن هذه الرياضة لا تصل إلى الهدف الشرعي السليم إلا بالقيام بباقي الرياضات البدنية الأخرى ، أي أنه يوجد اتصال وثيق بين السماع وباقي الرياضات ومن بينها الخلوة ، فالخلوة لها أهميتها في التهوض بالنفس إلى ما يحميها من سيطرة الهوى عليها ، وسبب الوصول إلى الله تعالى وإلى تحصيل العلوم والمواهب العرفانية وثمرتها محو الذنوب والتخلي عن سماع أهل الفسق لأن في كلامهم قسوة وفسادا ، وهذا ما يؤكد قول بعض الصوفية : « قلت لبعض الأبدال (٤١) المنقطعين إلى الله : كيف الطريق إلى التحقيق قال : لا تنظر إلى الخلق فإن النظر اليهم ظلمة ، قلت لا بد لي ، قال : يا هذا فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة ، قلت لا بد لي . . . قال : يا هذا تنظر إلى اللاعبين ، وتسمع كلام الجاهلين ، وتعامل البطالين ، وتسكن إلى الهالكين ، وتريد أن تجد حلاوة الكامل وقلبك مع غير الله . . . » (٤٢) .

وإذا كان السماع يشترط حضور القلب فإن الصوفية اشترطوا أيضاً حضور القلب في أوقات الخلوة ومجالس الذكر ، ومن ثم يوجد أمر مشترك بين السماع والخلوة والذكر ألا وهو حضور القلب ويقظته ، وهذا ما يوضحه ابن القيم بقوله : « اطلب قلبك في ثلاثة مواطن : عند سماع القرآن ، وفي مجالس الذكر ، وفي أوقات الخلوة ، فإن لم تجده

(٤١) الأبدال : هم الذين يروون الحديث في هذه الأمة ثلاثون رجلاً قالوهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن ، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً ، ومن الأبدال ثلاثمائة شخص على قلب آدم لكل واحد منهم من الأخلاق الإلهية ثلاثمائة خلق ، وأربعون شخصاً على قلب نوح ، وسبعة على قلب الخليل ، وخمسة على قلب جبريل ، وثلاثة على قلب ميكايل ، وواحد على قلب اسرافيل ، وعشرة على قلب داود ، انظر د. عبد المنعم الحنفي : معجم مصطلحات الصوفية ، بيروت ، دار السيرة ، ١٩٨١ .
ص ٨ - ٩ .

(٤٢) د. عبد الحليم محمود : التصوف حياة وسلوك ، المطابع الأميرية ، ١٣٩٩ هـ .
١٩٧٩ م ، ص ٥٣ ، وانظر الدمياطي (أي بكر محمد شطا) : كفاية الاتقياء ومنهاج الأصفياء ، المطبعة الخيرية ، ١٣٠٣ هـ ، ص ٣٨ .

في هذه المواطن فسل الله أن يمن عليك بقلب فانه لا قلب لك « (٤٣) » .

وإذا كانت الخلوة عند الصوفية لها أهميتها في حفظ النفس من سيطرة الهوى عليها ، فان الصحة عندهم لا تقل أهمية عن الخلوة ، فالإنسان اجتماعي بطبعه ، ويستوحش من الوحدة التامة ، أى أن المريد لابد له من صحبة الشيوخ حتى يتعلم منهم ويسمع الخير ، ويعد هذه الصحبة لا بد له من الخلوة ، أى التخلّى عن صحبة الخلائق والاتصال بهم ، فالخلوة هي وجود المريد بجسده مع الخلق وبقلبه وباطنه مع الحق تعالى ، وهذا ما يوضحه عبد القادر الجيلاني ناصحاً مريده : « يا جاهل تترك سماع هذا الكلام وتقعّد في صومعتك مع نفسك وهواك تحتاج أولاً الى صحبة الشيوخ وقتل النفس والطبع ، وما سوى المولى عز وجل تلزم باب دورهم أعنى الشيوخ ثم بعد ذلك تتفرد عنهم وتقعّد في صومعتك وحسبك مع الحق عز وجل » (٤٤) .

وفي صحبة الأخيار والصالحين عون للمريد على تحقيق مراده وذلك بسماعه لأقوالهم ونصائحهم الصالحة ورؤية أعمالهم وأحوالهم الطيبة الفاضلة ومحاولة التشبه بهم ، وذلك ما يؤكد الهروي بقوله : « أما صحبة الصالحين فانها عون على مراده ومقصده بسماع أقوالهم ورؤية أحوالهم والتشبه بهم » (٤٥) .

كما يرى الصوفية أيضاً أنه لكي تتحقق الصحة في السماع لا بد من أمور ثلاثة : أولها الوقت المناسب لاجتماع أهل الصحة ، وكذلك المكان المناسب فلا يكون في الشارع أو مكان مزدحم بل يكون في زاوية حتى يسهل على المريدين الاجتماع فيها ، وأيضاً أن يكون أهل الصحة من الأخيار والصالحين حتى يكونوا عوناً للمريد على تحقيق مراده ، وهذا ما يوضحه الجنيد بقوله : « السماع يحتاج الى ثلاثة أشياء : والا فلا يسمع الزمان والمكان والاخوان » (٤٦) .

(٤٣) ابن قيم الجوزية : الفوائد ، دار الريان ، ١٩٨٧ ، ص ٢٠٤ ، وانظر قول د. إبراهيم بسيوني في : الامام القشيري ، سيرته واثاره ، مذهبه في التصوف : ص ٢١٢ .

(٤٤) عبد القادر الجيلاني : الفتح الرباني والفيض الرحمانى ، دار الكتب المصرية ، ١٣٤٦ هـ ، ص ٢٢ .

(٤٥) المتوفى (أبو الفيض محمود) : التمكن في شرح منازل السائرين يشرح فيه منازل السائرين للهروي الانصارى ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ١٩٦٩ ، ص ٩ .

(٤٦) احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٢٨٥ ، وانظر الرسالة القشيرية في علم التصوف وبهامشه شرح شيخ الاسلام زكريا الانصارى ، مطبعة صبيح ، ١٩٧٢ ، ص ٢٦٥ ، وانظر اللع ، ص ٢٤٦ : ٣٤٢ ، وانظر قول الامام أحمد الغزالي في : مجلة القاهرة ، العدد ١٤٨ ، ١٩٩٥ ، ص ١٦٤ ، وانظر ابن غطاء الله السيكندري في الفتوحات الالهية وشرح المباحث الاصلية ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ .

ولا شك أن مجلس السماع إذا تم في المكان والزمان المناسبين ولم يكن من بين الحاضرين من ليس من أهل السماع ساعد ذلك على جمع النفس وخلق جو ملائم لاثارة الوجد واثمار السماع فقلبك المؤثرات الخارجية لها دور كبير في نفوس السامعين ، وفي صحبة الأخيار والصالحين عون للمريد على تحقيق مراده وذلك بسماعه لأقوالهم ونصائحهم الصالحة ورؤية أعمالهم وأحوالهم الطيبة الفاضلة ومحاولة التشبه بهم ، لذا يجب مراعاة هذه الأمور .

كما أن من أهم الرياضات الروحية الأخرى التي ترتبط بالسماع العزلة أي العزلة عن مخالطة واستماع مجالس السوء ، ذلك لأن المستمع شريك القائل وفي العزلة قهر النفس من اتباع سماع الهوى والأنس بالحق تعالى ، وهذا ما يوضحه ابن عطاء الله السكندري بقوله : « لو انقطعت عن الخلق لفتح لك باب الأنس به تعالى ، لأن الأولياء قهروا أنفسهم بالخلوة والعزلة فسمعوا من الله وانسوا به ، فإن أردت أن تستخرج مرآة قلبك من الأكدار فارفض ما رفضوا وهو الأنس بالخلق » (٤٧) .

كذلك يرى الصوفية أيضاً أن العزلة في السماع لها أهمية كبيرة من حيث أنها تساعد المريد على التخلص من الآفات والمعاصي التي يتعرض لها من خلال المخالطة مثل الغيبة والنميمة والتبذير بأعراض الناس ، وأيضاً التفاخر والباهة بالنفس أمام الآخرين ، وغير ذلك من الرذائل التي تخرج المريد عن حدود الشرع ، وذلك على حد قول ابن القيم : « التخلص بالعزلة من المعاصي التي يتعرض لها الإنسان غالباً بالمخالطة وهي أربعة : أحدها : الغيبة ، فإن عادة الناس التبذير بالأعراض والتفكه بها ، فإن خالطتهم ووافقتهم أثبت وتعرضت لمسخط الله تعالى ، وإن سكنت كنت شريكاً ، فإن المستمع أحد الغائبين ، وإن أنكرت أبغضوك وإغتابوك » (٤٨) .

ويعمل الصوفية بأن السماع لا يصفو مع هواجس النفس فوجب حفظها ولا يدوم مع الأصفاء إلى حديث النفس فتعين مراقبتها ، وحقيقة المراقبة هي ملاحظة ومراقبة الحق تعالى (الرقيب) وانصراف الهم اليه ، وهي حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة ، وتنتج عن تلك الحالة أعمال في القلب والجوارح ، وهذا ما يوضحه قول الحارثي : « لا إفراقوا الله واشكروه على ما أنعم به عليكم من السمع » ، بالاستماع

(٤٧) ١٠١ د أبو الوفا التفتازاني : ابن عطاء الله السكندري وتصوفه ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٥٨ ، ص ٢١٤ .
(٤٨) مختصر منهاج القاصدين : ص ١٠٦ .

الى القرآن والذكر والمواظ على الحسنة فان ضيعتم ذلك ، فاستحيوا من الله ان تنصتوا باسماكم الى الهوى والاخابيص كفعل من ارى » (٤٩) .

فالمراقبة أصل كل خير ومن راقب الله تعالى في خواطره عصمه الله تعالى في جوارحه ، ولا يقع منه الا ما يقربه الى الله تعالى ، والمراقبة دوام العبد وثيقته بان الحق تعالى سامع لقوله ومطلع على ظاهره وباطنه ؛ ولهذا يذهب الصوفية أيضا الى أن طول الاستماع الى أهواء النفس وشهواتها من الاستماع الى الباطل والغيبة والنميمة وعدم مراقبة الحق فيما يسمع يطفئ حلاوة الطاعة من القلب ، وحول هذا المعنى يقول عبد الله بن خبيق : « طول الاستماع الى الباطل يطفئ حلاوة الطاعة من القلب ، ومن أراد أن يعيش حيا في حياته فلينزل الطمع عن قلبه » (٥٠) .

وإذا كان الصوفي يعتمد في سماعه على الخلوة والتخلي عن السماع السيئ والعزلة عن مجالس الغيبة والنميمة ومجالس اللهو ومراقبة الحق تعالى فيما يسمعه ، والصحبة وملازمة الإخوان في السماع الصالح فانه سوف يتقوى بالسماع ويجعله زاده في السفر ويشغله ذلك عن الطعام .

فالجوع والسهر من الرياضات الروحية التي ينصح بها الصوفي مریده في السماع ، وذلك على حد قول أبي طالب المكي : « كان بعض السامعين يقتات السماع فيجعله قوته ، ويتقوى به على زيادة طيه ، وكان أحدهم يطوى اليومين والثلاثة ، فاذا تاقته نفسه الى القوت عدل بها الى السماع ، فشغله ذلك عن الطعام .. » فهذا لا يصح إلا لقلب صاف من الأكدار .. » (٥١) .

وكذلك يرى الصوفية أن رياضة الجوع والصيام لا تعنى صيام البطن عن الطعام والشراب ، ولكن تعنى صيام الجوارح كلها عن المعاصي والذنوب ، وغذاءها بالفضيلة ومكارم الأخلاق ، ومن هذه الجوارح الأذن التي يكون صيامها بعدم الاستماع الى ما حرم الله تعالى على عباده ، وهذا ما يوضحه قول الرسول ﷺ « كم من ضائم

(٤٩) المحاسبي (الحارث بن أسد) : الوصايا أو النصائح الدينية ، والنقعات القدسية ، تحقيق د. عبد القادر أحمد عطا ، مكتبة صبيح ، ١٩٦٦ ، ص ١١٦ ، وانظر قول ابن القيم في مدارج السالكين : ج ٢ ، ص ٣٥ ، ٢٠٩ .

(٥٠) الأصفهاني (أبي نعيم) : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، مكتبة الخانجي والسعادة ، ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ ، ج ١٠ ، ص ١٦٩ .

(٥١) قوت القلوب : ج ٢ ، ص ٨٢٢ ، وانظر عوارف المعارف ، ص ١٥٤ ، وانظر أيضا ما جاء في شرح أحوال سهل بن عبد الله التستري في تاريخ التصوف في الاسلام ، ص ٥٦٢ ، ٥٦٣ .

ليس له من صيامه الا الجوع والعطش » ، بل تمام الصيام بكف الجوارح كلها عما يكره الله تعالى ، بل ينبغي أن تحفظ العين عن النظر الى المكروه واللسان عن النطق بما لا يعينك والأذن عن الاستماع الى ما حرم الله ، فان المستمع شريك القائل وهو أحد المفتابين « (٥٢) .

وينتضح مما سبق ، أهمية رياضة السماع واعتبارها جزءاً من باقى الرياضات الروحية الأخرى التى لا يكتفى احداها بدون الالتحام بباقى الأجزاء ، كما أن هذه الرياضة لها تأثيرها النفسى فى الفرد والمجتمع من خلال الاستماع الى مجالس العلم والأدب والالتزام بآداب هذه المجالس ، وترك مجالس السوء والفحش والغيبة وكل ما يبعث الى الأفعال السيئة والرذيلة ؛ ولهذا قال الشيخ سعيد بن أبى الخير « كل من يلزم له أن يأتى الى هنا ، يجب عليه أن يأتى يستمع الى نفحة منه ، فالمجالس الأخرى مجالس علم ، أما هذا فهو مجلس الحق ، وهم فى تلك المجالس يبحثون عن السلطة والجاه والعز ، أما هنا فهم يبعدون عن أنفسهم السلطة والعز والجاه » (٥٣) .

رابعاً : السماع وتأثيره فى نفس المستمع (الموسيقى) - الحركة - الرقص - تقطيع الخرقه) :

لا شك أن شغف الصوفية بالسماع واقتبالهم عليه باعتباره وسيلة لترقيق القلب والحث على الطاعة وتقوية العزائم يبدو واضحاً من أن كتبهم جاءت حافلة بالحديث عن السماع وحالة المريد النفسية وقت السماع ودرجات السامعين ، والوجد الذى يحدث للصوفية نتيجة للسماع وما يثمره فى قلوبهم من معرفة نورية ، كما أن الصوفية كرهوا اللهو فى السماع وادعاء الوجد وإتيان الحركات المصطنعة والعبث أثناء السماع ، ويضعون للسماع الشروط التى تكفل له الجدية والبعد عن اللهو والعبث ، منها حسن النية ، وشرف القصد ، وهذا ما يذهب اليه أبو على الروزبادى (ت ٣٦٧ هـ) : كل مريد ترخص فى سماع الملائكة فهو كاذب « (٥٤) .

ويذهب د. / زكى مبارك الى أن الصوفية قد اقبلوا على القناء ولم يشترطوا الا حسن النية ، وشرف القصد ، وتفردت الطريقة المولوية باستجازه العزف على الآلات الموسيقية على اختلاف أنواعها أثناء مجالس الذكر ، وكان لهذه الطريقة أشياع فى الأقطار الفارسية والتركية ،

(٥٢) السهروردى : عوارف المعارف ، ص ٢٤٥ .

(٥٣) سعيد بن أبى الخير : أسرار التوحيد ، ص ٣٣٨ .

(٥٤) السبكي (محمود محمد خطاب) : العهد الوثيق لمن أراد سلوك الطريق .

مطبعة الفتوح الأدبية بمصر ، ١٩٣١ ، ص ١٢ .

وكان لهم في مصر تكية في جى السيوفية بالقاهرة ، وكانت لهم حضرة
اسبوعية يتشوف اليها المولعون بالموسيقا والغناء وقد أغلقت الحكومة
المصرية تلك التكية « (٥٥) » .

أما عن طريقة التغنى في مجالس الصوفية وما يقوم به القوال في
هذه المجالس من الانشاد الدينى والتغنى بالأبيات التى تدعو الى الطاعة
والتذكر بيوم اللقاء بالحق تعالى وذكر مكارم الأخلاق التى اتصف بها
الرسول ﷺ فقد أوضحها الأستاذ الدكتور التفتازانى فى قوله :
« ان الصوفية درجوا منذ القدم على أن يبدعوا مجالس الذكر بلا اله
الا الله وتعرف عندهم بالأرضية ويأخذ (الرسيم) الذى هو رئيس
المجلس فى التدرج بالذاكرين أثناءها من الراسات وهو (الرصد) الى
(الدوكة) الى (السكا) الى (الجهر كاه) او (الجركاة) الى
(الحجاز) ... وهنا تبدو مقدرة الرئيس فى نقل الذاكرين من نغمة الى
نغمة ... ثم ينفرد الرئيس بعد الوصول الى نغمة الرصد التى ينتهى
عندها انشاد القصيدة بالاستغناء فيقول : (أغثنا أدركنا يا رسول
الله) « (٥٦) » .

لقد ذهب معظم الصوفية الى أن استخدام الآلات الموسيقية فى
السمع يجب أن تكون بحذر ، فقد نهوا عن استخدام أنواع من الآلات
مثل الشبابة « اليراع » (٥٧) ، والصنج (٥٨) ، والطنبور (٥٩) ، وكل
ما يحث على مجالس الشرب ويثير الشهوة ، لذلك يرون أن الأولى
تركها ، أما الآلات التى أباحها الصوفية فى السماع الدف (٦٠) والزممار
وهى الآلات التى استخدمت فى الانشاد الدينى فى عهد الرسول ﷺ
والصحابية والتابعين .

(٥٥) د زكى مبارك : التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق ، ج ٢ ،

ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٥٦) د التفتازانى (أبو الوفا) : مجلة المعرفة ، عدد يونيه ، ١٩٢١ :

(٥٧) الشبابة : آلة موسيقية وهى من جملة المزامير وأشدها طربا وتسمى اليراع ،

انظر الزبيدى ، تاج العرويين ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

(٥٨) الصنج : آلة باوتار يضرب عليها ، والصنج العربى هو الذى يكون فى الدف

أما الصنج ذو الأوتار لهو دخیل بالعرب يختص به العجم ، انظر تاج العروس ، ج ٢ ،

ص ٦٧ ، وانظر دائرة المعارف الإسلامية : ج ١٤ ، ص ٣٢٧ - ٣٣٨ .

(٥٩) الطنبور : هم اسم جنس لكل آلات الطرب التى تستخدم فيها أوتار السلك

ونكر منها ثلاثة أنواع ، انظر دائرة المعارف الإسلامية : ج ١ ، ص ٢٦٩ ، والطنبور

هو آلة الحمل لأنه يشبهها فعلى هذا فهو العود الأفرنجى ، انظر « قفروا الى الله » :

ص ١٠٧ .

(٦٠) الدف : آلة موسيقية متخذة من الجلد .

وقد استند السهروردي البغدادي في قوله بجل السماع بالدف بحديث عائشة رضي الله عنها اذ قالت : « كانت عندي جارية تسمعتني فدخبل رسول الله ﷺ وهي على حالها ، ثم دخل عمر ففرت فضحك رسول الله ﷺ فقال عمر ما يضحكك يا رسول الله ؟ فحدثه بحديث الجارية ، فقال : لا أبرح حتى أسمع ما سنع رسول الله فامر رسول الله ﷺ ، فأسمعتة » (٦١) .

ومن ثم ذهب الصوفية الى أن السماع المحرم هو الاستماع من أرباب الأهوية المحرمة واجتماعهم بالآلات المحرمات ؛ ذلك لأن مثل هذا يحرك دواعيهم الى ارتكاب المحرمات ، ومن ثم فتحريم سماع الآلات انما تحريمه بالحق لا الباطل ؛ ذلك لأن استماع صوت الملائكة كالشبابنة والطنبور ونحوه حرام ، لما في ذلك من صرف الجوارح الى غير ما خلقت لأجله كفر بالنعمة ، وهذا ما يوضحه قول عبد الغني النابلسي « ولا يرى الذين يسمعون الآلات الا يسمعونها بالحق لا الباطل قال الله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْنِ ﴿٦٢﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

والمؤمن بهذه الآية وغيرها يرى السك بالحق لا الباطل ويرى من حرم السماع بالآلات انما حرمه بالحق أيضاً فيمن يسمعه بالباطل ، ولا يجد من يسمعه بالباطل حتى يخصص الحرمة بعينه » (٦٣) .

كما أوضح صوفية الاسلام أنه اذا طرب أهل التصوف لسماع الغناء بالموسيقا المحرمة صفقوا والتصفيق عندهم منكر يخرج صاحبه عند حد الاعتدال ، وهذا ما أوضحه ابن الجوزي بقوله : « والتصفيق منكر يطرب ويخرج عن الاعتدال وتنزه عن مثله العقلاء ، ويتشبه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت من التصدية ، وهي التي ذمهم الله عز وجل بها فقال :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عَنِ الْبَيْتِ الْأَمْكَاءَ وَتَصَدِيقُهُ ﴾ [(٦٤)] (٦٥) .

(٦١) السهروردي : عوارف المعارف ، هامش الاجياء ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ ، أخرجه ابن ماجه ، النكاح ، ص ٢١ .

(٦٢) سورة الدخان : آية ٣٨ ، ٣٩ .

(٦٣) النابلسي : ايضاح الدلالات وسماع الآلات ، ص ٢ .

(٦٤) سورة الأنفال : آية (٣٥) . المكاء : التفسير بالفم أو تشبيك الأصابع والنفخ

فيها ، التصدية : التصليق .

(٦٥) ابن الجوزي : تلبيس ابليس ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، وانظر ففسروا الى الله .

ص ١٠٧ .

كما يذهب الصوفية الى أن تأثر الصوفى بالسماع أكثر من غيره خاصة أنه يجد الله فى كل ما يسمع حتى وإن كان ما يسمعه جملة عادية ، وهذا ما يوضحه قول أبى عثمان المغربى : « من ادعى السماع ولم يسمع صوت الطيور وصرير الباب وتصفيق الرياح ، فهو فقير مدع » (٦٦) ، أى أن درجة الشفافية والصفاء الروحى تجعله يسمع صوت الطيور وصرير الباب وصوت الهواء وصوت كل ما حوله من الكائنات .

ويذهب الصوفية أيضا الى أن سبب استلذاذ السروح للنغمات والموسيقا والأصوات الطيبة ، هو أن العالم الروحانى (عالم المثل) هو مجمع الحسن والجمال ، وأن التناسب والانسجام الموجود بين الموجودات فى الكون تناسب محبوب ومستحسن ، وأن الحق تعالى خلق الألوان والصور والأشكال وجعلها متعة للروح ، ومتى سمعت الروح هذه النغمات اللذيذة تأثرت بها ، لأن الروح تميل بطبيعتها اليها ، وهذا ما يوضحه قول السهروردى : « وجه استلذاذ الروح للنغمات العالم الروحانى مجمع الحسن والجمال ، ووجود التناسب فى الأكون مستحسن قولاً وفعلاً ووجود التناسب فى الهياكل والصور ميراث الروحانية فمتى سمع النغمات اللذيذة والألحان المتناسبة تأثر بها لوجود الجنسية » (٦٧) ، فالروح بطبيعتها تعشق الجمال وتتشوق اليه والى النغمات المنسجمة ؛ ولذلك تستلذ وتطرب عند سماعها .

إن كل انفعال يصدر عن الانسان ما هو الا دعوة الى العمل ، سواء كان هذا العمل بالتفكير فى الانفعال نفسه أو الاصغاء اليه ، مثلاً الانفعال الذى يصدر عن الصوفى أثناء الوجد ما هو الا دعوة الى الحياة الفاضلة والتحلّى بمكارم الأخلاق ، وتذكر النفس بأخطائها ، وكذلك يذهب علماء النفس الى أن الانفعال أمر ضرورى وطبيعى ؛ ذلك لأنه يعبر عن الحالة النفسية التى يكون عليها الانسان من حزن أو فرح أو شوق أو نحو ذلك ، ومن بين هذه الانفعالات ، الانفعال الموسيقى ، فاذا عبرت الموسيقى عن الفرج أو الحزن أو الشفقة ، كنا نحن فى كل لحظة ما هى معبرة عنه ، أى انه اذا كانت الموسيقى حزينة فأنها تصادف ما فى العواطف من الأحزان فتعمل على هياجها ، والعكس اذا كانت الموسيقى فرحة فأنها تصادف هوى فى النفس فتعمل على هياجه فى شكل سرور ومرح ، وهذا ما أوضحه هنرى برجسون بقوله : « الانفعال مهما يكن

(٦٦) الرسالة القشيرية : ص ٢٦٥ .

(٦٧) عوارف المعارف : الجزء الخامس من الاحياء ، ص ١٦٤ .

هادئاً ، فإنه يقتضى العمل ، واقتضاؤه هذا ، وأن اختلف عن الإلزام المعروف فى كونه لا يلقى مقاومة ، ولا يفرض إلا ما هو مقبول ، إلا أنه يشبهه فى كونه يفرض شيئاً ما ، ونحن نشعر بهذا أتم شعور حين يمسك هذا المطلب عند أحداث تأثيره العملى ، فيفسح لنا مجال التفكير فيه ، وتحليل ما نشعر به وهذا ما يتفق لنا فى الانفعال الموسيقى مثلاً ، فإنه ليخيل إلينا ونحن نستمع الى الموسيقى ، أننا لن نستطيع أن نريد غير ما توحى به ، ولولا أننا منصرفون عن العمل بالأصغاء ، لفعلنا ما توحى به ، ولكن فعلنا هذا طبيعياً ضرورياً ، فإذا عبرت الموسيقى عن الفرح أو الحزن أو الشفقة أو العطف كنا نحن فى كل برهة ما هى معبرة عنه لا نحن فحسب ، بل آخرون كثيرون ، بل كافة الناس أجمعين . . . كذلك رسل الأخلاق للحياة فى أسماعهم رنين عاطفى خفى كالرنين الذى يشيغه إيقاع جديد ، فيدخلوننا معهم فى هذه الموسيقى ، فنعبر عنها فى حركة » (٦٨) .

ويذهب بعض الصوفية الى أن سماع الألحان الرقيقة فيه خير الدنيا والآخرة ، ذلك لأنها تحث الإنسان على مكارم الأخلاق والبعد عن ارتكاب المعاصى والذنوب ، وترقيق القلب وتذكيره الدائم للحق تعالى . وإذا كان البعض يعد سماع الموسيقى والألحان نوعاً من اللهو واللعب ، فإن بعض اللهوى مباح من أجل الترفيه والترويح عن النفس ؛ ذلك لأن الحياة الجادة الجافة لا تستمر طويلاً بدون القليل من اللهو المباح الذى لا يثير الشهوات وهذا ما يؤكد ابن عبد ربه بقوله : « وقد يتوصل بالألحان الحسان الى خير الدنيا والآخرة ، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف ، وصلة الأرحام ، والتجاوز عن الذنوب ، وقد يبكى الرجل بها على خطيئة ، ويرقق القلب من قسوته ، ويتذكر نعيم الملكوت ويمثله فى ضميره » (٦٩) .

ويعلل الصوفية أن ادعاء سماع الآلة المطربة وعدم استلذائها يرجع الى غلة القلب وعدم يقظته لما يلقى عليه من أنواع السماع ، وكذلك الى كذب الشخص السامع بأن السماع الإلهى لا يؤثر عليه ، فسماع الموسيقى والألحان الجميلة بالصوت الحسن يهتز لها الإنسان ، وكذلك الحيوان ، وهذا ما يوضحه قول أفضل الدين : « من ادعى أن سماع الآلة المطربة لا تؤثر فيه فأغضبوه مراراً فإن غضب فهو مفتر كذاب ؛ لأن من لم يقدر أن يرد نفسه عن الغضب لا يقدر أن يرد عنها

(٦٨) هنرى برجسون : منبع الأخلاق والدين ، ص ٤٧ .

(٦٩) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦١ هـ .

١٩٤٢ ، ج ٢ ، ص ٥ .

الغفلة عن الله تبارك وتعالى بالطرب اذا سمع المطربات» (٧٠)، فالسمع — أذن — له تأثير عظيم في نفس المستمع ، فاذا كان قلبه يثظا ومنتبها لما يلقى عليه استلذت روحه بما يسمع ، أما اذا كان قلبه في غفلة حدث ما هو غير ذلك .

وإذا كان الصوفية قد ذهبوا الى أن سماع الموسيقى والنغمات والألحان وغير ذلك من أنواع السماع تؤثر في نفس المستمع وتجعله يستلذ لما يسمع ، فإن هذا يتفق مع ما ذهب اليه الكندي من تأثير السماع على نفس السالك ، وهذا ما يوضحه الأستاذ الدكتور / محمد عاطف العراقي بقوله : « فهو حين يبحث (الكندي) في الموسيقى مثلا ، يتكلم عن النغم والأبعاد والانفعالات وغير ذلك من الجوانب ، ويبين لنا تأثير الأنغام الصادرة عن الآلات الموسيقية في الحيوان وفي الانسان ، فالتمساح مثلا اذا سمع المزمار وصوت البوق فانه يطرب ويخرج من البحر، ويطفو الى المراكب ، والراعى يمكنه أن يجمع الغنم بالصفير » (٧١) .

وكذلك فإن سماع الألحان له تأثير في نفس الانسان أيضا من حيث أنها تدعو الى اللذة الروحية ، والجرأة والاقدام على المبارك والبكاء والحزن على ارتكاب الذنوب وغير ذلك ، وكذلك فإن السماع لا يوصف بالحسن ولا بالسوء وإنما يحكم عليه بنتائجه ، وأن سماع الموسيقى والمداعبة والرقص المباح غير المرتبط بالشهوة المادية في بعض الأوقات أمر ضرورى من أجل استجمام النفس والمواصللة على دوام العبادة والذكر للحق تعالى وخلوص الروح من خلال الحركات والرقص الذى يقوم به السالك ، واعتبار أن الرقص في حال الغشية الناتجة عن السماع يفتت الشهوة ويميتها ، وهذا الرقص لا يشبه الرقص العادى ، وهذا ما ذهب اليه نيكلسون بقوله : « أن السماع لا يوصف بالحسن وإنما يحكم عليه بنتائجه ، فاذا ذهب راهب الى حانة ، صارت له صومعة ، واذا ذهب سكير الى صومعة ضارت له حانة ، فمنه

(٧٠) ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن والأخلاق ، ج ٢ ، ص ١٨ ، وانظر قول سعد الدين الحموى فى تاريخ التصوف الاسلامى ، ج ٢ ، ص ٥٧٣ .

(٧١) د. محمد عاطف العراقي : الفلسفة الاسلامية ، دار المعارف ، ١٩٧٨ ص ٢٧ ، يقول اخوان الصفا أيضا : (ان صناعة الموسيقى يستعملها كل أحد من الأمم ويستلذها جميع الحيوانات التى لها حاسة السمع وأن للنغمات تأثيرات فى النفوس روحانية ، كما أن لسان الصنائع تأثيرات فى الهياكل الجسمانية ، انظر رسائل اخوان الصفا ، ج ١ ، ص ١١٧ .

تشرب قلبه التفكير في ربه ، فلا يفسده سماع آلات الموسيقى ، وكذلك الحال في الرقص . . ، ويذهب المعتاد من الشكل فليس ذلك رقصاً ولا هو تطلعاً جسدياً ، ولكنه خلوص الروح « (٧٢) » .

إذن فالسماع فيه صفاء وخلوص الروح من أدناس النفس وشهواتها المادية من خلال سماع النغمات والألحان الحسنة وتلذذ الروح بهذه الألحان ، وكذلك الرقص الصوفي والتمايل بالحركات يميم الشهوات والملذات الخبيثة ، فهذا الرقص الصوفي لا يشبه الرقص في مجالس الشرب والفساد .

ويذهب إبراهيم الخواص الى أن سماع الآلات الموسيقية لا تليق للمسالكين ؛ ذلك لأنهم قدوة للعوام ، وذلك خوفاً عليهم من التعود عليها فيؤدى سماعها الى التصفيق والتهليل والتعطل عن القيام بمصالحهم فى الدنيا ، وكذلك القيام بتعاليم الشرع الخاصة بالآخرة ، كما أن التعود على هذا النوع من السماع فيه اضاعه للوقت ، الا اذا كان هذا السماع فترة من أجل الاستجمام من تعب الوقت ، وهذا ما يؤكد بقوله : « سماع الآلات لا تليق بالكابر العلماء اهل الطريق لكونهم قدوة للناس فربما تبعهم العوام على ذلك مع عدم ذوق مشاهدتهم في ذلك فيهللون ويتعطلون عن مصالح الدارين كما هو مشاهد فيها رأينا أخذاً حق له قدم الولاية والخوف من الله تعالى يسمع عوداً أبداً بل يشتغلون بالاستعداد للموت ولأهوال القيامة » (٧٣) .

ويتفق ابن تيمية مع الصوفية في عدم إباحة سماع آلات اللهو والطرب واعتبارها من البدع المذمومة المبعدة عن طريق الحق تعالى ، وهذا ما يسميه بالسماع المحدث ، سماع الكف والغف والقضيب ، فلم تكن الصحابة والتابعون لهم باحسان وسائر الأكابر من أئمة السنين يجعلون هذا طريقاً الى الله تبارك وتعالى ، ولا يعدونه من الشرب والطناعات ، بل يعدونه من البدع المذمومة ، حتى قال الشافعى : خلفت

(٧٢) نيكلسون (رنيلد) : الصوفية فى الاسلام ، ترجمة نور الدين حسين شرييه ،

١٣٧١ هـ - ١٩٥١ م ، ص ٦٨ .

(٧٣) الشعرانى (عبد الوهاب) : بهجة النفوس والأخلاق فيما تميز به القوم من

الأدباء والأخلاق ، مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٣٩٠ تصوف ، ميكروفيلم ١٠٤٠٦ ، عدد

ورقة ٣٢٠ ، بدون ترقيم صفحات ، وانظر أيضاً لأشعرانى .

بيغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه (التغبير) يصدون به الناس عن القرآن » (٧٤) .

ويذهب هارتمان الى ما ذهب اليه الصوفية من ان سماع الموسيقى له أهمية كبيرة وكذلك سماع الآيات الكريمة ، اذا كان هذا السماع من أجل التفكير والتدبر في معانى الكون ، وهذا ما يوضحه بقوله : « فاما سماع الموسيقى فهي قد تمثل لنا أهمية كبيرة ، وكذلك الآيات القليلة التي يرتلها القوال كأنها غناء للتفكير أو التدبر » (٧٥) .

مما سبق يتضح لنا ان سماع الصوفية لم يكن سماعاً يؤدي الى الخروج عن الشرع ، وكذلك لا يكون نوعاً مرضياً ، وانما هو سماع روحي من أجل التطهر والصفاء ، أى خلوص الروح ورقة القلب وصفائه والبعد عن خبائث النفس ووساوسها : وعلى هذا لا يمكن انكار السماع الصوفي ؛ لأن كل منكر لهذا السماع فهو بطل للطريق الصوفية التي هي مدارس تربوية وأخلاقية ، وهذا ما يوضحه قول سعيد بن أبى الخير : « كل قراء ينكر سماع الدراويش فهو بطل الطريقة » (٧٦) .

فالصوفي له احساس مرهف لا يحسه غيره من الناس العاديين ، فهو مثل الفنان والموسيقي والكاتب من حيث أن لكل منهما مشاعر ولا يمكن أن نحكم بأنه نوع من الأمراض النفسية ، فانه قد حكمنا كذلك على الفنان والموسيقي والرسام بأنهم مرضى ، ومن ثم فقد حكمنا على أغلب أفراد المجتمع بالجنون والمرض النفسى ، وهذا غير صحيح ولا يقبل من ناحية العقل ، ولا الشرع ، فهؤلاء يعانون مشاعر وأحاسيس نبيلة تغذى الروح مثل أهمية الطعام للبدن وهذا ما يؤكد الأستاذ الدكتور التفتازانى بقوله : « والصوفي في كل حالاته لا يفقد استبصاره لذاته مطلقاً ، ولو جعلنا منه شخصاً مريضاً لجعلنا كذلك من الشاعر والكاتب والفنان والموسيقي جميعاً مرضى لا لشيء الا أنهم يعانون مشاعر خاصة لا يعانيتها غيرهم من أفراد الناس العاديين » (٧٧) .

ولقد سبق الفيثاغوريون وأفلاطون الصوفية في القول بأن التأثر بالسماع موجود في الانسان بالفطرة ، وأن الأصوات الموزونة والنغمات

(٧٤) ابن تيمية : الصوفية والفقراء ، مراجعة أسامة محمد عبد العظيم حمزة ،

ص ١٣٤ .

(٧٥) انظر Al-R-Hartman : Kucharity des sufituns 1914, p. 134-148.

(٧٦) أسرار التوحيد : ص ٢٢٨ .

(٧٧) مدخل الى التصوف الاسلامي ، ص ١١ .

لها تأثيرها في النفس ؛ لأن ذلك يذكر النفس بحياتها السابقة في عالم
الزخرفل أن تتصل بالبدن بقولهم : « أن تأثير الموسيقى والنغمات الموزونة
لحركات السموات في عالم الذر عالم ما قبل الولادة كنا قد اعتدنا عليه
ومعنى ذلك أن أرواحنا كانت قبل أن تنفصل عن الله تستمع الى الالحن
السماوية وكنا مؤتسسين وكانت الموسيقى تثير فينا وجد الكون وتثير تلك
الذكريات فى خواطرننا » (٧٧) .

إذا طرب المريد فى السماع صدرت عنه حركات واهتزازات ورقصات
اختلف جمهور الصوفية حولها ، فذهب طائفة أخرى الى أن مثل هذه
الحركة نوع من النقص ، فالحركات والرقص اذا كانت نتيجة لوارد قوى
كان هذا الرقص مباحاً لهم ، أما اذا كان هذا الرقص تصنعاً
ومحاولة تقليد الصوفية فى ذلك ، فهذا ادعاء ونقص لا يجوز مع معظم
الصوفية ، وهذا ما يوضحه الهروى بقوله : « وأما الرقص مع أنه
نوع من النقص فذهب طائفة الى التفرقة بين أرباب الأحوال فيجوز لهم
ويكره لغيرهم وهذا القول هو المرضى عند جمهورهم وعليه أكثر
الصوفية » (٧٨) .

وكبار الصوفية يعتبرون أن شدة الانفعالات وكثرة الحركات
أثناء السماع لضعف الحال ، أما أصحاب الهمم القوية والوارد القوى ،
والارادة الراسخة لا يضطربون فى سماعهم ، ولكنهم يسيطرون على
مشاعرهم ، والنفس الشهوانية هى التى تسعى دائماً الى اشباع
رغباتها الحسية على حساب الحياة الروحية التى هى غاية التصوف
الاسلامى وهدفه الأساسى ، وهذا ما يوضحه ابن عربى بقوله : « ان
مثل هذه الاضطرابات العضوية مردها الى اغراء الشيطان ووساوسه ،
لا الى الهام ملائكى أو الهى ؛ ولهذا من لا يحل من تكرار وجوب منع هذا
السماع عن المريدين بل وعن السالكين الذين لم يبلغوا مرتبة الكمال ،
وطالما ظلت النفس الحساسة مستعصية على الروح يبقى ثم دائماً خطر
الشهوات التى تسعى جائعة الى الاشباع فى العبادة الحسية على
حبيب الشوق الروحى لله وحده ، الذى هو غاية الحياة الصوفية » (٧٩) .

ويذهب العزى بن عبد السلام الى أن الرقص بدعة ونقص فى العقل ،
ولا يخطر الا لمن فى قلبه هوى خبيث فيحرك ما فى قلبه من الأمور

(٧٧) تاريخ التصوف الاسلامى : ص ٥٦٠ .

(٧٨) فتح الاسماع فى شرح السماع : ص ٧٥ .

(٧٩) آسين بلاثيوس : ابن عربى ومذهبه ، ص ١٧٩ .

الشهوانية ، أما اذا كان هذا الرقص أو التمايل نتيجة لاستلذاذ انشساد دينى يحث على الطاعة والتذكر بيوم القيامة فلا بأس به، وهذا ما يوضحه بقوله : « الرقص بدعة لا يتعاطاه الا ناقص العقل ، ولا يصلح الا للنساء ، وأما سماع الانشساد للأحوال السنية المذكورة لأمر الآخرة فلا بأس به بل يندب عند الفتور وسآمة القلب ، ولا يخطر الا لمن فى قلبه هوى خبيث فإنه يحرك ما فى القلب » (٨٠) .

فالانسان العاقل هو الانسان الذى يرى أن الرقص البارح بالحركات الموزونة من طريق الألحان بالمزامير والطبول والطارات هى من فعل المجانين ، وأن ذلك لا يليق بالانسان العاقل ؛ لأن هذا الرقص يذهب وقاره وهيبته ويعتبر من أنواع اللهو منبت للشهوة ، وهذا ما ذهب اليه معظم الصوفية .

يعتبر سعيد بن أبى الخير (٨١) من أشهر المولعين بالرقص فى مجالس السماع ، فلقد عاش معظم حياته فى الرقص الصوفى ، ويذهب الى أن هذا الرقص بالنسبة للشباب يساعد على تبديد شهوة النفس وما يغلب عليها من هوى وخبائث ، تلك الشهوة التى تمتلك جميع الأطراف ، فمن خلال التصفيق والتمايل تتبدد الشهوة وتخرج من أرجلهم ، ومن ثم يستطيعون صون أنفسهم من ارتكاب الكبائر الأخرى ؛ أى أن سعيد بن أبى الخير جعل من السماع والرقص الصوفى وسيلة وأداة لصون النفس من المعاصى وارتكاب الكبائر ، وهذا ما يوضحه بقوله :

وأما عن رقص الشبان فى السماع ، فإن الشبان لا تخلو أنفسهم من الشهوة ويغلب عليهم هوى النفس ، ومن المؤكد أن الشهوة تمتلك جميع الأطراف ، فإذا ما صنفوا تبذرت الشهوة من أيديهم ، وإذا ما رقصوا قتلت الشهوة من أرجلهم ، وعندما تنقص الشهوة من أطرافهم على هذا

(٨٠) كف الرعاع عن محرمات الله والسماع ، حكم السماع فى الغناء والموسيقا والشطرنج ، ص ٢٧ ، وانظر قول الجنيد ، ص ٨٢ .

(٨١) محمد بن المنور بن أبى سعيد بن طاهر بن أبى سعيد بن أبى الخير هو أبو سعيد فضل الله بن أبى الفخير محمد بن أحمد الميهنى ، شاعر فارس وشيخ من شيوخ الصوفية ، عاش فى إيران فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، والنصف الأول من القرن الخامس ، فقد كان مولده فى مدينة مهيمنة من أعمال خلوران بأقليم خراسان فى أول محرم لعام سبع وخمسين وثلاثمائة بعد الهجرة ٠٠ ، توفى فى الرابع من شعبان لعام أربعين وأربعمائة بعد الهجرة بالغيا من العمر ثلاثين وثمانين عاما ، انظر اسرار التوحيد : ص ١٣ : ١٥ .

النحو ، فانهم يستطيعون أن يضربوا أنفسهم من الكبائر الأخرى ، ولكن عندما تتجمع الشهوات والعياذ بالله فانهم يعجزون عن ضيافة أنفسهم من الوقوع في الكبائر فالأولى أن يبتعدوا نيران تلك الشهوة في السماع أكثر منه في أى شيء آخر » (٨٢) .

ولقد حفل كتاب أسرار التوحيد بالعديد من القصص والحكايات التي توضح لنا مدى ولع الشيخ سعيد بالرقص الصوفي من بينها أنه « دعى الشيخ الى وليمة ، فذهب في رفقة الامام محمد القايتي ، وظلوا يقيمون السماع والرقص حتى أذن المؤذن للصلاة ، فقال الامام محمد : الصلاة ، الصلاة . فقال الشيخ : اننا في صلاة ، وظل يرقص ، فخرج الامام محمد من بين الجميع ، وأدى الصلاة ثم عاد اليهم ، ولما فرغوا من السماع ، التفت الشيخ الى جماعة الصوفية وقال : لا يوجد في الدنيا من مشرقها الى مغربها رجل أعظم وأفضل من هذا الرجل » (٨٣) .

من هذه الحكاية يتضح للشخص العاذى الذى لم يكن على علم ودراية بعلم التصوف ، أن هذا الرجل كافر ، كيف يفضل الرقص على الصلاة وقد سمع الأذان ، لكن في الحقيقة أن ما هو عليه الشيخ (سعيد ابن أبى الخير) في لحظة الرقص أقوى من القيام بالصلاة في هذا الوقت الا وهو قوة الوارد الالهى من قبل الحق تعالى ، فاذأ غلب عليه الوجد لا يستطيع القيام بأى عمل ، ولكنه يمكن القيام بالصلاة بعد الانتهاء من هذا الوجد إذ أنه لا يستمر طويلا ، ولا يأتى الا لصاحب القلب الطاهر الصافي ، ولقد روى أيضا « أن الشيخ ... لما وصل الى قرية (ريكا) وهى قرية على بعد فرسخين من المدينة ، كان بها رجل يدعى الشيخ أبو العباس الزيكاني .. قال الشيخ : انشدوا شعرا ، فقال الشيخ أبو العباس اننا لم نعتد ذلك ، فقال الشيخ للقوال : تعال واتشدنا شيئا ، فأنشد القوال بعض الشعر ، فتملك الشيخ حالة ، وتنهض ، وأخذ يرقص ، والجميع يشاركوه ، وأظهر الشيخ أبو العباس استنكاره لذلك ، فأمسك الشيخ بيده ، وجذبه اليه ليرقص معه ، وأخذ يجذب نفسه منه ، فقال له الشيخ : انظر ، فنظر الى الصحراء فى الخارج ، فرأى جميع الجبال والأشجار واللبانى ترقص مع الشيخ ، فاندمج أبو العباس مع الشيخ في الرقص دون وعى ، وأمسك بيد أخيه قائلا له : تعال ، فلا طاقة لنا على مقاومة هذا الرجل ، ورقص الاخوان كلاهما ، وتخليا عن انكارهما ، وأظهر الرغبة في السماع بعد ذلك » (٨٤) .

(٨٢) سعيد بن أبى الخير : أسرار التوحيد ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٨٣) المصدر السابق ، ص ٢٥٧ .

(٨٤) أسرار التوحيد : ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

ومن الأحاديث النبوية التي استدلت عليها الصوفية على إباحة السماع « ما روته السيدة عائشة - رضى الله عنها - فى الصحيح من رقص الحبشة فى المسجد يوم عيد وأن رسول الله ﷺ دعاها فوضعت رأسها على منكبه قالت فجعلت أنظر إليهم حتى كنت أنصرف عن النظر إليهم » (٨٥) .

لقد عارض القشيري الصوفية فى قولهم بالرقص فى السماع وما يقوم به المريد من حركات واهتزازات ، مثله فى ذلك مثل الهجویری والسراج ، الا أنه حاول أن يلتبس للقوم من الصوفية وسيلة المنجاة مما شاب أحوالهم فى السماع ، ولقد لجأ فى ذلك الى التحليل النفسى ، فاعتبر أن ما يظهر على الصوفى من حركات لا يكون رقصاً حقيقياً ولا ديبياً بالقدم بل هى حال وارد من الله يطهر الروح ويملك البدن فيضطرب أو ينتفض أو يرتعد ، وقد تبدو هذه الحركات على أنها رقص وهى ليست كذلك وهذا ما يوضحه قول القشيري : « المريد لا تسلم له الحركة فى السماع بالاختيار ألبة ، فان ورد عليه وارد حركه ولم يكن فيه فضل قوة ، فيقدر الغلبة يعذر ، فاذا زالت الغلبة وجب عليه القعود والسكون ، فان استدأمت الحركة مستحلياً للوجد من غير غلبة وضرورة ، لم يصح فان تعود ذلك يبقى متخلفاً لا يكشف بشيء من الحقائق ، فغاية أحواله حينئذ أن يطيب قلبه ، وفى الجملة : أن الحركة تأخذ من كل متحرك وتنقص من حاله مريداً كان أو شيخاً » (٨٦) .

ويذهب الصوفية الى أن الرقص عند العامة قبيح خارج عند حدود الشرع ، ولكن رقص الصوفية وما يثمره فى القلب من صفاء ونقاء وإماتة للشهوات ، فيه طهر للروح ، والعلو بها الى حياة الكمال التى لا يصل إليها إلا عارف مكين ، وهذا الرقص لا يشبه الرقص العادى المثير للشهوة والأهواء النفسية ، وهذا ما يؤكده قول الهجویری : « أن الرقص قبيح شرعاً وعقلاً من أجهل الناس ومحال أن يغفله أفضل الناس ، ولكن حين تظهر فى القلب خفة وتسلط الخفتان على الرأس يقوى الوقت فيضطرب الحال ويرتفع الترتيب والرسوم وذلك الاضطراب الذى يظهر لا يكون رقصاً ولا ديبياً ولا تربية للطبع بل هو طهر للروح ، والذى

(٨٥) فتح الاسماع فى شرح السماع : ص ٧٥ ، وانظر قصة السامري فى قطع النزاع وكشف القناع عن دليل جواز السماع : ص ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، وانظر التصوف حياة وسلوك ، ص ٣٤١ .

(٨٦) الامام القشيري : حياته ، آثاره ، مذهبه فى التصوف ، ص ٢٢٩ ، وانظر الرسالة القشيرية ٢ ص ٢٠٢ .

يسمى هذا رقصا يكون بعيدا عن الصواب ، فذلك الحال التى ترد من الحق شيء لا يمكن بيانه بالنطق ومن لم يذق لا يدري (٨٧) .

وإذا كان رقص الصوفية غير مباح شرعاً ، لما أقام ابن الفارض فى بيته حلقة للذكر والسماع وما ينتج عنه من حركة واضطرب ناجم عن الوجد الذى يعتبره الصوفية صفاء للنفس وامانة لشهواتها بشهود نور الحق تعالى ، ويذكر ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ) « من أنه كان لابن الفارض بمدينة البهنسا بصعيد مصر ، بيت يقيم فيه طائفة من الجوارى المغنيات الضاربات على الدفوف والشبابات ، وأن الشاعر كان يقصد الى هذا البيت حيث يلقي نفسه فى غمرة من غمرات السماع الذى ينشأ عنه الرقص بما لا يلزمه من حركة واضطراب ويتولد منه الوجد بما يستتبعه من دهش وغيبة » (٨٨) .

الكثيرون اذا سمعوا العظة أو الصوت الجميل تعالت منهم صيحات الاستحسان واضطربت منهم الأطراف ، ويرون هذا من علامات الخير ، أو سمة من سمات التأثير والانجذاب ، وأن هذا الرقص رقص يشهد فيه الواجد الموجود (الحق) ويغيب به عن وجدته حتى يصبح وجدته وجوداً ، وهذا ما يدافع به الدكتور / محمد مصطفى حلمى عن رقص ابن الفارض بقوله : « ان رقصه ليس من هذا النوع الذى قيل فيه الرقص نقص ، اذ لو كان كذلك لا ينبئ عليه أن يكون شاعرنا من هؤلاء الذين يطر بهم الوجد بعد الفقد ، ويستريحون بالوجد لا بالموجود فى الوجد ... ، فانه كما يقول (القاشانى) رقص يشهد الواجد فيه الموجود ويغيب به عن وجدته بحيث يصبح وجدته وجوداً » (٨٩) .

وإذا كان ابن الفارض قد اعتبر الرقص فى السماع ليس بدعة أو نقصاً وانما هو تطهير للروح من شهوات النفس فقد وجه ابن الجوزى تقدماً لبعض الصوفية المتأخرين الذين مالوا الى السماع والرقص وعدم العمل والخروج عن حدود الشريعة وعما كان عليه الصوفية الأوائل من الالتزام بالطريق المستقيم ، يقول ابن الجوزى : « والتصوف طريقة كان ابتدأها الزهد الكافى ، ثم ترخص المنتسبون اليها بالسماع

(٨٧) كشف المحجوب : ج ٢ ، ص ٦٦٥ ، وانظر اشرار التوحيد ، ص ٢٣٧ .

(٨٨) د . محمد مصطفى حلمى : ابن الفارض والحب الالهى ، دار المعارف

١٩٧١ ، ص ٦٧ .

(٨٩) ابن الفارض والحب الالهى : ص ٦٩ ، وانظر كشف الوجوه الغر ، هامش

على شرح ديوان ابن الفارض ، ج ١ ، ص ٣٩ - ٤٠ .

والرقص ، فحال اليهم طلاب الآخرة من العوالم لما يظهرونه من الزهد ،
ومال اليهم طلاب الدنيا لما يرونه عندهم من الراجة واللبب » (٩٠) .

كما يذهب بعض الصوفية الى أن للرقص والحركة في السماع
أهمية عظيمة من حيث أن روح السامع وقت السماع تفارق صفات
البدن وتذكر عالمها المثالي قبل أن تتصل وتهبط بالبدن ، ويسمى بعض
الفلاسفة هذا العالم ما قبل الولادة ، فيحرك فيها الصفات والأخلاق
الجيدة التي توصلها الى مرحلة الكمال التي تفقده في العالم المادى ،
وذلك بسبب حلولها بالبدن وما يتطلبه من اشباع للرغبات والأهواء
الشهوانية وهذا ما يوضحه قول عبد الغنى النابلسي : « فائدة الرقص
والحركة في السماع وذلك أن روح السامع تهيم عند السماع بأن يرجع
الى وطنه المألوف ويفارق النفس والقالب فيحركه يد الحال ويسكنه
عما هم به بسبب التحريك الى طول الأصل المعلوم » (٩١) .

وإذا كان بعض الصوفية ذهب الى أن الرقص في السماع لا يخالف
الشرع ، وذلك على اعتبار أن هذا الرقص لا يشابه الرقص العادى
المقترن باللهو والشهوة ، وأن هذا الرقص الأول نتيجة لقوة الوارد
الالهى ، فان البعض الآخر ذهب الى أن حال الثبات والتمكين أفضل
واكمل للمريد القوى الارادة ، أما الرقص نتيجة لضعف الحال ، فقد
يسمع الانسان ما يزلزله وما يتأثر به فؤاده وتقشعر منه شاعره ،
ومع ذلك يظل ثابت الحال معقود اللسان ، تسبج روجه في عوالم
المعرفة يظل ساكنا سكون الجبل مع أنها تتحرك مثل السحاب ولكن
لا ترى تحركها : « ولهذا قيل للجنيدي : مالك كنت تتحرك عند السماع
وتتواجد ، واليوم لا نراك تتحرك بشيء ؟ فقال قال الله تعالى :

وَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادًا وَهِيَ تَرْمِزُ السَّابِقَ مَعَهُ اللَّهُ
الَّذِي أَثْنَىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ رَحِيمٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٩٢) (٩٣)

- (٩٠) د. محمد مصطفى حلمي ، محمد فوقي حجاج : فى التصوف الاسلامى ، دار
الكتب المصرية ، ١٩٧٨ ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، وانظر تلبس ابليس : ص ١٧١ .
(٩١) كشف الوجوه الغر لمعانى نظم الدر ، ج ٢ ، ص ٧٢ .
(٩٢) سورة النمل : آية (٨٨) .
(٩٣) احمد الشرباصى : فى رحاب الصوفية ، دار التأليف عام ١٩٥٠ ، ص ٦٠ .
وانظر اللمع ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ . وانظر عوارف المعارف ، ص ١٩٩ ، وانظر احمد
زروق : قواعد التصوف ، صححه محمد زهرى مكتبة الكليات الازهرية ،
١٩٦٨ ، ص ٨٨ ، وانظر عبد المجيد الشرنوبى ، شرح تأثية السلوك الى ملك الملوك
وبهامشه شرح حكم بن عطاء الله السكندرى ، القاهرة ، ١٨٨٧ ، ص ٩٣ .

ولم يفت الغزالي في معرض كلامه عن السماع من اعتبار الرقص ما هو الا حماقة وجهل لا يزول الا بالتعب ، فلقد نبذ الرقص باعتباره من أقوى أسباب السكر والطرب ، فيقاس عند ابن الجوزي بالنبيذ من حيث انه مباح لكن كراهته أشد ، لما فيه من ضرر كثير مما هو نافع ، ولذلك قال الغزالي : « الرقص حماقة بين السكتين لا يزول الا بالتعب » (٩٤) ، كما ذم القرآن الكريم الرقص والمشي مرحاً بقول الحق تعالى :

وَلَا تُصِرُّ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ
مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ
وَأَغْضِضْ مِنْ صَوْنِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْنَافِ لَصَوْنُ الْحَمِيرِ
(٩٥)

ويلخص ذلك كله ابن الجوزي في قوله : « الرقص أشد المرح والبطر أو لسنا الذين قسنا النبيذ على الخمر لاتفاقهما في الاطراب والسكر ، فما بالنا لا نقيس القضيبي وتلحين الشعر معه على الطنبور والمزمار والطبل لاجتماعهما في الاطراب، وهل شيء يزرى بالعقل والوقار ويخرج عن سمة الحلم والادب أقبح من ذي لحية يرقص فكيف اذا كانت شبيهة ترقص وتصفق على وقاع الالحان والقضبان » (٩٦) .

فكراهة الرقص الصوفي أصبح أمراً ضرورياً لما ينطوي عليه هذا الرقص من البدع والفساد ، حيث التصق بالرقص الصوفي العديد من البدع التي لم تكن موجودة عند الصوفية الاوائل ، وانما هي أمبور استحدثها مدعو التصوف ، ولذلك شن ابن باديس (ت ١٩٤٠) حملة عنيفة على الرقص واعتبره من مصادر الفساد والمعاصي والخروج عن حدود الشرع ، وهذا ما يوضحه بقوله : « وازداد الأمر بلاء لما اقترن الذكر عند بعضهم بالرقص والزمر وكلها - كما يقول - اختراعات فاسدة في نفسها ، لأنها ليست من سعى الآخرة الذي كان يسعاه محمد ﷺ ، والسبب في هذا كله ، أن أحزابهم وأورادهم وربما اقترن بها من هذه الأمور البدعية كالرقص والزمر والصياح

(٩٤) ابن الجوزي : تلبيس ابليس ، ص ٢٥٩ .

(٩٥) سورة لقمان : آية (١٨) ، (١٩) .

(٩٦) ابن الجوزي : تلبيس ابليس ، ص ٢٥٩ .

والنعويل ، إنما هي من صنعهم وصنع شيوخهم المتأخرين وليست مما ثبت عن النبي ﷺ » (٩٧) .

ومن المجددين الذين نقدوا الطرق الصوفية أيضا في الرقص ما يقومون به من الطبل والزمر في مجالس الذكر هو الامام محمد عبده ، وهذا ما يحكيه عنه تلميذه محمد رشيد رضا : « كانوا يجتمعون للذكر ، ويتخذون الطبول آلة لهم وبعضهم كان شكله مستطيلا والبعض الآخر كان شكله دائريا وكلها كانت تصدر أصواتا عالية ، أشبه بصوت الحفح بشل يصم الأذان ، فإذا ما قاموا للذكر ارتفعت أصواتهم مع أصوات الطبول وأتوا بالفاظ لا مدلول لها ، وكان من عادتهم — كما يقول الامام محمد عبده — الاتيان بمثل هذه العادة في مسجد الامام الحسين وفي مولده » (٩٨) .

فالتعود على هذه الأمور في مجالس الذكر يذهب المروءة ويخرج صاحبه عن حدود الشرع ، فهذه الأمور الدخيلة على التصوف من الرقص والزمر أفسدت جوهره الأصيل وهو الذكر والتبتل للحق تعالى ، ولهذا قال ابن قدامة الفقيه الحنبلي (ت ٦٢٠ هـ) : « أن فاعل هذا مضطئ ، ساقط المروءة والمداوم على هذا الفعل مزود الشهادة في الشرع غير مقبول القول ، وأما ما يدعيه بأن ذلك يغفل محبته لله تعالى فيمكن أن يكون محبا لله مطيعا له في غير هذا » (٩٩) .
ويفسر لنا الدكتور / أحمد الجزار لماذا رفض كبل هؤلاء الرقص في السماع ؟

ذلك على اعتبار أنها أمور بدعية في مجالس أذكارهم ، وخوفا من أن تصبح عادة تلتصق بالأمور والعبادات الشرعية وذلك من خلال عرض موقف ابن باديس ، إذ يقول : « وعلى أية حال ، فقد بات واضحا أن ما وقع فيه بعض أذعياء التصوف ، وأتباع بعض الطرقات الصوفية من أمور بدعية في مجالس أذكارهم ، كالرقص والزمر

(٩٧) الجزار (١ / د / أحمد محمود) : الامام المجدد بن باديس والتصوف ، دار الوزان ، ١٩٨٨ ، ص ٩٥ .

(ولد عبد الحميد بن باديس بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس في ديسمبر ١٨٨٩ ، ببينة قسنطينة بالجزائر ، ٠٠٠ ، وقد قدر لابن باديس أن يولد لأسرة مشهورة بالعلم والثراء والجاه وكان والد عبد الحميد بن باديس عضوا بارزا في المجلس الجزائري ، فأتى حفظ القرآن في مدرسة قرآنية على يد الشيخ محمد بن المداس ، ولم يكن عمره حينئذ قد تجاوز الثالثة عشرة عاما ، وانظر الامام المجدد ابن باديس والتصوف : ص ١٥ : ١٩ .

(٩٨) ١٠١ الجزار : الامام المجدد ابن باديس والتصوف ، ص ٩٦ .

(٩٩) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

وما أشبه ذلك ، لم يكن له سنده فى أصول الطرق الصوفية لدى مؤسسيها من الصوفية كالجيلانى والشاذلى ، ولكن هذا لم يمنع ابن باديس من أن يتصدى لكل هذه الأمور البدعية فقد خشى أن تلتصق بالعبادات الشرعية بوصفها (هذه الأمور) من البدع العملية عنده « (١٠٠) .

فالصوفى فى حال الرقص وغلبة الهياج والوجد والاضطراب الناتج عن السماع ورمى الدنيا وكل ما عليها لا يأبه بوجود الكائنات فيقوم بتمزيق الملابس أو الخرقه (١٠١) ، ويرمى بها فى وجه الحاضرين فكانت تقسم فيما بينهم طبق آداب خاصة ، فإذا ما حدث ذلك أنتجته لقوة الوجد ودون ارادة ولا اختيار له فيه فلا بأس به فخرج السامع من وعيه أمر غير مستبعد ، وهذا ما يوضحه الغزالى بقوله : « أما تمزيق الثياب فلا رخصة فيه الا عن خروج الأمر عن الاختيار » (١٠٢) .

(١٠٠) الامام المجدد ابن باديس والتصوف : ص ٩٩ .
(١٠١) الخرقه هى ما يلبسه المريد من يد شيخه الذى يدخل فى ارادته ويتوب على يده لأمور ، منها : التزى بزي المراد ليتلبس باطنه بصفاته كما تلبس ظاهره بلباسه ، وهو لباس التقوى ظاهرا وباطنا . قال تعالى :

يَا أَيُّهَا آدَمُ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا
يُؤَيِّرُ سَوْآتَكَ وَيُثَبِّتُ لِبَاسَ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللّٰهِ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
سورة الاعراف : آية (٢٦) .

ومنها وصول بركة الشيخ الذى يليه من يده المباركة اليه ، ومنها نيل ما يغلب على الشيخ وقت الالباس من الحال الذى يرى الشيخ ببصيرته النافذة المنورة بنور القدس ، أنه يحتاج اليه لرفع حجب العائقة وتصفية استعداده ، فانه اذا وقف على حال من يتوب على يده ، علم بنور الحق ما يحتاج اليه فيستنزل من الله ذلك حتى يتصف قلبه به فيفسر من باطنه الى باطن المريد ، ومنها المواصلة بينه وبين الشيخ به ، فيبقى بينهما الاتصال القلبي والصحية دائما ، فانه أب حقيقى كما قال عليه السلام (الالباء ثلاثة : أب ولدك ، وأب علمك ، وأب ربك) ، وانظر عبد الرزاق الكاشانى : اصطلاحات الصوفية ، تحقيق د عبد الخالف محمود ، دار المعارف ، ١٩٨٤ ، ص ١٦٩ ، وانظر أيضا تحقيق محمد كمال ابراهيم جعفر ، دار المعارف ، ١٩٨١ م ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ . (١٠٢) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٣٠١ ، وانظر الكواكب الدرية : ج ١ ، ص ٢٥٩ ، وانظر طبقات الصوفية : ص ١٠٩ ، طبعة ليدن ، ١٩٦٠ ، قول ابو حفص النيسابورى وانظر الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار : ج ١ ، ص ٧٣ ، وانظر أيضا قول الجامى فى تاريخ التصوف فى الاسلام : ص ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٦٥ ، ٥٩٨ .

ويوضح الصوفية أيضاً أن المريدين عندما يقومون بتهزيق الثياب وشق الجيوب ، يكون ذلك نتيجة لقوة الوارد وعدم الإرادة أو الاختيار وقت السماع والا كان ذلك ضياعاً للأهول وخروجاً عن حدود الكتاب والسنة .

كما ذهب الصوفية الى أن تأثر الصوفي بالسماع أكثر من غيره ، خاصة أن يجد الله في كل ما يسمع حتى وإن كان ما يسمعه جملة عادية ، وهذا ما يوضحه قول أبي عثمان المغربي : « من ادعى السماع ولم يسمع صوت الطيور وصرير الباب وتصفيق الرياح ، فهو فقير مدع » (١٠٣) ، أى أن درجة الشفافية والصفاء البروحى تجعله يسمع صوت الطيور وصرير الباب وصوت الهواء وصوت كل ما حوله من الكائنات .

فالمرقعة أو الخرقة مذلة للخواص ، وزينة للعوام ، ذلك لأن العوام إذا لبسوا هذه المرقعة عزوا بين الخلق ، أما الخواص تكون المرقعة بلاء لهم ، لأنهم يزهدون وينادون بترك الرياسة ويؤثرون الذل على العز ، والزهد عن الفخامة والبغدية ، فتكون المرقعة مصدراً للنعمة لكل من العوام والخواص ، وهذا ما يوضحه الهجویری بقوله : « المرقعة زينة لأولياء الله عز وجل ، يعز بها العوام ويذل بها الخواص ، وعز العوام هو أنهم حين يرتدون بها الخلق ويحترمهم الخلق وذل الخواص هو أنهم حين يرتدون بها الخلق بعين العوام ويلومونهم بذلك فهي لباس النعم للعوام ، وجوشن البلاء للخواص ، لأن أكثر العوام يكونون فيها مضطرين حين تقتصر أيديهم عن عمل آخر ، ولا تكون لهم آلة أخرى لطلب الجاه ، فيطلبون بها الرياسة ، ويجعلونها سبباً لجمع النعم ، ثم أن الخواص يقولون بترك الرياسة ويؤثرون الذل على العز ، فتكون لهؤلاء ولأولئك نعماء » (١٠٤) .

ولقد اعتبر الصوفية أن لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ وبين المريد وعلامة على تحكم الشيخ في نفس المريد وتأديبه بإدابه ، وهذا ما يوضحه السهروردي البغدادي بقوله : « لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ وبين المريد وتحكيم من المريد للشيخ في نفسه والتحكيم شائع في الشرع بمصالح دنيوية » (١٠٥) .

(١٠٣) الرسالة القشيرية : ص ٢٦٥ .

(١٠٤) عامر النجار : الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها ،

ص ٤٠ .

(١٠٥) المصدر السابق ، ص ٤١ ، وانظر إحياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٢٨٨ ،

٢٨٩ ، وانظر عوارف المعارف ، الجزء الخامس من الإحياء ، ص ١٧٠ ، وانظر

تلبس إبليس : ص ٢٦٠ : ٢٦٣ .

وإذا ما خلع الشيخ الخرقة ، فإنها تقسم بين جميع مريديه حتى ينالوا البركة بهذه الخرقة ، وتكون موضع اهتمامهم ، وإذا لم تكن بين أيديهم خرقة أخرى فإنهم يلبسونه خرقة ثانية وهى غير الخرقة التى خلعها أثناء الوجد ، وهذا ما أوضحه سعيد بن أبى الخير المولع بالرقص فى السماع بقوله : « وأما بالنسبة للخرقة التى يخلعها الدراويش ، فإن التخلّى عنها يتعلق بكل جماعة الدراويش ، ويكون موضع اهتمامهم ، فإذا لم يكن فى متناول أيديهم خرقة أخرى ، فإنهم يلبسونه خرقة ثانية ، لأنهم بذلك يخفون عن عقولهم حمل التفكير فيها ، فيسترد الدراويش خرقة ويكون ذلك من أيدى جميع الدراويش ، ولكن هذه الخرقة لا تكون نفس الخرقة التى خلعها (١٠٦) . »

ومن قام بحملة إصلاح شاملة منها إصلاح المفهوم الصوفى الإمام محمد عبده ، ولقد ذهب الإمام محمد عبده إلى أن كل ما يقوم به الصوفى من ترك الدنيا والزهد فيها ومجاهدة النفس وطلب الفقر والرغبة عن الغنى ، والسماع والوجد والرقص فى السماع ما هى إلا تلبس من تلبسات الشياطين ، وهذا ما يوضحه بقوله « إن هذا ما كان عليه أوائلهم حتى ليس الشيطان عليهم فكان أول تلبسه أن صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل فما أن انطفأ مصباح العلم حتى تخبطوا فى الظلمات فمنهم من غالى فى ترك الدنيا وهى قوام مصالح الخلق ، ومنهم من أغرم بتعذيب النفس بالجوع والعري والفقر الإختياري ، ومنهم من هام بالسماع والوجد والرقص ، ومنهم من غلبت عليهم الخيالات » (١٠٧) .

إذن فالإمام محمد عبده قد شن حملة عنيفة على التصوف وما يدعو اليه الصوفية بقوله : « أن كل من يسلك طريقة الصوفية بالرياضة والمجاهدة عرضة للوقوع فى عالم الخيال ، ومن آثار ذلك أن يرى فى اليقظة .. ما لا وجود له فى الخارج ، ويسمع من نفسه تارة من الأرواح التى تتمثل له كلاما لا يسمعه غيره وإن كان بجانبه ، ويشم روائح طيبة لا مصدر لها من المادة وتعرض له أذواق ووجدانات روحية كثيرة لا يمكن التعبير عنها .. » (١٠٨) .

(١٠٦) أسرار التوحيد ، ص ٢٢٨ ، وانظر احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٣٨٨ .

(١٠٧) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، مطبعة المنار .

١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م ، ج ١ ، ص ١١١ .

(١٠٨) محمد رشيد رضا . تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . ج ١

ص ١٢٧ .

لكن كيف يهاجم الامام محمد عبده التصوف وهو الجانب الروحي الذى يدعو المريد الى الصفاء والنقاء من خلال القيام بأوامر الشرع والبعد عن الأخطاء التى بها فساد القلب وقسوته ، فالتصوف هو مدرسة اخلاقية تربوية لمن التزم فيها بآداب الصوفية الاوائل (الزهاد) ، فمن تأدب بآدابهم عاش حياة الكمال الروحي ؛ ذلك لأنهم تأدبوا بآداب الرسول ﷺ من صفاء ورقة القلب وغيره .

وخلاصة القول ان الصوفى هو انسان ذو احساس مرهف يحس بمعانى الكلمات التى لا يفهمها غيره من السالكين المبتدئين ، وعندما يحس بهذه المعانى يغيب ويفنى عن كل ما حوله من المحسوسات ويشعر بعالم الروح ويدرك فيه لذة الخطاب الالهى ، وفى هذا العالم لا تكون له ارادة ولا حركة ولا اختيار فيما يقوم به من انفعالات واضطرابات نتيجة لقوة الوارد الالهى عليه ، ولكى يصل الى العالم الروحي ، اى عالم الصفاء والنقاء لابد من العديد من الآداب التى يجب عليه الالتزام بها ، منها الخلوة والعزلة عن مجالس السوء ، وحسن النية فى السماع وكذلك الاخلاص واختيار المكان والزمان المناسب لأوقات السماع وغير ذلك من الآداب الأخلاقية التى يلتزم بها السالك فى سماعه ، وهذا ما يتطلبه كل مجتمع وكل فرد .

اذن ، فالسماع الصوفى يجعل شخصية الانسان شخصية سوية من خلال الالتزام بقواعد السماع وآدابه ، وهذا هو ما أوضحناه فى علاقة السماع بالناحية النفسية وما يثمره السماع فى نفس المستمع .

الفصل الثالث

صلة السماع بالترقي الأخلاقي وآداب السلوك

تمهيد

- أولا : السماع والنفس الانسانية
- ثانيا : السماع ورياضة النفس أخلاقيا
- ثالثا : السماع وآداب السلوك
- رابعا : السماع والآداب الباطنة

٢- تمهيد :

أوضحنا قى الفصل السابق السماع من التأخية النفسية وذلك من خلال شعور الصوفي بالسماع والخال الذي يرد على قلب المرید أثناء السماع (الوجد) ، وكذلك أوضحنا دور الإرادة فى السماع ، وكيف أن المرید لا تكون له ارادة أثناء الوجد .

ورأينا أيضا كيف أن المرید يحاسب نفسه ويراقبها أثناء السماع من خلال التخلص من الصفات الذميمة والسماع السيئ المثير للشهوة ، والدعوة الى السماع الحسن والصفات الحميدة ، وأصطناع المجاهدات والرياضات الشاقة ؛ مثل الصعبة ، والخلوة ، والعزلة ، والمراقبة ، والصوم ، والذكر ، وغير ذلك ، وأيضا أوضحنا خال الثبات والحركة وتقطيع الخرقة ، وموقف الصوفية من سماع الموسيقى وما ينتج عنها من الطرب واللذة .

أما فى هذا الفصل فسوف نعرض كيف تتبرقى نفس السامع أخلاقياً ، وذلك من خلال الالتزام بالكتاب والسنة والتجلى بالصفات والأخلاق الحميدة ، والبعد والفناء عن الصفات السيئة ، ولا يكون ذلك الا من خلال بعض الآداب والواجبات التى يعتبرها الصوفية من أهم الأمور التى يجب الالتزام بها فى مجالسهم ؛ ومن هذه الآداب ما يجب على المرید الالتزام بها ، منها يخص المسموع ، ومنها ما يختص بالأمور الواجب توافرها فى مجالس السماع ، وكذلك نوضح كيف أن مجالس الصوفية تعد الانسان لأن يصبح انساناً أخلاقياً بمعنى الكلمة من خلال الالتزام بالصدق فى السماع وحسن الظن بالمسموع والقائل ، وترك سماع الغيبة والنميمة والكذب والفحش والفجور والبهت ، والدعوة الى الاستقامة والتقوى فى السماع وغير ذلك من الأمور الأخلاقية ، وفى النهاية نوضح كيف أن الصوفية اعتبروا الفهم للمسموع من أول درجات السماع والعمل به .

أولاً : السماع والنفس الانسانية :

ان طهر النفس وصفاءها لا يتم الا من خلال مجاهدتها ، فالنفس الانسانية باهمال المجاهدة والرياضات الروحية تأنس بملاذها الحسية وتبذل لذلك كل ما يمكنها من حجب لطائف القلب ، والسماع بالحق هو أحد هذه الرياضات الروحية الذي يتم به رقة القلب وخشوعه والتفرد والفناء عن كل ما يثير الشهوة ، أما السماع البارح فهو ما يخرج صاحبه عن حدود الشرع ويثير كل ما يحس على الشهوة والهوى ، وهذا ما يؤكد الحلاج في قوله : « جال بى السماع فى ميدان من ميادين البهاء ، فأوجدنى فى وجود الحق عند العطاء فأستقانى بكأس الصفاء ، فأدركت به منازل الرضا وأخرجنى الى رياضة النزهة والفناء » (١) .

النفس هى الأمانة له بعدم السماع الحق ، وبكل خاطر مذموم ومبعث ذلك الهوى والشهوة ، ولذلك ينصح الصوفية المريد بالمجالسة مع الأبرار واستماع نصائحهم والبعد عن الفجار واستماع أحاديثهم ، وهذا ما يوضحه الشيرازى (٢) بقوله : ومن الأمور المعتبرة الواجبة فى حفظ صحة النفس ، عدم المواظبة على الوظائف العملية بيطل استعداد النفس لقبول الأنوار الالهية والمواهب القدسية ومنها المجالسة مع الأبرار واستماع نصائحهم والمجانبة عن الفجار واستماع أحاديثهم » (٣) .

ولقد أوضح الصوفية أن المستمع يجب عليه عدم التعود على السماع حتى لا يصبح عادة سيئة تثير فى نفسه الصفات والأفعال السيئة ، وإنما السماع الحق يثير فى نفس المستمع الشوق الى لقاء الحق تعالى ، والتوجد والواردات الالهية وكل ما يمثل الأخلاق الحميدة ، وهذا ما يؤكد أبو بكر الكتاني بقوله : « المستمع يجب أن يكون فى سماعه غير مستروح اليه يهيج منه السماع وجداً أو شوقاً أو غلبة أو وارداً ، والوارد عليه يفنيه عن كل حركة وسكون ، فيتقن الصادق استدعاء الوجد ويجتنب الحركة فيه » (٤) .

(١) اللمع : ص ٣٤٢ .

(٢) الشيرازى (هو صدى الدين محمد ابراهيم) : رسالة فى علم الأخلاق ، مطبعة الموسوعات ١٣١٩ هـ ، ص ٣٢ .

(٣) الشيرازى : رسالة فى علم الأخلاق ، ص ٣٢ .

(٤) عوارف المعارف : ص ١٦٨ .

فالسماح الحسن اذن جوهرة لا يعرف ثمنها الا افاضل القوم الذين يلتزمون فيه بالآداب والواجبات الواجبة له من الستر وعدم الافصاح عنه لمن ليس من أهل الطريق . وذلك على حد قول أبي مدين : « السماع جوهرة لا يطلع عليه الا الأفاضل ، فإذا حضرتم السماع فأغلقوا أبوابكم ؛ لأن طريقة القوم على الستر ممن ليس من أهلها » (٥) .

يوضح الصوفية بأن المريد في مجالس السماع يجب عليهم غلق أبواب المجلس عن ضعفاء النفوس وأصحاب الأهواء والشهوات ، ولا يدخل مجالسهم الا من كان قوى الحال والارادة ، أى البخل بالسماع على ضعفاء النفوس ، عكس مجالس الطعام ، فانهم يفتحون المجلس للجميع قوى الحال أو ضعيفه وهذا ما يوضحه القول السابق .

ويبين لنا الصوفية كذلك أنه يجب على السامع عدم التقصير في أى أمر من أمور المجاهدة ، بل يجب عليه الالتزام بكل أوامر المجاهدة من امانة شهوات النفس السيئة ، وبقظة القلب بالأخلاق الحية والحميدة ، وقيامه بحقوق الحق تعالى لما فيها من رضاه ، وتباعد أهوائه الخبيثة ومناه ، وهذا ما يوضحه القشيري بقوله : « لا يصح السماع الا لمن كانت نفسه مينة ، وقلبه حيا ، ومن علامة من مانت نفسه زوال آفاته ، وسقوط شهواته ، وقيامه بحقوق ربه ، وما فيه رضاه ، وتباعدة عن حظوظ نفسه ومناه » (٦) .

فالشيطان عند الصوفية هو أساس كل خلق مذموم وكل آفة تدعو المستمع الى الخروج عن حدود السماع ؛ ولذلك يعالج الشيطان بضده وهو التحلى بكارم الأخلاق وحسن الاستماع ، وحماية القلب من وساوس النفس أمر ضرورى ، ذلك لأن الوسواس أدخنة ناتئة من نار النفس الأمارة بالسوء ، ويقضى القلب ويفسده ويجعله يسلك سلوكا غير أخلاقى ، وهذا ما يوضحه السهروردي بقوله : « فمن تملكته الوسواس وغلب على باطنه حديث النفس لا يقدر عن حسن الاستماع » (٧) .

(٥) قطع النزاع وكشف القناع عن دليل جواز السماع : ص ٢٧ .

(٦) الامام القشيري ، سيرته ، آثاره ، مذهبه فى التصوف ، ص ٢٧٧ - ٢٨٨ ، وانظر شرح تائية السلوك الى ملك الملوك ، ص ٩٤ .

(٧) عوارف المعارف ، ص ١٩ ، ٢٠ .

ويستمد الصوفيّة هذه المعاني من الحديث النبوي الشريف « عن أبي الجوازاء قال : قال رسول الله ﷺ : « الا أخبركم بأهل الجنة وأهل النار ؟ »

أهل الجنة من ملئت مسامعه من الثناء الحسن وهو يسمع ، وأهل النار من ملئت مسامعه من الثناء السيئ وهو يسمع » (٨) .

فسماع أهل النار أهل السوء ، أما سماع أهل الجنة فهو سماع أهل الحسن ، والسماع الصحيح لا يتحقق الا اذا تخلص العبد من الشيطان والوساوس الشيطانية وكان قلبه حاضراً بالحق تعالى ، وفي مثل هذه الحالة لا يكون للشيطان أي أثر على القلب وسماعه ، فالنفس والهوى والشيطان أعداء يطالبون فرصة الظفر بالعبد وهما مما يخرج العبد عن حدود السماع ، وهذا ما يوضحه قول الشفرائي بقوله : « الخل في حال السماع لكونه كاذباً في حالة بأن يتحرك صاحب النفس بالشعور والاحساس فيكون مسخرة (١٠) للشيطان وملهاه للوساوس مردوداً عند الله وعند الناس » (١١) .

والسماع الحق أيضاً تأمل دائم في النفس ورعاية كاملة لعدم خروج المريد عن حدود الشريعة ، فيسمع عن طريق التأمل والعمل على تنقية وتصفية سريرته فيقرب من الله ويتعد عن سواه ، فالقلب المتطهر من دنس الهوى يطمئن بكل إشارة وعبرة تشيز الى جمال الحق تعالى ، وهذا ما يوضحه ابن عربي بقوله : « أن الانسان يريد أن لا يسمع شيئاً من نفسه أضلا ولا منها يقول في خاطره لكون ذلك الشيء من هواه وهو غير متحقق في الطريق ، فيكون أبدأ أسيراً لهواه وان سقى في خير ، الا ترى ذا النون كيف قال كل فعل لا يكون عن أثر فهو هوى للنفس » (١٢) .

ويذهب الغزالي الى أن وقع الكلام في نفس المستمع مثل الطعام منه الضار ومنه النافع ، فالسماع الحسن يدعو الى الأخلاق والصفات

(٨) المروزي (عبد الله بن المبارك) : كتاب الزهد والرقائق ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ١٥٤ ، أخرجه ابن ماجه عن طريق مسلم .

(١٠) مسخرة : العوبة في أيدي الشيطان او كالريشة في مهب الريح لا تملك من أمرها شيئاً طالما كان كاذباً في سماعه مدعياً في حاله ، يترك نفسه لوساوس الشيطان .
(١١) د . كوكب غامر : السماع عند الصوفيّة خاصة الغزالي ، مطبعة أخوان رزيق ، القاهرة ، ١٩٨٨ م ، ص ٩٨ ، وانظر عوارف المعارف : ص ١٧٧ .
(١٢) ابن عربي : عوالم النجوم ومطالع أهل الأسرار . مكتبة صبيح ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م ، ص ١٥١ .

الحسنة وما تحتته من راحة في القلب ، وترد الوسواس الشيطانية والهواجس النفسية ؛ ذلك لأن الكلام الطيب قد يلزم الإنسان طوال عمره لا يستطيع أن ينساه ، أما الكلام السيئ فيُتعب صاحبه ويُؤزِد عليه الوسواس ، وهذا ما يجب تزكّه ، وذلك ما يتّضح بقوله : « أن الكلام الذي يقع في قلب الإنسان وسمعه يُنْزِلُ الطعام الذي يقع في جوفه فمِنْه الضرر ، ومنه النافع ، ومنه الغذاء ، ومنه السم ، بل إن بقاء الكلام وتجرعه أكثر وأبلغ من الطعام فإن الطعام يزول عن المعدة بنوم وغيره وزبها يبقى أثره زماناً ويزول وله دواء يزول أثره من جسم الإنسان ، وأما الكلام الذي وقع في قلبه فربما يبقى معه جميع عمره ولا ينساه فإن كان رديئاً فلا يزال يتبعه ويغيبه .. ، ولولا كنت حفظت سمعك عما لا يفنيك كنت عن هذه المؤن مستريحاً » (١٣) .

على الجملة يجب على المستمع اختيار ما يعود عليه بالخير من السماع الأخلاقي الفاضل ، والابتعاد عن السماع السيئ ، فالمستمع الحق هو الذي يبتعد عن كل ما تميل إليه النفس وتهوّه ، والسماع الحسن هو أساس كل خلق وسلوك أخلاقي ، وبدون السماع الحسن لا يصبح المستمع فاضلاً ، وهذا ما يوضحه السكندري بقوله : « أيها العبد ألق سمعك وأنت شهيد يأتك مني المزيد واصنع بسمعك فأنا لست عنك ببعيد ، كنت بتدبير لك قبل أن تكون لنفسك فكُن لنفسك بالاً تكون لها » (١٤) .

وكذلك أوضح الصوفية أن المستمع الذي يزود أو يثقل فيها يسمعه أو يكذب ، فإنه يحرم من حضور مجالس الذكر والسماع ؛ لأن ذلك من مكاره الأخلاق . أما المستمع الحق هو الذي يستمع بصدق وقلب واع لما يسمعه وإخلاص النية في السماع ، وهذا من أهم أداب الأخلاق ، وهذا ما يوضحه أحمد الرفاعي بقوله : « الكاذب يحرم عليه السماع ، ويلزم بعدم الحضور في مجالسه حتى يصدق » (١٥) .

(١٣) الغزالي : منهاج العارفين إلى الجنة ، المطبعة الكاسطية ١٢٨٨ هـ ، ص ٤٧ ، وانظر شمس الدين التستري : مكارم الأخلاق والسياسة ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٥٣ تصوف ، ميكروفيلم ٣٣٤٥٥ ، ٢١ ورقة ، ص ١٥ ، ١٦ .
(١٤) السكندري (ابن عطاء الله) التنوير في أسقاط التدبير وبها مشبه تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس ، المطبعة الميمنية ، ١٣٢١ هـ ، ص ٥٨ ، ٦١ ، وانظر الحقيقة الندية شرح الطريقة الحمدية : ج ٢ ، ص ٤٠٧ .
(١٥) الرفاعي (أحمد) : البرهان المؤيد ، ص ٧٠ : ٧٢ .

ثانيا : السماع ورياضة النفس أخلاقيا :

أخلاق المريد نتيجة مجاهدته لنفسه ، فيقال أن العبد قد تحقق بالسماع اذا رسخ له معنى المسموع ، ورياضة السماع تتضمن فى باطنها قاعدة أخلاقية هامة ، وهى أن يتحقق المستمع بالأخلاق الفاضلة ، وذلك باحلال الصفات والأخلاق الكريمة محل الصفات الذميمة ، ولكى يتحقق للمستمع الكمال الأخلاقى لا بد له من إخلاص النية فى السماع والايثار والقناعة والصدق والاستقامة وحسن الاستماع والصفاء والطاعة والاجابة ويتخلّى عن استماع الغيبة والنميمة والباطل والعجب والرياء وغير ذلك من الأخلاق الرذيلة ، وهذا ما يسمى برياضة النفس من الناحية الأخلاقية . وحول هذا المعنى يقول ابن عربى : « علامة السامعين المحققين فى سماعهم انقيادهم الى كل عمل مقرب الى الله تعالى من جهة سماعه ؛ أعنى من التكاليفات المتوجهة على الأذن من أمر ونهى كسماعه للعلم والذكر والثناء على الحق تعالى والموعظة الحسنة ... ومن علامته أيضاً التصامم عن الغيبة والنميمة والبهتان والسوء من القول كالخوض فى آيات الله تعالى والرفث والجدال وسماع الفتيان ... قال تعالى :

وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ

أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالٌ وَلَكُمْ أَعْمَالٌ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ

لَا تَبْغِ الْجَاهِلِينَ (١٦) (١٧)

ان من أهم رياضات النفس أخلاقياً ، الإخلاص فى السماع وعقد النية على أن هذا السماع من أجل وجه الحق تعالى ، وليس من أجل كسب منفعة بين الناس بل من أجل التحقق بالوجد نتيجة للتأذنه بذكر اسم الحق تعالى ، ويقتضى الإخلاص عند الصوفية أن يفرغ المستمع قلبه عن الكل ، وأن يثق بأن لذة السماع لا تتحقق الا بإخلاص النية فى السماع ، وهذا ما يؤكد عبد القادر الجيلانى بقوله : « أمر المرشدين أن يلذذوا الأسماع بكلمة الإخلاص لأن المحب يلتذ باسم محبوبه حتى يحصل الذّاكر الوجد الذى هو غشيان الروح من استلذاذ الذكر » (١٨) .

(١٦) سورة القصص : آية (٥٥) .

(١٧) مواقع النجوم ومطالع أهل الأسرار والعلوم : ص ٦٨ ، ٧٣ .

(١٨) عبد القادر الجيلانى : آداب المريدن ، المطبعة الرسمية التونسية ، ١٣١٣ هـ .

الطبعة الاولى ، ص ١٦ .

ويعتبر الصدق من أهم المقامات ذات الأهمية الأخلاقية عند الصوفية ، ويعنى عندهم الثبات والاستقرار النفسى وعدم الاضطراب وقت السماع ، فالصدق يذهب ظلمة الشك والريب من قلب المستمع ، وفضيلة الصدق تعمل على نظافة القلب وطهارته من هذه الآفات النفسية المظلمة للمستمع ، فالصدق عكس الشك والريب فى السماع ، أى أن للصدق قيمة أخلاقية ، وهذا ما يوضحه قول عبد الوهاب الشعرانى : « اعلم أن السماع سر من أسرار الله تعالى يظهر فى الصادقين من العشاق ولا يعرفه حق المعرفة الا من ذاق » (١٩) .

إذن فحقيقة السماع عند الصوفية هو صدق الحال فى السماع واعتماد القلب على الحق تعالى فيما يسمع ولا تكون نفسه متعلقة بالشهوات فى هذا السماع الحسن ، فإذا سمع كأنه يسمع من الحق تعالى واليه ، كما أن الصدق فى السماع يعمل على التخلص من العادات السيئة أو السلوك المذموم عن طريق الاكتفاء بالله تعالى فيما يسمع من خلال معرفته بأسماء الله تعالى وصفاته ، ولا يكون قلبه ملوثاً بحب الدنيا وحب الثناء والمحمدة ، ولا يكون فى قلبه طمع فى الناس والتشوق اليهم ، مراعيًا لقلبه حائظاً لحدود الحق تعالى وأمره ، وهذا ما يوضحه قول أحمد بن عطاء الروزبارى (ت ٣٦٩ هـ) : « سر الصادق فى السماع ثلاثة : العلم بالله ، والوفاء بما عليه ، وجمع الهم » (٢٠) .

ويذهب الصوفية أيضاً الى أنه يجب على المريد فى السماع أن يكون صادقاً فى سماعه ، ولا يكون هذا السماع من أجل الاستجابة والالتذاذ لكىلا يصير عادة فيشغله عن عبادته ورعاية قلبه ، ولا يحضر السماع الا فى مواضع يجرى فيها ذكر ما يحثه على المعاملة والطاعة ، فإذا كان كذلك يسمع ما يكون داخلًا فى صفة التائبين والخاشعين والخائفين والراغبين والصادقين ، وهذا ما ذهب اليه أبو العباس الخضر عندما سئل عن السماع ؟ فقال : هو الصفا الزلال لا يثبت عليه الا أقدام العلماء » (٢١) .

(١٩) السماع عند الصوفية خاصة الغزالى : ص ٢١ ، ٧٥ ، وانظر قول الشيخ سعدى فى تاريخ التصوف الاسلامى : ج ٢ ، ص ٥٧٥ ، وانظر قول أبى عثمان الجيرى فى الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٧٤ ، وانظر اللمع : ص ٣٤٩ ، وانظر الرسالة القشيرية فى علم التصوف : ص ٢٦٦ ، والرسالة القشيرية تحقيق عبد الحليم محمود : ج ٢ ، ص ٦٤٨ ، وانظر الامام القشيرى ، سيرته ، آثاره ، مذهبه فى التصوف : ص ٢٢٩ ، وانظر الفجر المنير : ص ٧٧٩ ، وانظر قول أبى حيان التوحيدى : الاشارات الالهية ، تحقيق وداد القاضى ، دار الثقافة ببيروت ، ١٩٧٣ ، ج ١ ، ص ٦٧ .
(٢٠) طبقات الصوفية : ص ٥٠٠ طبعة الخانجى ، ١٩٥٢ .
(٢١) عوارف المعارف : ص ١٥٦ ، وانظر آداب المريدين ، ص ٤٧ .

فالصدق إذن هو صفاء الظاهر من شهود المحسوسات والأشياء
وقت السماع ، بل يشهدها نورا ظاهراً ، وكذلك هو صفاء الضمير ،
وعندما يفنى المستمع كل الأمور الغيرية المحدثّة في باطنه يبقى بالحق
تعالى ، ومن ثم فالسماع يقوم على الصفاء النفسى الذى هو أساس
الصدق .

وكذلك استقامة الظاهر والباطن مبدأ لا بد من توافره في كل مقام
رجال عند الصوفية ، أى فراغ القلب من استماع الخبائث في الظاهر
والباطن ، فان كفر المستمع بهذه النعمة بأن تابع حظوظ نفسه
وشهواتها وأهواءها في السماع شوش الله عليه قلبه وسلبه ما كان
يجده من صفاء قلبه ؛ ذلك لأن حظوظ النفس تنفى صفاء القلب
وطمأنينته وورقته ، وتجعل القلب لا يألف الطاعة والأخلاق الحميدة
الا تكلفاً ، وهذا ما يوضحه ابن مسروق (ت ٢٩٩ هـ) : « لا ينبغي
للفقير سماع التغزلات الا أن كان مستقيماً في الظاهر والباطن قوى
الحال ، إما ما في العلم وإما أمثالنا فلا يليق بنا سماعها لأن قلوبنا أم
تألف الطاعات الا تكلفاً (٢٢) .

كما أن أهل الاستقامة من العارفين هم الذين يورد الحق تعالى
عليهم الوارد الالهى فيبعث هذا الوارد حال حركة أو سكون دون إرادة
من جانبهم ، وهم في أعلى درجة من درجات السماع ، وهذا ما يوضحه
أبو عثمان الحيرى بقوله : « القسم الثالث : سماع أهل الاستقامة
من العارفين فهؤلاء لا يختارون على الله فيما ينزله على قلوبهم من
الحركة والسكون » (٢٣) .

وأهل الاستقامة من العارفين هم طبقة خواص الخواص وهى أعلى
درجة من درجات السماع التى يصل خلالها المريد الى مرحلة الكشف
الالهى ، ومن آفات السلوك التى تعكر صفو السماع أيضاً طول
الاستماع الى الباطل ، وقد أمر الحق تعالى المريد أن يستعيز من
شور الاستماع الى الباطل ، وأن يتعلم حسن الاستماع ، كما يتعلم
حسن الكلام ؛ ذلك لأن المستمع شريك القائل ، وأن يكف سمعه عن
الاصغاء والانتباه الى صاحب بدعة أو مكروه ، وأن يستمع وينصت لما

(٢٢) الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٨٠ .

(٢٣) الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٧٤ ، وانظر الرسالة القشيرية ، ج ٢ ،
ص ٦٤٨ ، وانظر اللمع : ص ٣٤٩ ، وانظر الفجر النير ، ص ٧٩ ، وانظر أيضاً الامام
القشيرى ، سيرته ، آثاره ، مذهب فى التصوف : ص ٢٢٩ .

فيه الخير له وللمجتمع ، وهذا ما يوضحه أحمد الرفاعي بقوله :
« لا تعظ أذنك طريق السير الى السماع الكذب والزور وغش
الكلام (٢٤) » .

فالسماع عند الصوفية له أيضاً قيمة أخلاقية عظيمة من حيث انه
يدعو السالك الى ترك سماع السوء وكذلك الفناء عن سماع الغيبة
والنميمة والفحش وكل ما يثير الشهوة والأفعال السيئة التي تعارض
تعاليم المجتمع وتقاليده ، وهذا السماع السيء يطفئ حلاوة الطاعة
في القلب المؤمن الخاشع لربه ، ومن أجل ذلك لابد لهذا السالك من
البعد عن السماع الباطل ، وهذا ما يوضحه قول عبد الله بن خبيق
الموصلى : « طول الاستماع الى الباطل يطفئ حلاوة الطاعة من
القلب ، ومن أراد أن يعيش هنيئاً في حياته فليزل الطمع عن
القلب » (٢٥) .

اذن فرياضة النفس أخلاقياً تجعل شخصية المستمع شخصية
سوية خالية من الأحقاد ، تتعامل مع الآخرين بنفس طاهرة من خلال
ترك الاستماع الى الخبائث وتنزيه اللسان عن النطق بها وغير ذلك
من الأخلاق الكريمة الفاضلة التي يرضاها الدين والمجتمع والبعد عن
رذائل الأخلاق ، فالرياضة الأخلاقية قاعدة أساسية لكل مستمع للحق ،
وهي المطهر العملي للنفس من كل أهناسها وشوائبها التي تعكر صفو
الاستماع الى الحق ، وهذا ما يوضحه قول بعضهم :

سمعت صن عن سماع القبيح كصون اللسان عن النطق به
فإنك عن سماع الخناس شريك لقائله فانتبه » (٢٦)

(٢٤) أحمد الرفاعي : النظام الخاص لأهل الاختصاص ، المطبعة العلمية ن
١٣١٣ هـ ، الطبعة الأولى ، ص ٨ ، وانظر قول الشعراي في لطائف المنين والأخلاق :
ج ١ ، ص ١٦ .
(٢٥) الكواكب الدرية ، ج ١ ، ص ٢٥٤ ، وانظر طبقات الصوفية ، ص ١٤٥ ،
وانظر أيضاً قول سفيان الثوري في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : ج ٧ .
ص ٢٦ .

(٢٦) أبي بكر البيناني : اتحاف أهل العناية الربانية في اتخاذ طريق أهل الله وان
تعددت مظاهره الحقائنية ، المطبعة العامرة ، الشرقية ١٣٢٤ هـ ، ص ٦٢ ، وانظر أبي
الحسن البصري الماوردي : أدب الدنيا والدين ، المطبعة الأميرية ١٣٤١ هـ - ١٩٢٣ م .
ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، وانظر ابن قتيبة الدينوري : عيون الأخبار ، مطبعة دار الكتب
المصرية ، ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨ م ، ج ٢ ، ص ١٤ ، الطبعة الأولى ، وانظر محمد بهاء الدين
العاملي : الكشكول ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٢ م ، ج ٢ ، ص ١١٠ ، وانظر منهاج
العابدين الى الجنة ، ص ٤٧ ، وانظر الكواكب الدرية : ج ١ ، ص ١٤٤ ، وانظر مختصر
منهاج القاصدين : ص ١٧١ ، ١٧٢ ، وانظر مخطوط آداب المريدين : ص ٢١ ، وانظر العقد
الغريد : ج ٢ ، ص ٢٩٩ ، وانظر قول الشافعي في حلية الأولياء ، وطبقات الأصفياء :
ج ٩ ، ص ١٢٣ .

ومن ثم فسماع الكلام الخبيث فيه الخروج عن حدود السماع ،
أما السماع الحسن فهو سماع الكلام الطيب الذى تلتذ النفس بسماعه ،
وكما أن اللسان يصم عن النطق بالكلام السيئ فإنه يجب أيضاً على
حاسة السماع التصامم عن سماع السوء ؛ ذلك لأن المستمع للسوء مثل
القاتل به ، وهذا ما يوضحه القول السابق .

إذن ، لا صفاء للنفس الا بمجاهدة البدن بالجوع والسكر ، بالإضافة
الى رياضة أخرى هى الصمت عن الكلام ، وذلك لا يعنى حبس اللسان
عن الكلام ولكن الحرص فى القول وعدم البوح بالسر ، لذلك يفضل
الصوفية الصمت فيما عدا ذكر الحق تعالى ، والصمت عند الصوفية
هو صمت القلب واللسان عن الكلام ، وكلام القلب هو الخواطر
والأسرار والواردات الالهية ، ولذلك يقول الجريدى : « مكثت عشرين
سنة لا يخطر لى ذكر الطعام حتى يحضر ، ومكثت عشرين سنة أصلى
الفجر على طهور العشاء .. ومكثت عشرين سنة لا يسمع لسانى الا من
قلبى ، ثم حالت الحال ، فمكثت عشرين سنة لا يسمع قلبى الا من
لسانى » (٢٧) .

ومعنى قوله لا يسمع لسانى الا من قلبى أى لا أقول الا الحقيقة
التي أنا عليها ، وقوله لا يسمع قلبى الا من لسانى ، أى حفظ وصمت
اللسان عن القبائح ، لذا قال الحق تعالى فى حديث قدسى « ما زال
عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى
يسمع به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع
وبى يبصر وبى ينطق » (٢٨) .

كما ذهب الصوفية الى تفضيل الصمت والاستماع عن كثرة الكلام ،
ذلك لأن الصمت له أهمية أخلاقية هى عدم الميل الى التفاخر أو المدح
والثناء أو حب الظهور والاعجاب ، وذلك آفات غير أخلاقية لا يرضاها
المجتمع ، وكذلك يكره سماع المدح والثناء ، لأن فى ذلك نوعاً من التملق
وهو- أيضاً مكروه وفضول ، وهذا ما يوضح ابن عربى بقوله : « فأما

(٢٧) التعرف لمذهب أهل التصوف : ص ١٤٩ ، وانظر الرسالة القشيرية فى علم
التصوف : ج ١ ، ص ١٠٠ ، وانظر قول المحاسبى فى الكواكب الدرية : ج ١ ، ص ٢١٩ ،
وانظر أيضاً قول حذيفة المرعى فى صفة الصفوة ، دار الكتب المصرية ، ١٣٩٤ هـ ،
ج ٤ ، ص ٢٦٣ .

(٢٨) اللمع : ص ٨٨ ، أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الرقاق الصحة والفراغ
ولا عيش الا عيش الآخرة ، باب التواضع ، ج ١١ ، ص ٢٨٩ - ٢٨٨ .

محبته سماع المدح مواجهة فذلك غير مستحب لأنه من جنس التملق وحب التملق مكروه لأنه من قبيل الخديعة » (٢٩) .

ويقول في نفس المعنى السابق أيضاً يزيد بن حبيب : « ان من فتنة العالم الفقيه أن يكون الكلام أحب اليه من الاستماع وان وجد من يكفيه ، فإن في الاستماع سلامة ، وزيادة في العلم » (٣٠) .

فالصوفية ترى أن في الاستماع السلامة من وساوس النفس ، من خلال الاستماع الى الكلام الطيب الطاهر وسماع العلم والحكمة ، وهذا ما ذهب اليه يزيد بن حبيب ، كما اعتبر الصوفية أن سماع الكل من القوم هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وهو سماع القرآن الكريم والكلام الطيب ، والكلام الطيب هو كلام الفضيلة والأخلاق الحميدة التي يستلذ بها المريد ، وعندما يستلذ المريد ما يسمع يجب عليه أن يفرق بين معاني المسموع الحسن والمسموع السيئ وأن يستزيد ويشبع روحه بأفضل معاني المسموع الحسن ، وذلك من باب الأخلاق الحميدة ، وهذا ما ذهب اليه الصوفية وكذلك أرسطوطاليس بقوله : « لأن المحسن اليه دون المحسن ويجب أن يفضل ، وهو يستلذ سماع الفضيلة ويستبشع سماع ما أفضل به عليه » (٣١) .

وخلاصة القول ان السماع هو هداية الناس الى ما كان عليه رسول الله ﷺ من أخلاق وأحوال وأفعال ، ومن هنا يمكن أن نتخذ من السماع علاجاً لما نشكو منه من آفات وأثام غير أخلاقية تعكر صفو الحياة ونقاءها ، من خلال الالتزام بأداب السماع والانصات ، وقلة الكلام وحسن الظن وسلامة الصدر من هذه الآفات ، وهذا ما يوضحه أحد الصوفية : « السماع هو اظهار الخشوع ودوام وسلامة الصدر وحسن

(٢٩) رسالة تهذيب الأخلاق : ص ١٥٦ ، وانظر كتاب الزهد والرقائق : ص ١٦ ، وانظر كتاب الاخلاق : ص ٣٠ .

(٣٠) عبد الوهاب الشعراني : تنبيه المغترين وبهامشه الكشف والتبيين ، المطبعة المحمودية ، ١٣١٥ هـ ، ص ٥٧ ، وانظر أيضاً عبد القادر الطرابلسي : احياء القلوب ، المطبعة العلمية ، ١٣١٥ هـ ، ص ٢٦٧ .

(٣١) أرسطوطاليس : الأخلاق ، ترجمة اسحق حنين ، تحقيق د / عبد الرحمن بدوي وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٨٢ م ، ص ١٥٧ ، وانظر عوارف المعارف : ص ٢٧ ، وانظر قول حكيم في ، محمد الغزالي : التبر المسبوك في نصائح الملوك ، دار الكتب ، ١٢٧٧ هـ ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ . وانظر محمد الطرطوشي : التبر المسبوك هامش على سراج الملوك ، المطبعة الخيرية ، ١٣٠٦ هـ ، ص ٩١ ، ١٣٣ .

الظن واعتقاد القول ودوام السكوت وقلة القلب وجمع الهم وترك
التهمة » (٣٢) .

من ذلك يتضح لنا أهمية الرياضات العلمية من الناحية الأخلاقية ،
خاصة السماع الحسن ، أما السماع غير الأخلاقي فإنه يورث الآفات
النفسية غير الأخلاقية مثل النفاق والعناد والكذب والفجور ، وهذا
ما يوضحه قول بعض العارفين : « السماع يورث النفاق في قوم ،
والعناد في قوم ، والكذب في قوم ، والفجور في قوم ، والرعون في
قوم » (٣٣) .

ثالثا : السماع وآداب السلوك :

أقام الصوفية للسماع آداباً وأوجبوا الالتزام بها في مجالسهم ، كما
اتضح من البحث أيضاً أن أصحاب الطريق يراعون في السماع تلك
الآداب ويحترمونها بل ويجلونها ، وقد وضع لها الصوفية قواعد
وأصولاً منها ما يتخلق به السامع أخلاقياً ، ومنها ما يخص موضوع
السماع ، ومنها ما يشترطون توافرها في مجلس السماع ؛ ومن بين هذه
الآداب مراعاة المكان الذي تجرى فيه جلسة السماع ، بمعنى أن لا يكون
السماع في شارع مزدحم أو في مكان مطروق بل يتم السماع في زاوية
مخصصة لذلك ، ولا يدخل فيها من ليس من أهل الطريق . أما المنكرون
ومدعو الزهد من أهل الدنيا فإنهم يستبعدون من هذه المجالس
لما يسببونه من أضرار ومتاعب ، وهذا ما يوضحه ابن عربي بقوله :
« تجرى جلسة السماع في زاوية ولا يدخل فيها من ليس له شيخ » (٣٤) .

وإذا كان الصوفية يشترطون للسماع مراعاة المكان فإنهم يشترطون
أيضاً مراعاة الزمان بمعنى أن لا يتم السماع وقت الصلاة ، أو وقت
حضور الطعام أو وقت النوم أو أى وقت يكون انتباه المريد فيه مشغولاً
بشغل يجذب انتباهه ويبعده عن الانتصات والانتباه للسماع ، أى عدم
حضور القلب وقت السماع ، وكذلك يجب مراعاة الصحة والإخوان
المشاركين في السماع ، فلا يكونوا من المدعين للزهد والمنكرين للطريق ،

(٣٢) أبى حامد الغزالي : رسالة الادب في الدين ، مطبعة كردستان العلمية
١٩٥٠ ، ص ٧٠ ، وانظر الغزالي : المنقذ من الضلال ومعه كمياء السعادة والقواعد
العشر والادب في الدين بقلم أنيس منصور ، مكتبة الجندی ، ١٩٧٣ ، ص ١٥٧ ، وانظر
أيضاً العقود والآلاء من رسائل الامام الغزالي ، المطبعة المحمودية عام ١٩٣٩ ،
ص ٧ .

(٣٣) حكم الاسلام في الغناء : ص ٣٨ .

(٣٤) مواقع النجوم : ص ١٦٥ ، وانظر السماع عند الصوفية وخاصة الغزالي .

ص ٩٥ .

وهذا ما يوضحه الغزالي حينما يورد قول الجنيد : « السماع يحتاج الى ثلاثة اشياء والا فلا تسمع : الزمان ، والمكان ، والاخوان ومعناه ان الاشتغال به في وقت حضور الطعام أو خصام أو صلاة أو صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه » (٣٥) .

كما ان من آداب الصوفية في مجالس السماع أيضاً وجود الشيخ الذي يرشد المريء الى طريق الصواب ويهديه الى الصراط المستقيم حتى لا يفرق في مذلة هوى النفس عند دخوله هذا المقام ، كما ان هذا المريء يقوم بخدمة الاخوان وأعمال النظافة ، وغير ذلك من الأعمال الأخرى التي تناسب مقامه ، وهذا ما يوضحه ابن عربي بقوله : « هو مزلّة قدم لمن لا تحصيل له ولا شيخ يرشده ، وكثير من أهل زماننا زلت به قدم الغرور في مهواة من التلف عند دخولهم في هذا المقام » (٣٦) .

كما يذهب الصوفية الى ان من آداب مجالس السماع أيضاً ترك الغيبة والنميمة ؛ ذلك لأن من باب الأدب أن يسمع المرء أبياتاً أو حديثاً من رجل صالح فتتهيج له مشاعره حزناً وبكاء على انقطاعه عن باب مولاه فيستيقظ بذلك من الغفلة في أمر دينه ودنياه ، وهذا ما يوضحه النصر بأدى : « حيث كان كثير الولع بالسماع فعوتب في ذلك فقال : نعم هو خير من أن نقعد ونغتاب ، فقال له أبو عمرو بن نجاد وغيره من اخوانه : هيهات يا أبا القاسم زلة في السماع شر من كذا وكذا سنة نغتاب الناس » (٣٧) .

فلقد كان حسن الاستماع من أهم دعائم المذهب الأخلاقي الصوفي ، فالسماع الحسن الذي فيه صالح الفرد في الدنيا والآخرة خير من أن يجلس ويغتاب وينم الناس ، وهذا ما توضحه الأقوال السابقة .

(٣٥) احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٣٨٥ ، وانظر الرسالة القشيرية ، ص ٢٦٥ ، وانظر اللمع : ص ٣٤٢ ، وانظر التصوف الاسلامي الخالص : ص ٧٦ ، وانظر الدكتور حسن محمد الشرقاوي : ألفاظ الصوفية ومعانيها ، دار الكتب ، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م ص ١٩٩ .

(٣٦) مراقع النجوم ومطالع أهل الأسرار : ص ١٥١ .
(٣٧) عوارف المعارف : ص ١٦٨ ، ٣٠٠ ، وانظر تاريخ التصوف الاسلامي - ج ٢ ، ص ٥٧١ ، وانظر مخطوط آداب المريدين ، ص ٤٧ ، وانظر التنوير في اسقاط التدبير ، ص ٢٨ ، ٥٢ ، وانظر مخطوط فتح الاسماع في شرح السماع : ص ٧٣ : ٨١ ، وانظر كفاية الاتقياء ومنهاج الاصفياء ، ص ١٧ ، وانظر ابن سبيل الباهلي : النخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الاخلاق ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥ م ، ص ٧٨ ، وانظر قواعد التصوف : ص ٨٤ ، وانظر أيضاً الفتوحات الالهية : ج ٢ ، ص ٢٧٨ .

كذلك ينصح الصوفية المريد أيضاً بترك التكلف في السماع ، والتكلف هو ادعاء حال أو مقام ليس عليه صاحبه ، والتكلف يكون على ضربين : ضرب يتعلق بنفس المستمع وقلبه الملوث بحب الدنيا يستمتع تكلفاً لطلب جاه أو منفعة دنيوية من مال أو طعام أو ثياب ، وذلك مذموم لما فيه من التلبس على العامة ، وضرب ثان محمود وهو التكلف في السماع من أجل استدعاء الوجد والتبأكي ، وهو طلب حقيقة السماع كمن يطلب الوجد بالتواجد ، وهذا ما يوضحه قول السهروردي عندما سئل عن التكلف في السماع فقال : « هو على ضربين تكلفه من المستمع لطلب الجاه أو منفعة دنيوية وذلك تلبس وخيانة وتكلف منه لطلب الحقيقة كمن يطلب الوجد بمنزلة القواجد وهو بمنزلة التبأكي من البكا » (٣٨) .

والتكلف عند الصوفية كما سبق توضيحه ، مظهر من مظاهر الرياء وطلب السمعة ، وهذا ما يحذر منه أرباب القلوب الواعية ، وربما يصبح التكلف عادة ، فيكون ذلك غلظة للقلب وظلمة ، ويقول في نفس المعنى السابق أيضاً عبد القادر الجيلاني : « من ذلك أن لا يتكلفون السماع ولا يستقبلوه بالاختيار فإذا أنفق السماع فمن حق المستمع أن يقعد بشرط الأدب ذاكراً لربه بقلبه مشغلاً بحفظ قلبه من طوارق الغفلة والنسيان » (٣٩) .

وبذلك يكون من أهم آداب السماع أن يكون السامع صادقاً مع نفسه ومع الحق تعالى بعيداً عن التكلف والرياء والغرور وأن يكون متواضعاً في سماعه متفهماً لمعاني المسموع حريصاً على تنفيذها والالتزام بها في حدود الشرع وتعاليمه .

وكذلك يذهب الصوفية الى أن من أهم الآداب الأخلاقية التي يجب على المريد الالتزام بها أيضاً هو أن يتعلم آداب السماع على يد شيخ يرشده ويؤدبه بآدابه من حسن الانصات ، وقلة الكلام ، وعدم الحركة ، والاهتزاز ، إلا إذا كان ذلك نتيجة لوارد قوى ، وعدم التكلف في السماع ، وكذلك يكره الصوفية حضور الصبية والفتيات مجالس السماع حتى لا يفتروا بالسماع فتثار فيهم الشهوة والهوى ، وإنما يحضره من أراد

(٣٨) آداب المريدين : ص ٤٩ ، وانظر عوارف المعارف : ص ١٨٥ ، وانظر مخطوطة رسالة في السماع والتواجد : ص ٤ ، وانظر أيضاً المنقذ من الضلال ومعناه كيمياء السعادة والقواعد العشر والآداب في الدين : ص ١٥٢ .
(٣٩) الغنية لطالب طريق الحق : ج ٢ ، ص ١٦٧ ، وانظر آداب المريدين ، ص ٤٩ ، وانظر أيضاً للمع : ص ٢٤٧ .

قمع نفسه وإبعادها عن مجالس الشرب والفساد ، وهذا ما يوضحه
العديد من أقوال الصوفية منها قول السهروردي : « ضرورة أن يتعلم
المريد آداب السماع على يد شيخ يقصده ليؤديه فيه وأنه يكره للشبان
القيام في حضرة المشايخ وأظهار الحال ، وأنه لا رخصة للأحداث في
القيام والتحرك ، وأن أكثر المشايخ يكرهون حضورهم مجلس
السماع .. » (٤٠) .

وكذلك يقول ابن عطاء الله السكندري في القول السابق : « إنما
أمروا في حال السماع بغلاق الباب لئلا يحضر معهم من يجتنب حضوره من
الأحداث والعوام والنساء وغير ذلك مما لا يليق حضوره ، لأن مجلس
السماع إذا كان ريانيا فهو كمجلس الذكر والمذاكرة ومجلس الذكر
والمذاكرة ، غذاء الأرواح ورضاع القلوب » (٤١) .

فالصوفية يذهبون الى أن مجالس السماع إذا توافرت فيها مبادئ
العمل الأخلاقي والديني والبعد عما يتطلبه مجالس الشرب كان هذا
المجلس أشبه بمجلس الذكر والعلم ، وكلاهما غذاء للروح والقلب .

وإذا كان الصوفية يمنعون الأحداث (صغار السن) من حضور
مجالس السماع خوفا عليهم من إثارة الشهوة والانحلال والانحراف
الاجتماعي ، فان هذا يتفق مع ما قاله أفلاطون (من أن مذاهبنا التربوية
الحديثة .. تطالب بفرض نوع من الرقابة على ما يلقي على مسامع
الطفل من أقاصيص حتى لا تنمو في نفسه روح الخرافة اللا علمية أو
اجاسيس الرعب أو مبادئ الانحلال » (٤٢) .

مما سبق يتضح لنا أن السماع له تأثير على شخصية وتكوين
الفرد ، فشخصية الفرد تتوقف على ما يتلقاه من مسامع وأحاديث خلال

(٤٠) السماع عند صوفية الاسلام : ص ١١٧ ، وانظر الامتاع بأحكام السماع قول
القرطبي : ص ٢٩ وانظر قول ابن عربي في مخطوطة شمس الطريقة ، بدون ترقيم ،
رقم ٩٦ مجاميع ، ميكروفيلم ٣٠٣٥٥ ، ١٨ ورقة ، وانظر عبد الغني النابلسي في الحديقة
النديّة شرح الطريقة المحمدية : ص ٢٤١١ ، وانظر أيضا ابن عربي حياته ومذهبه :
ص ١٧٦ ، ١٨٠ .

(٤١) الفتوحات الالهية في شرح المباحث الاصلية : ج ٢ ، ص ٢٨٨ ، وانظر قول
عبد الله بن خبيق : ج ٢ ، ص ٢٨٠ ، وانظر شرح تائبة السلوك الى ملك الملوك :
ص ٩٤ ، ٩٥ ، وانظر أيضا قواعد التصوف : ص ٨٦ .
(٤٢) أفلاطون : الجمهورية ، ترجمة ودراسة د. فؤاد زكريا ، دار الكتب ، ١٩٧٤ ،
ص ١٢٢ .

مراحل نموه المختلفة ، وذلك يرجع الى معانى المسموع وتفهمه لها ؛
لذلك فالصوفية وضعت العديد من الآداب والمبادئ فى مجالس السماع
وتطالب بفرض نوع من الرقابة على كل ما يلقى على مسامع المريد ،
حتى لا تنمو فى نفسه روح اللامبالاة بما يسمعه او اللا علمية بذلك ، وهذا
يتفق مع ما ذهب اليه فلاسفة اليونان مثل افلاطون وغيره .

ويذهب الصوفية أيضاً الى أنه يجب على المريد عدم الايضاح
والتحدث عن الحال الذى هو فيه حتى لا يحرمه الحق من نعمة الوصول
الى ذلك الحال ، وهذا ما يوضحه أبو عمر الزجاجى (ت ٣٤٨ هـ) بقوله :
« من تكلم على حال لم يصل اليه ، كان كلامه فتنة لمن يسمعه ، ودعوى
تتولد فى قلبه ، وحرمة الله الوصول الى ذلك الحال وبلوغه » (٤٣) .

كما ان السماع عند الصوفية أداة للترغيب عن نفس المستمع
واستجمام من تعب الوقت ؛ ذلك لأن الحياة اذ لم يكن فيها فترة ترفيه
من وقت لآخر لا تستمر هذه الحياة ، بل تكون حياة جافة ليس لها معنى ،
وهذا ما يوضحه الكلاباذى بقوله : « السماع : استجمام من تعب
الوقت ، وتنفس لأرباب الأحوال واستحضار الأسرار لذوى
الأشغال » (٤٤) .

وإذا كان الصوفية قد ربطوا بين السماع والوقت فان هذا يتفق مع
ما ذهب اليه ابن سينا من ضرورة وجود الزمان الذى يحدث فيه
السمع ، وذلك عكس البصر الذى لا يحتاج الى الزمان : « وكما ان
البصر يستبق السمع فانه اذا اتفق أن فرغ انسان من بعد جسما ما على
جسم ، رأيت الفرع قبل أن تسمع الصوت ، لأن الابصار ليس فى زمان ،
والاستماع يحتاج الى أن يتأدى تموج الهواء الكائن الى السمع
وذلك فى زمان » (٤٥) .

وكذلك يذهب الصوفية الى أن من بين الآداب أيضاً أن يكون السامع
منتبها كل الانتباه الى ما يسمع من القوال مصفيا فى هدوء وسكينة
حاضر القلب ، مطرق الرأس متماسكا الا اذا غلب عليه الوجد **هون**
اختياره ، وأن يلزم الصمت والصدق وعدم الرياء فى حركاته ، وهذا
ما يوضحه الغزالى بقوله : « ليكن مجلسك هادئاً وحديثك منظوماً
مرتباً ، واصنع الى الكلام الحسن ممن حدثك من غير اظهار تعجب

(٤٣) طبقات الصوفية : ص ٤٣٢ .

(٤٤) التعرف لمذهب أهل التصوف : ص ١٩٠ .

(٤٥) ١٩٠ د / محمد عاطف العراقى : مذاهب فلاسفة المشرق ، ص ١٢٧ .

مفرط ، ولا تسأله أعادته ، واسكت عند المضاحك والحكايات ،
ولا تحدث عن أعجابك بولدك وشعرك وكلامك وتصنيفك وسائر
ما يخصك « (٤٦) » .

ولا ريب أن من جوز السماع من الصوفية يجمعون على حضور
القلب في السماع وعدم الغفلة والانشغال بأى شاغل من داخل نفسه
أو من الخارج ، بل يجب عليه اليقظة وحضور القلب في السماع ،
وحضور القلب هو التفهم لمعاني المسموع والعمل به ، وهذا ما يوضحه
ابن عربى بقوله : « ان السمع لا يحضر الا مع الحضور أعنى حضور
القلب ، قال الله تعالى :

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ
(٤٧) (٤٨)

ان السماع فى حد ذاته ليس من الأمور الضرورية عند الصوفية ،
إذا لم يلزم هذا السماع عمل وطاعة وإتابة ، فالسماع بدون تحقيق
وتنفيذ لما يسمع من أحاديث مجالس علم وحكمة مثل مجهود يبذل بدون
فائدة من هذا المجهود ، فكذلك السماع الصحيح يصبح صالحا عندما
يحقق ويجيب كل ما يسمع ، ولهذا شمل الكتاب المقدس العديد من
الآيات التى تربط بين السمع والطاعة ، اذ انه لا يمكن الطاعة لأوامر
الحق تعالى ونواهيه بدون السمع والمعرفة بها ، وكذلك لا يصبح
السماع له قيمة بدون الطاعة والعمل والإتابة ، وهذا ما تشمله العديد
من الآيات الكريمة ، اذ يقول الحق تعالى :

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ
وَأُولَئِكَ يَرْجِعُهُمُ اللَّهُ إِلَىٰ مَا يَرْجِعُونَ ۖ (٤٩)

(٤٦) بداية الهداية : ص ٤٦ ، وانظر قول السلمى فى الفتوحات الالهية : ج ٢ ،

ص ٢٨٠ .

(٤٧) سورة ق : آية (٢٧) .

(٤٨) مواقع النجوم : ص ٦٧ .

(٤٩) سورة الأنعام : آية (٣٦) .

ويقول الحق مخاطباً الكافرين :

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ
الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرُ سَمْعٍ
وَرَعَيْنَا لَئِنِ ابْتَلَيْتَنَاهُمْ وَطَعْنَا فِي آلِهِمُ لَوَلَّا أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَئِن لَّا نَعْتَهُمُ اللَّهُ لَيَكْفُرَنَّ بِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٥٠)

ويقول أيضا

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ
إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

(٥١)

• وكذلك العديد من الآيات الكريمة •

وإذا كان الصوفية ينصحون المريد بحسن الاستماع فانهم ذهبوا
أيضا الى أن ترك السماع وعدم العمل بما يسمع من باب الجهل ،
أما العلم فينشأ ويعرف من خلال السمع والمشاهدة ، أى أن الصوفية تدب
جعلوا السمع خطوة من خطوات المنهج العلمى السليم ، كما ذهبوا أيضا
الى أن السمع أداة من أدوات التعلم والعمل بما يسمع على أساس
منهج علمى سليم ، فالسمع والعلم وجهان لعملة واحدة ، فلا يمكن
الاستغناء بأحدهما عن الآخر ، اذ لا يصح السماع بدون العلم بما يسمع
والمعرفة به ، وكذلك لا يمكن معرفة المعلومات بدون السماع ، وهذا ما
توضحه العديد من الأقوال الصوفية ، اذ ينصح الأوزاعى مريده بقوله :
« فلا تجهلن ، قال : وكيف أجهل ؟ قال : تسمع ولا تعمل بما تسمع (٥٢)
ويقول أيضا فى نفس المعنى السابق الحارث المحاسبى (ت ٢٤٣ هـ) :
« اذا لم تسمع نداء الله فكيف تجيب دعاءه ومن استغنى بشئ دون الله
جهل قدره » (٥٣) •

(٥٠) سورة القساء : آية (٤٦) •

(٥١) سورة المائدة • آية (٧) •

(٥٢) التصوف الاسلامى فى الاداب والاخلاق : ج ٢ ، ص ١٢٠ •

(٥٣) الكواكب الدرية : ج ١ ، ص ٢١٩ ، وانظر د / عبد الحليم محمود : استاذ
السائرين الحارث بن أسد المحاسبى ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٣ م ، ص ٧ ، وانظر
د عبد الحليم محمود : التصوف الاسلامى شخصيات ونصوص ، دار الشروق للطباعة ،
ص ٩ ، وانظر المحاسبى : المسائل فى أعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل ،
تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، مطبعة عالم الكتب ، ١٩٦٩ م الطبعة الاولى ، ص ٦٦ •

كما يذهب الصوفية الى أن سماع الحكمة ومجالس العلم فيه كمال المرید من الناحية الأخلاقية ، أما إذا ترك هذا السماع فهو مُنافق لا يتصف بالكمال الأخلاقي الذي هو غاية الحياة الصوفية ، فالهداية الى الطريق المستقيم فيما يرى الصوفية من باب العلم والطاعة لما يسمع ، اذ يقول ابن أبى سفيان : « من سمع بأذنه حكى ، ومن سمع بقلبه وعى ، ومن عمل بما يسمع هدى واهتدى » (٥٤) .

هكذا ذهب الصوفية الى أن سماع الكمل من القوم هو السماع الربانى ، الذى يلتزم فيه أصحابه بالصمت والاصغاء بالاضافة الى السرية فى السماع وعدم الافشاء لما يورد عليهم من واردات وبوارق إلهية ، وهذا ما يوضحه قول أبى عبد الله الصبيحى : « السماع بالتصريح جفاء ، والسماع بالاشارة تكلف ، والطف السماع ما يشكل الا على مستمعه » (٥٥) .

لقد أوضح الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى أن الصوفية استخدموا الرمزية فى التعبير عن معانى المسموع المعبر عنها فى صورة اشتغال القلب به فهذا مباح ، وهذا ما يوضحه ابن عجيبة الحسنى حركات أو اهتزازات ، وهذه الرموز تبدد الشهوة وتوقظ مشاعر السامعين بمعنى الكلمات المسموعة ولا يكون ذلك الا لأهل الذوق والاحساس المرفه ، وهذا ما يؤكد به بقوله : « ولا ينبغي النظر الى اصطلاحات الصوفية أو رموزهم على أنها مجرد ألفاظ ، بل هى تدل على المعانى التى وضعت لها فى حالة حركية ، وتصور اتجاه الانفعالات والأفكار التى تعتلج بها نفس المعصوف تصويرا حيا ، فهى بمثابة أدوات توقظ مشاعر سامعيها بمعنى الكلمة بشرط أن يكونوا من أهل الذوق » (٥٦) .

كما يوضح الصوفية أنه لا يصح للمرید أن يلهى أو يبتسم فى السماع ، فمن يسمع لأجل التذاذ فسماعه هذا يشغله عن القيام بالعبادة ولا يؤدى به الى الوجد ، أى أن التلاهى من سوء الأدب فى السماع ، أما اذا كان هذا التلاهى والتبسم من أجل الترويح عن النفس فقط وعدم اشتغال القلب به فهذا مباح ، وهذا ما يوضحه ابن عجيبة الحسنى بقوله : « وأما التبسم فيه فان فيه اساءة الأدب فان غلبه خرج والا أخرج

(٥٤) طبقات الصوفية : ص ٤٢١ ، وانظر قول أبى على بن الكاتب نفس المرجع

ص ٣٨٧ .

(٥٥) طبقات الصوفية : ص ٣٢٩ .

(٥٦) مدخل الى التصوف الاسلامى : ص ١٣٩ .

وزجر ، قال السالمى رحمه الله « ولا يحضر مجلس السماع من يتبسم أو يتلاهى » (٥٧) .

هكذا وضع الصوفية كثيراً من الآداب التى لا بد للمريد من الالتزام بها ، وكذلك آداب خاصة بزمان ووقت مجلس السماع ، فانهم اشترطوا أيضاً بعض الآداب الخاصة بالقوال ؛ منها أن يكون حسن الصوت ، وذلك لأن الروح لا تستلذ الا بسماع الصوت الطيب ، لذلك ذم الحق تعالى الصوت القبيح والصوت المرتفع وشبهه بصوت الحمير لما فيه من خشونة وازعاج وعدم استلذاذ الأذن به ، كما أنهم اشترطوا أيضاً أن يكون القوال جميل الوجه والصوت وما يقوله من الأشعار جميل كذلك ، وذلك من أجل الترويح عن قلوبهم ، لأن القلوب تعشق وتحب كل ما هو حسن جميل ، وهذا ما يوضحه قول رزوبهان البقلى فى كتابه الأنوار فى كشف الأسرار : « انه ينبغى أن يكون القوال (أى المغنى) جميل الطلعة ، لأن العارفين يحتاجون لترويح القلوب فى مجلس السماع الى ثلاثة أشياء : الروائح الطيبة ، والوجه الصبيح ، والصوت الملبح » (٥٨) ، ويقول فى نفس المعنى أيضاً ابن القيم : « أنهم جعلوا السماع مباحاً ، يكون مستلذاً طيباً تلذه النفوس وتستروح اليه ، وأن الطفل يسكن الى الصوت الطيب والجميل ينسى تعب السير ، وبأن الله ذم الصوت القبيح فقال تعالى :

وَأَقْصِدْ فِي مَسْئِكَ
وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ

(٥٩) (٦٠)

إذن فتأثر النفس الطيبة باللحن والصوت الجميل طبيعة فى الانسان الكامل ، لا ينكرها انسان قط ، الا ترى أنه سوف يكون من متع الجنة أن يستمتع أهلها لصوت الرحمن عز وجل وكيف اختار رسول الله (بلال) للأذان وكيف أنه ﷺ أقام منبراً لحسان بن ثابت فى المسجد ينشد الشعر عليه .

(٥٧) الفتوحات الالهية : ج ٢ : ص ٢٨٠ ، وانظر مخطوط آداب المريدين :

ص ٤٩ .

(٥٨) تاريخ التصوف فى الاسلام : ص ٥٦٧ .

(٥٩) سورة لقمان : آية (١٩) .

(٦٠) مدارج السالكين : ج ١ ، ص ٢٧٦ ، وانظر الرسالة القشيرية فى علم

التصوف : ص ٢٦٣ ، وانظر اللمع ص ٢٣٩ ، ص ٣٤٠ ، وانظر قول السبكي (تاج

الدين أبى نصر عبد الوهاب) : معيد النعم مبيد النقم ، مطبعة ليدن ، ١٩٠٨ م ،

ص ١٥٧ .

وإذا كان الصوفية اشترطوا للسمع العديد من الآداب الخاصة بسلوك المريد وقت السماع ، فإنهم اشترطوا أيضاً عدم الصياح واليكاء طالما أن المريد (الصوفي) قادر على ضبط نفسه ، وهذا لا يعنى أن اليكاء والزعق وما سواهما غير مباح فى السماع ، وإنما يعنى عدم المراءاة والرياء حتى لا يخرج عن حدود السماع ، « وحكى أن شاباً كان يصحب الجنيد وكلما سمع شيئاً زعق وتغير فقال له الجنيد أن ظهر منك شيء بعد هذا فلا تصحبني فكان بعد ذلك يضبط نفسه » (٦١) .

لقد ذهب الصوفية الى أن تمزيق الخرقة اذا لم يكن نتيجة لوارد قوى كان ذلك ازهاقاً للأموال واضاعتها فى الباطل ، « ولهذا قال ابراهيم المارستانى عندما سئل عن الحركة فى السماع وتخريق الثياب وتمزيقه : بلغنى أن موسى عليه السلام ، قال : قل له : مزق لى قلبك ولا تمزق ثيابك » (٦٢) .

كذلك اشترط الصوفية بعض الشروط الخاصة بطرح الخرقة أو تمزيقها وقت السماع، وعما اذا كان من حق القوال أو الجماعة فى استرداد هذه الخرقة أو تقسيمها بينهم ، وهذا ما يوضحه السهروردى بقوله : « وأما الخرق التى تقع فى السماع فما كان منها على طريق مساعدة فهم للجماعة وما كان منها لقول قوال وانشاد ومقشد . . فقد اختلفت أقاويل المشايخ فيه ، فذهب بعضهم الى أنها للقوال . . وذهب بعضهم الى أنها للجماعة والقوال فيه كأحدهم لأن بركة حضور الجماعة لا تقتصر على قول القوال . . ومنهم من قال ان كان القوال أجيراً فليس له منها شيء ، وان كان متبرعاً فله ما يصلح له منها . . » (٦٣) .

ويجمل الغزالى العوارض والفضول التى تحرم السماع ، وتعتبر من سوء الأدب فى السماع من الناحية الأخلاقية فى خمسة عوارض ؛ منها عارض المسمع ، فيخشى على المريد الاستماع من المرأة أو الشباب والفتيات خوفاً من الفتنة واثارة الشهوة وعارض آلة السماع حيث أباح الصوفية سماع الدف والطبل وذلك كما كان متبعاً فى زمن الرسول ﷺ حيث استقبلوه بالترحاب والأشعار الموزونة ، كما لا يبيح الصوفية سماع المزامير والآلات الموسيقية خوفاً من اثاره الفتنة والشهوات ، أما المعارض الثالث فهو الصوت الحسن الشجى الذى يطرب سامعيه

(٦١) آداب المريدين : ص ٤٧ ، وانظر اللمع : ص ٣٥٨ ، وانظر المرشد الامين الى موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين : ص ١١٣ ، ١١٤ .
(٦٢) اللمع : ص ٢٤٦ ، وانظر الرسالة القشيرية : ص ٢٦٨ ، وانظر قواعد التصوف : ص ٨٦ .
(٦٣) آداب المريدين : ص ٥٠ ، ٥١ .

بالمعاني الجميلة الطيبة ، والعارض الرابع هو نوعية الأشعار التي يقولها القوال وما تحمله من معان ، فان كانت تدعو الى الطاعة ومكارم الأخلاق ، كان ذلك جميلا عتبلا وشرعا ، أما اذا كانت تدعو الى الفحش ومجالس الشراب فهذا غير مباح به ، وأخيراً العارض الخامس ، وهو درجة المستمع فى السماع ، فان كان من العوام ولم يغلب عليه حب الشهوة كان السماع فى حقه محبوباً ، أى أن الغزالي صاحب نظرية متكاملة تعبر عن معظم آراء الصوفية فى السماع وآدابهم فيه ، وفى ذلك يقول معددا مجموعة هذه العوارض « عارض فى المستمع ، وعارض فى آلة السماع ، وعارض فى نظم الصوت ، وعارض فى نفس المستمع أو فى مواظبته ، وعارض فى كون الشخص من عوام الخلق » (٦٤) .

اذن فالصوفية أصحاب نظرية أخلاقية تدعو المرید الى الالتزام بها فى مجالسهم ، وهذه النظرية تجعل الفرد فى انسجام وتوافق مع باقى أفراد المجتمع ، وتحقق التعاون الاجتماعى ، ومن ثم يحاول الانسان أن يصل الى مرحلة الكمال ، ووصول الانسان الى مرحلة الكمال الأخلاقى لا يتم الا بتأهيل النفس لذلك من خلال حب الجمال الالهى .

رابعاً : السماع والآداب الباطنة :

وبعد أن تعرضنا لآداب السلوك وما يجب على المرید الالتزام به خلال قيامه فى مجالس السماع ، كان لابد لنا من أن نتعرض لأهمية الفهم بالنسبة للمسموع ، وادراك المستمع له ؛ اذ أنه لا يمكن التحلى بمكارم الأخلاق والسمع والطاعة والعمل بما يسمع بدون فهم ومعرفة المعنى الحقيقى للمسموع .

ان السامعين يختلفون فى السماع حسب اختلاف أحوالهم النفسية ودرجة فهمهم للمسموع ودرجة قربهم من الحق تعالى ، وهذا ما يؤكد ابن القيم بقوله « فهذا السماع أساس الأيمان الذى عليه بناؤه وهو على ثلاثة أنواع ، سماع ادراك بحاسة الأذن ، وسماع فهم وعقل ، وسماع فهم واجابة وقبول ، والثلاثة فى القرآن » (٦٥) .

ويذهب الغزالي الى ما ذهب اليه ابن القيم من اختلاف الناس فى درجة الفهم للمسموع بقوله : « الفهم ، وهو يختلف باختلاف أحوال

(٦٤) قطع النزاع وكشف القناع عن دليل جواز السماع : ص ٢٠ ، ٢١ ، وانظر قول ابن سلام الأشيبلى فى الذخائر والأعلاق فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق ، ص ٧٨ .
(٦٥) مدارج السالكين : ج ١ ، ص ٢٧٣ .

المستمع ؛ وللمستمع أربعة أحوال : أحدها : أن يكون سماعا بمجرد الطبع أى لاحظ له فى السماع الا باستلذاذ الألحان والنفحات . . اذ الأبل شريكة له فيه ، الحالة الثانية أن يسمع بفهم . . . الحالة الثالثة : سماع المريدين لا سيما المبتدئين . . الحالة الرابعة سماع من جاوز الأحوال والمقامات فعزب عن فهم ما سوى الله تعالى . . « ٢٦ » .

مما سبق يتضح لنا أن السامع يربيه فى غاية الدرجات ، ذلك لأن سماع الكمل بالعقل والفهم ، أما سماع أرباب الأحوال بالنفس والشهوات والهوى ، فالسماع رسول الايمان الى الحق وداعيه ومعلمه ، ولذا يستلزم الفهم للمسموع وتدبره .

وكذلك يورد الصوفية العديد من القصص والأقاويل حول تفاوت درجة الفهم للمستمعين حتى لو كان المسموع واحدا « وكيفيك فى هذا أن ثلاثة سمعوا منادياً يقول يا سعتى برى ، ففهم كل منهم الله مخاطبة فخطب بها فى سره ،

سمع الواحد سمع ترى برى
وسمع الآخر الساعة تر برى
وسمع الثالث ما أوسع برى

فالمسموع واحد ، واختلفت أفهام السامعين . . . ، فأما السبى سمع : أسع ترى برى فمريد دل على النهوض الى الله بالأعمال ليستقبل الطريق بالحد ، ففيل له : أسع الينا بصدق المعاملة تر برنا بوجود المواصل ، وأما الآخر ، فكان سالكا الى الله طاولته الأوقات فخاف أن تفوته الوصلة ففيل له ، ترويحاً على قلبه لما أحرقت نار الشنف الى الساعة ترى برى ، وأما الثالث ، فعارف كشف له عن وسع الكلام فخطب من حيث أشهد فسمع ما أوسع برى « (٦٧) » .

ويؤكد الصوفية على أن الغفلة هى عدم الفهم ويقظة القلب وتفهمه لما يلقي عليه من الأمور ، وإذا ازدادت غفلة القلب عمى بها عن الفهم ، كما أنه لكى يتحقق الفهم الحقيقى للمسموع لا بد للمريد من الاعراض والغفلة عن الاهواء والشهوات ، وهذا ما يوضحه ابن قيم بقوله : « وأما سماع الفهم فهو المنفى عن أهل الاعراض والغفلة بقوله تعالى :

(٦٦) احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٣٦٧ : ٣٧١ ، وانظر قول القشيري فى : لطائف الاشارات ، ج ٣ ، ص ٩٧ ، ٢٢١ ، وانظر ج ١ ، ص ١٢٠ .
(٦٧) د عبد الحليم محمود : العارف بالله أبو العباس المرسى ، دار الشعب ، ١٩٧٥ ، وانظر للمع : ص ٣٦٢ .

إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدَّعَاءُ إِذَا أُولُو أُمْدٍ بَرِين

(٦٩)

ويقول أيضاً التفسيرى فى نفس المعنى السابق : « فان من سمع بالحق سمع كل ما يقال عن الحق من كل من يقول الحق ، فيحصل له الفهم لما يسمعه لأنه اذا كان من أهل الحقائق يكون سمعه من الله وبالله وفى الله » (٧٠) •

وكذلك قول بعض العلماء « كل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ازداد القلب به عمى ، وانما ينفع سمع الاذان اذا قوى فهم القلوب فى الأبدان » (٧١) •

فالفهم إذن أمر ضرورى فى يقظة القلب وعدم الغفلة ، ولا يكون للسمع أى فائدة للقلب ما لم يصحبه فهم للمعنى المسموع ، والفهم والمعرفة يكون للسمع الحق من الحق تعالى البعيد عن الغفلة والاعراض ، فالفهم للمسموع يكشف الأسرار والمعارف الالهية التى لا يستطيع ان يعرفها من هم فى غفلة عن المسموع ، ومن ثم يرفع الحجاب بين الروح وبين هذه الأسرار فيتمتع باللذة الروحية والاطراب ، وان من لا يفهم المعنى ويستلذ به انما هو مثل البراغيث تأكل وترقص دون أن تدرك المعنى ، وهذا ما يوضحه قول الفاكهى : « انما هم مثل البراغيث يأكلون ويرقصون » (٧٢) •

وإذا كان الصوفية يشترطون للسمع العديد من الآداب فان الفهم أيضاً بالاضافة الى أنه أمر ضرورى ومهم للسمع فانه يعتبر من أهم آداب السلوك عندهم ، فالسمع بداية والفهم مرحلة تالية للسمع والعمل به مرحلة تلى الفهم ، وهذا ما يوضحه الشعرائى بقوله : « فالأول فى الحديث السماع ثم الحفظ ثم الفهم ثم العمل » (٧٣) ، وكذلك قول ابن عربى : « وآداب السمع أن تسمع حديثاً سماع مستفهم » (٧٤) •

(٦٨) سورة النمل : آية (٨٠) •

(٦٩) ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ، ج ١ ، ص ٢٧٣ •

(٧٠) لطائف الاشارات : ج ٦ ، ص ١٧٠ •

(٧١) ادب الدنيا والدين : ص ٦٦ •

(٧٢) الامتاع بأحكام السماع : ص ٦٤ •

(٧٣) الكشف والتبيين هامش على تنبيه المغتربين : ص ٣٣ •

(٧٤) شمس الطريق : بدون ترقيم •

لعله قد تبين الآن من خلال حديثنا عن السماع والترقى الأخلاقي وآداب السلوك أنه قد اكتملت عناصر النظرية الأخلاقية في السماع من خلال طهر النفس وثقائها من الأدناس والأهواء والفضول والتزامها بالأخلاق الكريمة من صدق وحسن الظن وإخلاص النية ، كما عرفنا أيضاً كيف أن الصوفية اتخذوا من الوجد وسيلة عملية لترقيق القلوب وطهارتها، وكيف تعتقد الصوفية مجالس السماع ، وأنهم يختلفون في درجة التأثير بالمسموع ، مما يؤدي إلى اختلاف درجات المريدين في السماع وفهمهم للمسموع ، وذلك يتم من خلال الالتزام بالعديد من الآداب والواجبات .

الفصل الرابع

صلة السماع بالمقامات والأحوال

- تمهيد :

أولا : السماع والمقامات :

- [١] السماع ومقام التوبة
- [٢] السماع ومقام الورع
- [٣] السماع ومقام الزهد
- [٤] السماع ومقام الفقر
- [٥] السماع ومقام الشكر
- [٦] السماع ومقام التوكل

ثانيا : السماع والأحوال :

- [١] السماع وحال الذكر
- [٢] السماع وحال يقين القلب وحضوره
- [٣] السماع وحال الأنس
- [٤] السماع وحال الخوف
- [٥] السماع وحال الاستمرارية
- [٦] السماع وحال الوصول
- [٧] السماع وحال الثبات والتمكين
- [٨] السماع والمحبة الالهية
- [٩] السماع وحال الفناء والبقاء

تمهيد •

بعد أن تحدثنا في الفصل السابق عن السماع من الناحية الأخلاقية وكيف أن المريد لا بد له من الالتزام بالعديد من الآداب في مجالس السماع ، من حسن الظن بالمسموع وإخلاص النية في السماع وترك التكلف والفضول وغير ذلك من الآداب فسنحاول أن نوضح في هذا الفصل ارتباط السماع بالمقامات والأحوال .

والمقامات عند الصوفية هي مراحل الطريق إلى الله تعالى ، وهي ما يرسخ للسالك من أحوال السلوك نتيجة مجاهداته المختلفة فيقال مثلاً أن السالك متحقق بمقام التوبة ، أي التوبة عن سماع المعاصي وكل ما يحث على عدم طاعة الحق تعالى ، ويتدرج السالك في مقامات السلوك مجاهداً نفسه حتى يستوفي جميع المقامات ، وقد انفتحت الصوفية على أن السالك لا يمكن أن يتحقق في مقام من المقامات إلا إذا كان مشغولاً بالرياضة له ، وهو بهذا يكون كسباً له ، ومن بين هذه المقامات مقام التوبة - الورع - الزهد - الفقر - الشكر - التوكل ، أما الأحوال مثل الذكر - يقين القلب وحضوره - الأنس - الخوف - الوصول - الثبات والتمكين - المحبة والشوق - الفناء والبقاء وغير ذلك .

ولهذا فقد جعل بعض الصوفية السماع هو الوقت الذي لا يضعه المريد في الباطل ، وإنما يسمع ويحقق فيه ما يسمعه بحيث لا يعارض آداب الكتاب والسنة ، وذلك ما يؤكد قول أبي علي الدقاق حين سئل عن السماع فقال : « السماع هو الوقت فمن لا سماع له ، لا يسمع له ، ومن لا سمع له فلا دين له ، لأن الله تعالى قال :

إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُولُونَ (١)

(٢)

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ

وقال

فالسماع سفير من الحق ورسول من الحق ، يحمل أهل الحق بالحق إلى الحق فمن أصفى إليه بحق تحقق ، ومن أصفى إليه بطبع تزدق (٣) .

(١) سورة الشعراء : آية (٢١٢) •

(٢) سورة الملك : آية (١٠) :

(٣) أسرار التوحيد : ص ٩٨ •

أولاً : السماع والمقامات :

نجد أن فكرتى المقام والحال مرتبطتان بالسماع فى جميع الأحوال :
« والمقام معناه مقام العبد بين يدى الله عز وجل فيما يقام فيه من
المجاهدات والرياضات والعبادات ، وشرطه أن لا يرتقى من مقام الى
مقام ما لم يستوف أحكام ذلك المقام » (٤) .

[١] السماع ومقام التوبة .

ولما كانت التوبة فى مقامات الطريق هى المقام الأول ونقطة البدء فى
السير والسلوك رأينا من المناسب أن نتكلم فى شرحها وعلاقتها بالسماع،
والتوبة هى الندم على ارتكاب الذنوب وصون الجوارح عن الخوض فى
الباطل ، ومن ذلك صون السمع عن سماع الباطل والتجافى عن سماع
الشهوة وإخراج المظلمة وترك سماع الغيبة والنميمة .

فالتوبة إذن هى الرجوع عن الآثام الى الطاعة للحق تعالى ، وتوبة
العوام هى عن سماع الذنوب والمعاصى ، أما توبة الخواص هى عدم
الغفلة واليقظة والذكر والسماع الدائم لأوامر الحق تعالى ونواهيه ،
وهذا ما يوضحه قول ذى النون المصرى : « وتوبة السمع صونه عن
سماع الأباطيل » (٥) .

والتوبة من الخصال الفاضلة التى تعمل على صفاء النفس من
الأخطاء والمعاصى ، والتوبة ذات قيمة أخلاقية هامة فى حياة كل فرد ،
اذ تجعله يتحلى بالأخلاق الفاضلة بعد الندم والتوبة عن الأعمال
الردئية ، وبالتوبة يتخلى العبد عن كثير من السلوك السيئ مثل سوء
الظن بالسموع والغيبة والنميمة والبغضاء ، والتكلف فى السماع ،
والسماع لا يتم الا بالتخلى عن معاصى النفس وما يعكر صفوها ولا يتحقق
ذلك الا عن طريق التوبة ، والسماع هو أحد أسباب التوبة ، فقد
يسمع المريد آية من آيات الذكر الحكيم أو بيتاً من الشعر أو الحكمة
أو موعظة توقظ قلبه الى الطريق المستقيم فتجعله يتوب عن المعاصى
والشهوات ، وهذا ما حدث للفضيل بن عياض (حينما كان الفضيل
شاطراً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس ، وكان سبب توبته أنه
عشق جارية فبينما هو يرتقى الجدران إليها ، سمع تالياً يتلو :

(٤) معجم المصطلحات الصوفية : ص ٢٤٨ ، وانظر للمع : ص ٦٥ .

(٥) تاريخ الصوفية فى الاسلام : ص ٢٠٧ .

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ
وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ
عَلَيْهِمُ الْاُمْدُ فَغَسَّتْ قُلُوبُهُمْ وَكُنْزُهُمْ فَيَسْتَقُونَ (٦)

فقال : يارب قد آن فرجع ، فأواه الليل الى دربه ٠٠ فتاب ، الفضيل
وأمنهم وجاور الحرم حتى مات ، (٧) •

والتوبة والندم على الذنوب من أهم الأقسام الثلاثة في السماع ،
إذ أن الناس في السماع ثلاثة : تائب ، وصادق في سماعه ، ومستقيم ،
وهذا ما يوضحه قول ابن عطاء الله السكندري « أهل السماع ثلاثة
تائب وصادق ومستقيم » (٨) •

فالتوبة من الذنوب في السماع لا تكون سليمة إذا لم يكن صاحبها
صادقاً في توبته مستقيماً فيما يسمع بعيداً عن العودة الى المعاصي
والمخالفات ، كما يذهب الصوفية — أيضاً — الى أن مجالس الحكمة
توقظ القلب وتبعده عن ارتكاب المعاصي من خلال التذكر ليوم القيامة
والحث على الطاعات والعبادات وهذا ما يوضحه ابن عطاء الله
السكندري بقوله : « لا يفتك مجلس الحكمة ولو كنت على معصية
فلا تقل ما الفائدة في سماع المجلس ولا أقدر على ترك المعصية بل على
الرامي أن يرمى فان لم يأخذ اليوم يأخذ غداً » (٩) •

[٢] السماع ومقام الورع •

ويأتى بعد ذلك الحديث عن مقام الورع وارتباطه بالسماع ،
فالورع من الأخلاق الحميدة التي يلتزم بها المريد في حضوره مع الله.
وقت السماع ، وأساس الورع الزهد في الدنيا ولذاتها ، والورع هو
التخلص من مظالم الدنيا بحيث لا يكون لهذه الأشياء مكان في القلب ،

(٦) سورة الحديد : آية (١٦) •

(٧) د. محمد جلال شرف : التصوف الإسلامي في مدرسة بغداد ، دار الطبوعات
العلمية بالاسكندرية ، ١٩٧٥ م ، ص ٨٦ ، وانظر الامام القشيري ، سيرته ، آثاره ،
مذهبه في التصوف : ص ١٧٢ ، وانظر قول السهروردي في عوارف المعارف :
ص ١٥٤ ، ١٥٥ •

(٨) ابن عجيبة : الفتوحات الالهية : ج ٢ ، ص ٢٧٤ ، وانظر تهذيب مدارج
السالكين ، ص ٢٣٨ •

(٩) تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس : ص ٤٢ •

وتطلب من الحق تعالى ألا يشئت قلبك ببعده عنه ، وهذا ما يوضحه قول السهروردي البغدادي « سئل بعض المشايخ عن السماع فقال مستحب لأهل الحقائق مباح لأهل النفسك والورع ، مكروه لأصحاب النفوس والحظوظ » (١٠) .

وإذا كان للورع أهمية عظيمة في السماع فإن هذه الأهمية لا تكتمل إلا بالزهد في السماع ، وذلك لأن الزهد هو أساس كل الأحوال ، فالمريد الصادق لا بد من أن يزهد في سماعه ، بمعنى أن يترك سماع مجالس الفساد والغناء ، لأن هذه المجالس تذهب وقاره وهيبته ، أما مجالس العلم والحكمة والموعظة التي حث عليها الشرع تزيد هيبته ووقاره وعلمه ، وهذا ما يوضحه قول السهروردي : « كل قلب ملوث بحب الدنيا فسماعه سماع طلب وتكلف » (١١) .

[٣] السماع ومقام الزهد .

كما يربط الصوفية بين السماع ومقام الزهد ، والزهاد في السماع هم في المرحلة الثانية من مراحل السماع ، أما المرحلة الأولى فهي للعوام والمبتدئين ، أما المرحلة الثالثة وهي أعلى مراحل السماع فهي للعارفين ، والزهد في السماع مباح للمريدين نتيجة لقيام أنفسهم بالمجاهدات البدنية الشاقة وهذا ما يوضحه الجنيد حينما يقول : « الناس في السماع على ثلاثة أضرب : العوام والزهاد والعارفون . أما العوام فحرام عليهم لبقاء أنفسهم وأما الزهاد فيباح لهم لحصول مجاهدتهم وأما أصحابنا فيستحب لهم » (١٢) .

والزهد في السماع لا يعني الزهد في كل شيء يسمعه وإنما يتم في بعض الأمور مثل الزهد فيما حرمه الله تعالى إلى سماعه ، لذلك يجب على المريد أن يقهر نفسه بسماع مجالس الذكر والوعظ والحكمة وما يعود عليه بفائدة في دينه ودنياه . وهذا ما يوضحه قول السهروردي : « وآداب السماع أن لا يستمع إلى الفحش والخنا والغيبة والنميمة وكل منكر كما قيل شعرا أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه كان به عن كل فاحشة ، بل يستمع الذكر والوعظ والحكمة وما يعود عليه بالفائدة ديناً ودنياً » (١٣) .

(١٠) مخطوط آداب المريدين : ص ٧ .

(١١) عوارف المعارف : ص ١٦١ .

(١٢) مخطوط فتح الأسماع في شرح السماع : ص ٧٥ ، وانظر مخطوط الامتاع

في أحكام السماع ، ص ٣١ .

(١٣) آداب المريدين : ص ٣٠ .

كما يوضح الصوفية أن العبد إذا زهد فيها يسمع ولم يعلق قلبه بالشهوات والأهواء ، فانه يتحقق له كل ما يريده وذلك بفضل من الله عز وجل ، أى أن الزهد هو أساس السماع ، ومن أقوى النصوص الدالة على الزهد فى السماع « حديث عبد الله بن عمر عندما سمع زممار الراعى فوضع أصبعه فى أذنيه ، وناء عن الطريق وكان معه نافع ، فقال له هل تسمع شيئاً فقال لا ، فرفع أصبعيه من أذنيه وقال كنت مع رسول الله ﷺ فسمع مثل هذا ففعل مثل هذا » (١٤) ، ولهذا قال عليه السلام لابن عمر أسمع ولم يأمره بسد أذنيه أيضاً ، ولكن انما فعل ذلك عليه السلام زهداً فيها هو من مباح الدنيا ، كما كان ﷺ يترك لذيق المأكولات والمشروبات المباحة ويتباعد عنها زهداً فيها لا حرمة لها ، والزهد فى السماع هو عدم سماع غير كلام الحق تعالى والزهد فيها سواء ، وتدبر وفهم معنى المسموع الحسى ، وهذا ما يؤكد قول عبد القادر الجيلانى « الزاهد لا يسكن الى غير ربه عز وجل ولا يسمع غيره ولا يعقل عن غيره ولا يسكن الى غير وعنده » (١٥) .

[٤] السماع ومقام الفقر .

كما يذهب الصوفية الى أن الفقر من أهم المقامات المرتبطة بالسماع أيضاً ، والفقر فى السماع هو أن يكون سماعه مستقيماً وليس سماعاً من أجل كسب مادية أو جاه ، أى سماع فقر الى الحق تعالى ، والاستغناء به عن كل شئ سواه ، وبالفقر يعرف السامع عبوديته وربوبيته تعالى ، أى أن الفقر فى السماع هو الفقر عن سماع هوى النفس وهواجسها ، وهذا ما يوضحه : « الهجویری عندما سأل أبا القاسم الجرجاني فى طوس : ما أقل ما ينبغى للفقر حتى يكون جديراً باسم الفقر ؟ قال : يبقى له ثلاث ، ولا أقل منها :

- أولاً : يجب أن يعرف كيف يخطط المرقعة خياطة مستقيمة .
- ثانياً : يجب أن يعرف كيف يسمع الكلام سماعاً مستقيماً .
- ثالثاً : يجب أن يعرف كيف يضرب الأرض بقدم مستقيمة » (١٦) .

(١٤) سنن أبى داود : باب النهى عن الغناء ، ج ٧ ، ص ٢٣٨ ، وانظر ابن حجة : ج ١ ، ص ٦١١ ، وانظر أيضاً التصوف الاسلامى شخصيات وتصوف ، ص ٥٧ .

(١٥) الفتح الزباني والفيض الرحمانى : ص ١٨٠ .

(١٦) الهجویری : كشف المحجوب ، دراسة وترجمة د . اسعاد عبد الهادى قتديل ، مراجعة د . أمين عبد المجيد بدوى ، اشراف محمد توفيق عويضة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٧٤ م ، ص ٢٤٦ ، وانظر أيضاً تاج الدين زكريا القرشي : مخطوط شعري نفحات الانس من حضرات القدس - رقم ٩٧٩٥ . الرمز ح ، ميكروفيلم رقم ١٨٣٦٧ ، ص ٣٧٧ .

ويؤكد الصوفية أيضا على أنه يجب على الفقير في السماع إذا حضر مجلس السماع أن يلتزم السكون وعدم الحركة ، وأن يراعى آداب الشيخ ، وأن يستغنى بالله عز وجل في سماعه ولا يستمعين بغيره ، وهذا ما يؤكد عبد القادر الجيلاني بقوله : « وإذا كان في القوم شيخ حاضر في السماع فالواجب على الفقير السكون ما أمكنه ومراعاة حشمة ذلك الشيخ ٠٠ ، ولا ينبغي للفقير أن يستمعين بغيره في حال السماع (١٧) . »

والسامع الحق فيها يرى صوفية الاسلام يكون فقره وغناه بالحق عز وجل وليس بالأغيار والأسباب من مال أو جاه أو نفس ، أى يكون السامع فقيرا في سماع الشهوات وما يثير المعاصي والذنوب ، غنى بسماع مجالس العلم والحكمة والموعظة وكل ما يثير في نفس العبد الطاعة والخشية ، فهذا السماع ينزل الرحمة على المستمعين ، ذلك لأنهم لا يسمعون الا عن حق ويقتن ولا يقولون الا عن وجد ناتج عن السماع ، وهذا ما يوضحه الجنيد بقوله : « تنزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن : السماع فانهم لا يسمعون الا عن حق ولا يقولون الا عن وجد وعند اكل الطعام فانهم لا يأكلون الا عن فاقة وعند مجاورة العلم فانهم لا يذكرون الا صفة الأولياء » (١٨) .

ويعمل الصوفية ما سبق بقولهم أن الفقير في السماع إذا حصل له الفناء عن هوى الذات وتفهم معاني المسموع ، فالسماع في حقه مطلوب لما فيه من زيادة الفناء ، ذلك لأن النفس إذا ماتت لا تميل الا الى الحضرة ولا تسمع الا منها ، وكذلك يبين لنا الصوفية أن السماع دواء شاف لضعفاء النفوس وأن الفقير إذا أحب السماع واستلذ به واستغنى به عن الحق وأصبح عادة عنده تشغله عن القيام بأوامر الحق تعالى ،

- (١٧) الغنية لطالبي طريق الحق : ج ٢ ، ص ١٥٧ .
 (١٨) الرسالة القشيرية في علم التصوف : ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، وانظر للمع ، ص ٣٤٣ ، وانظر قوت القلوب : ج ٢ ، ص ١٢٢ أو ج ٣ ، ص ٩٠ ، وانظر مكاشفة القلوب المقرب الى حضرة علام الغيوب ، ص ١٧٩ ، وانظر عوارف المعارف : ص ١٧٦ ، وانظر الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٧٢ وانظر التعرف لمذهب أهل التصوف : ص ١٦١ ، وانظر القوصي (أحمد حنفي نصار) : مع التصوف الاسلامي معارج وتماذج ، دار وهذان للطباعة ١٩٩٢ م ، ص ٤٧ ، وانظر المنوفى (محمود أبو الفيض) : التصوف الاسلامي الخالص ، دار نهضة مصر ، ١٩٨٠ م ، ص ٧٦ ، وانظر تلبيس إبليس ، ص ٢٢٩ ، وانظر للكواكب الدرية : ج ١ ، ص ٢١٥ ، وانظر قول أبي عثمان في ليقاظ الهمم في شرح الحكم : ج ١ ، ص ١٦٥ ، وانظر أيضا قول ابن عجيبة الحسنى في الفتوحات الالهية : ج ٢ ، ص ٤٥٣ .

فان هذا الفقير يميل الى البطالة والرفاهية ، في حين أن السماع الحق يتطلب من المريد المجاهدة في السماع وهي ضد البطالة ، ومن لا يجاهد نفسه لا يشاهد نور الحق تعالى ولا يتم الوصول اليه ، وهذا ما يؤكد قول ابن عجيبة الحسنى : « السماع انما هو دواء ورخصة للضعفاء لتقوية حالهم فاذا حصل الشفاء استغنى عن الدواء ، فاذا رأيت الفقير يحب السماع ويميل اليه على الدوام فاعلم ان فيه بقية من البطالة ومن لا مجاهدة له لا مشاهدة له ومن لا مشاهدة له لا سير له ومن لا سير له لا وصول له » (١٩) .

ومما يراه الصوفية ايضاً أن السماع يقوم على صفاء الروح وتخليصها من كدرات النفس ، ذلك لأن الروح لا تقوى الا بضعف النفس ، ولا تظهر آثارها الا بخفاء آثار النفس ، ولهذا فان نهاية السماع لدى الصوفية هي الفناء عن سائر الأمور الخلقية ، والبقاء بعد ذلك بالصفات الربانية ، وهذا ما يؤكد أبو نصر السراج بقوله : « اهل السماع على ثلاث طبقات : فقوم يرجعون في سماعهم الى مخاطبات الحق لهم فيما يسمعون ، وقوم يرجعون فيما يسمعون الى مخاطبات أحوالهم ومقامهم وأوقاتهم ، وهم الفقراء المجردون الذين قطعوا العلائق ولم تتلوث قلوبهم بمحبة الدنيا والجمع والمنع فهم يسمعون لطية قلوبهم ويليق بهم السماع فهم أقرب الناس الى السلامة وأسلمهم من الفتنة » (٢٠) .

كما يذهب الصوفية الى أن السماع هو غذاء الروح كما أن الطعام غذاء للأبدان ولكي يستطعم المريد هذا الغذاء مثل استطعام البدن للطعام ، لا بد لهذا المريد من الحاجة الى معرفة معاني المسموع والفقر اليه ، وهذا الغذاء لا يصلح لكل الناس ؛ ذلك لاختلاف أحوالهم ودرجة تفهمهم للمسموع ، وهذا ما يوضحه قول ابن عباد النفري بقوله : « المستمعون موسومون بالفقر والحاجة الى معنى ما يستمعون اليه من المواعظ والحكم ، وهو قوت قلوبهم ، وغذاء أرواحهم ، كما أن المستطعمين والسؤال موسومون بالفقر والحاجة الى قوت أبدانهم ،

(١٩) الفتوحات الالهية : ج ٢ ، ص ٢٧٧ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ .

(٢٠) عوارف المعارف : ص ١٦٠ ، وانظر مع التصوف الاسلامي معارج ونماذج .

وكما أن أقوات هؤلاء مختلفة فلا يصلح لواحد من هؤلاء ما يصلح
للآخر من الأطعمة والأشربة لاختلاف طبائعهم « (٢١) .

[٥] السماع ومقام الشكر •

كذلك يربط الصوفية بين السماع ومقام الشكر ، والشكر هو
الاعتراف بالنعم والمنعم والاقرار بالربوبية للحق تعالى وحده ، ومن هذا
الشكر شكر الجوارح واستعمالها في طاعة الحق تعالى ، ومن بين
هذه الجوارح الأذن وشكرها يكون عن طريق حسن الاستماع وصرف
السمع في استماع الحكمة والموعظة ، فحاسة السمع نعمة من عند
الحق تعالى قد من بها على عباده لذلك يجب الشكر والحفاظ عليها ،
وهذا ما يوضحه صوفية الإسلام عندما يقول بشر الحافي : « من شكر
الله بلسانه دون بقية أعضائه قل شكره لأن شكر البصر أن رأى خيراً
وعاه أو شراً ستره وشكر السمع أن سمع خيراً حفظه أو شراً
نسيه » (٢٢) .

لذلك يذهب الصوفية الى أنه يجب على المريد أن يكون بالحق
تعالى فيما يسمع وفيما يبصر ، بمعنى أن لا يسمع حراماً ، وإذا سمع
عيباً ستره ، وصرف السمع عن استماع اللهو والفناء وفحش الكلام ،
وهذا من باب الشكر للحق تعالى ، وذلك على حد تعبير السبكي :
« من شكر نعمة الأذنين أن لا تسمع حراماً وأن تستر كل عيب تسمعه ،
فإن أنت تصدقت كل يوم بدرهمين شكراً لله تعالى على نعمة الأذنين
وهتكت كل قبيح سمعته وأصغيت الى كل حرام وغيبة فليست من
الشاكرين » (٢٣) .

ولكى يتحقق للمريد مقام الشكر للحق تعالى لا بد له من السمع
والطاعة ، ذلك لأنه عن طريق السمع يستطيع أن يعرف النعم

(٢١) ابن عباد الزندي : غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية ، تحقيق
د. عبد الحليم مخلد ، د. محمود بن الشريف ، دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٠ هـ -
١٩٧٠ م ، الطبعة الأولى ، ج ٢ ، ص ٥٠ .

(٢٢) تنبيه المغترين : ص ٨٧ ، وانظر غيث المواهب العلية في شرح الحكم
العطائية : ج ١ ، ص ١٨٨ ، وانظر حسن رضوان : مطهرة النفوس وترويض القلوب ،
دار الكتب المصرية ، ١٩٢١ م ، ص ١١١ .

(٢٣) معبد النعم ومبيد النقم : ص ٢١ ، وانظر شرح تائبة السلوك : ص ٤٧ ،
وانظر أيضاً الغنية لطالبي طريق الحق : ص ١٩٤ ، وانظر لطائف الأشارات : ج ٤ ،
ص ٢٥٥ ، وانظر أيضاً الرسالة القشيرية : ج ١ ، ص ١٢٩ .

والخيرات التى أنعم الله بها عليه ، وذلك من خلال الاستماع الى القرآن الكريم والأقوال الحسنة ، كما لا يجوز الشكر لغير الحق تعالى ، والشكر للحق تعالى يكون فى حالى السراء والضراء فى المنع والعطاء ، ولا يكون فى حال دون الآخر ، فالشكر على الضراء له الثواب العظيم ، كما أن هذا الشكر لا بد أن يقارنه الصبر فى العسر واليسر ، وهذا ما يوضحه عبد القادر الجيلانى (ت ٦٤٥ هـ) بقوله : « اخفظوا نعمه بالشكر قابلوأ أمره ونهيه بالسمع والطاعة ، قابلوأ العسر بالصبر واليسر بالشكر » (٢٤) .

[٦] السماع ومقام التوكل :

لقد ربط الصوفية أيضاً بين مقام السماع ومقام التوكل على الحق تعالى ، فالتوكل هو الاعتماد على الحق تعالى وحده مع الأخذ بالأسباب والأحداث دون الاعتماد عليها ، ولكى يتحقق للمريد التوكل السليم لا بد من عدم الانصات والاصغاء الى صاحب بدعة ، والتوكل الحقيقى هو الفناء عن هوى النفس وما تدعو اليه ، وهذا ما يوضحه سفيان الثورى بقوله : « من أصغى بسمعه الى صاحب بدعة وهو يعلم أنه صاحب بدعة خرج من عصمة الله ووكل الى نفسه » (٢٥) .

كما يذهب الصوفية الى أن التوكل الحق هو عدم الركون الى الخلق والانتقياذ لهم والاعتماد على حواسه الخمس فى التوكل ؛ ذلك لأن هذه الحواس هى مصدر الضرر والنفع للمريد ، وانما التوكل الحقيقى هو التوكل والاعتماد على الله عز وجل بقلوبهم مع صفاء النفس من أدناسها وأهوائها ، وهذا ما يؤكد الجيلانى بقوله « اعتمادك على كسبك وربحك وحولك وقوتك وسمك وبصرك وبطشك آلهة رؤيتك للضر والنفع والعطاء والمنع من الخلق آلهة كثير من الخلق متكئون على هذه الأشياء بقلوبهم ويظهرون أنهم متكئون على الحق عز وجل قد صار ذكرهم للحق عز وجل عادة بالسنتهم لا بقلوبهم » (٢٦) .

مما سبق يتضح لنا أنه لى يتمثل المريد السماع بالمعنى الصحيح لا بد له من التوبة من السماع السيئ والزهد فيه والفقر عنه والغنى بسماع الحق ، والشكر على عدم سماع السوء وستره وكذلك الاعتماد والتوكل على الحق تعالى وحده فى السماع .

(٢٤) الفتح الربانى والفيض الرحمانى ، ص ١٠ - ١١ .

(٢٥) بحلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ج ٢ ، ص ٣٤ ، وانظر أيضاً فاطمة قواد :

مقام التوكل عند صوفية الاسلام ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، ١٩٩٣ م ، ص ١٥٩ .

(٢٦) الفتح الربانى والفيض الرحمانى ، ص ٥٥ .

ثانيا : السماع والأحوال :

وإذا كان الصوفية قد ربطوا بين رياضة السماع والمقامات ، واعتبارهم المقامات مكاسب ، فانهم قد ربطوا أيضاً بين السماع والأحوال ، والحال عندهم « هو ما يرد على القلب من طرب أو حزن أو بسط أو قبض ، وقيل الأحوال هي المواهب الفائضة على العبد من ربه اما واردة عليه ميراث للعمل الصالح المذكر للنفس المصفى للقلب .. . وقيل هو ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار » (٢٧) .

ويذكر الصوفية العديد من الأحوال منها الذكر — اليقين — الانس — الخوف — الاستمرارية — الوصول — الثبات والتمكين — المحبة — الشوق — الفناء والبقاء وغير ذلك من الأحوال .

[١] السماع وحال الذكر •

الذكر، هو الأساس في الطريق ، فلا يصل أحد الى الله تعالى الا بدوام ذكره ، والذكر عند الصوفية ثلاثة أنواع : ذكر باللسان ، وذكر بالقلب ، وذكر بالروح وهو الغاية القصوى ، وحقيقة الذكر أن تذكر الله تعالى وانت ناس لكل شيء سواه ، وهذا ما يؤكده القشيري بقوله : « فاذا غنى الذاكر في ذكر اللسان انقطع عنه ذكر اللسان ، وعندئذ لا يجد العبد من نفسه شيئاً : لا من السمع ولا من البصر الا شيئاً ضعيفاً ، ويصير كل ذلك بعدئذ الى القلب ، فيسمع من قلبه الذكر .. . وعند هذه الحالة يتمنى أن يكون وحده في مفازة » (٢٨) .

أي أن من سمع فظهرت عليه صفات نفسه وذكرته حظوظ الدنيا ، فالسماع عليه حرم ومن سمع فظهر له به ذكر ربه وتذكر به أفضل ما شوق الله اليه وأعد له لأوليائه فهو له ذكر من الأذكار ، فالقلب يتذكر ويتيقظ بسماع الحكمة والمواعظ ، وهذا ما يوضحه عبد القادر الجيلاني بقوله : « من كان ذاكرًا الله عز وجل بقلبه فهو الذاكر ومن لم يذكره بقلبه فليس بذاكر اللسان غلام القلب وتبع له دوام على سماع المواعظ فان القلب اذا غاب عن المواعظ عمى » (٢٩) .

(٢٧) معجم المصطلحات الصوفية : ص ٧٣ ، وانظر التصوف الاسلامي الخاص ،

ص ٩٨ .

(٢٨) القشيري (عبد الكريم بن هوازن : ترتيب السؤوك في طريق الله تعالى

تحقيق د . ابراهيم بسيوني ، مطبعة التيسير ، ١٩٨٥ ، ص ٢٣ .

(٢٩) الفتوح الرباني والفيض الرحمانى ، ص ٨٢ .

كما يربط عبد الكريم الجبلى بين السماع وأحوال التصوف ومقاييسه
ويبين لنا أقسام علوم الحقيقة وارتباطها بالسماع ، وعلوم الحقيقة
هى العلوم التى تشتمل على العلاقة بين الحق والخلق وما يتعلق بالآخرة
والحياة بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك من الأمور الدنيوية
والآخروية وهذا ما يوضحه بقوله : « فمنهم من سماعه بحسب الأمور
الواردة فى قسم النهايات وهى تسعة : المعرفة ، والفناء ، والبقاء ،
والتحقيق ، والتلبس ، والوجود ، والتجريد ، والجمع ، والتوحيد ،
ومنهم من سماعه بحسب العلوم الواردة فى علم الحقيقة وهى على
أقسام : القسم الأول علم النسبة أى بين الحق والخلق . . ، والثانى
علم جمعية الانسان ، الثالث علم أفراد الحق . . ، الرابع علوم
الأكوان مما يتعلق بها من الملك والملوك ، والخامس علم الأولياء ،
فيما يتعلق بأمور السوابق وما كان فى الأزل ، السادس علوم الآخرة
مما يتعلق بأمور اللوائح ، وما سيكون فى الأبد فى أحوال البرزخ
والقيمة والجنة والنار . . ، فهذه أقسام تنحصر فيها جميع علوم
الحقيقة » (٣٠) .

والذكر عند الصوفية وسيلة الى القرب من المذكور واستبدالاً للغبية
والغفلة عنه بالحضور ، أى حضور القلب مع الحق تعالى فى سماع
ما يذكر ، والذكر الحقيقى هو دوام الحضور والاستغراق فى شهود
المذكور مع قطع العلائق أى الفناء عن ما سوى الحق تعالى وكذلك
الفناء عن النفس أوقات السماع ، والبقاء بسماع ذكر الحق تعالى ،
وهذا ما يوضحه قول السمرقندى : « ينبغى أن يقبل المستمع الى
وجه المذكر ويسمع منه بصحيح القلب ولا يشتغل بشئ غيره لما روى
عن النبى عليه السلام أنه قال : [من سمع مسألة وحديثاً فعمل بذلك
فانه حى ومنجى ومن سمع حديثاً فلم يعلم فانه يهلك] (٣١) .

(٣٠) سهيلة عبد الباعث الترجمان : نظرية الانسان الكامل عند عبد الكريم الجبلى ،
رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ م ، ص ٢٠٣ .

(هو عبد الكريم بن ابراهيم بن عبد الكريم بن خليفة . . ، البغدادي الاصل ،
ومن الظواهر البارزة فى عصر الجبلى انتشار ظاهرة السماع الصوفى ومجالسه
وحلقاته بمظاهره العديدة من الجذب والوجد والحركة البدئية ، انظر المناظر الالهية
عبد الكريم الجبلى : دراسة وتحقيق د. نجاح محمود الغنيمى ، دار المنار عام ١٩٧٨ م .
ص ١١ : ٣٤) .

(٣١) السمرقندى (نصر بن محمد بن ابراهيم) : بستان العارفين هامش على
تنبيه الغافلين ، مكتبة الجمهورية المصرية ، بدون تاريخ طبع ، ص ١٨ .

فسماع مجالس الذكر يذهب عن القلب مخاوفه كلها وله تأثير عجيب في حصول الأمن والطمانينة ، إذ أنه يجب للمذكر أن يساوى بين خوفه ورجائه ، فليس للخائف الذى قد اشتد خوفه أنفع من الذكر المقترن بالرجاء فى مجالس السماع ، فالمستمع لابد له من أن يساوى بين خوفه ورجاله فلا يكثر من الخوف على حساب الرجاء وأيضا لا يكثر من الرجاء على حساب الخوف حتى يصبح خوفه مساويا لرجائه ، « وهذا ما يوضحه حبيب بن ثابت عندما قال : وينبغى للمذكر أن يكون فى مجلسه الخوف والرجاء ولا يجفله كله خوفاً ولا كله رجاء لأنه نهى عن ذلك فان كان المذكر يحتاج الى تطويل المجلس فيستحب له أن يجعل فى خلال مجلسه كلاما يستظرفونه فان ذلك يزيدهم نشاطا واقتبالا على السماع » (٣٢) .

وإذا كان الصوفية قد ذهبوا الى أن الذكر أمر شرعى مفروض فما هو هذا الذكر ؟

هل هو الذكر المبنى على آداب الشرع دون مصاحبة لما يشغله عن الحق تعالى من أدوات اللهو والموسيقى والطرب ؟ أما اذا كان معه انشاد لبعض المعانى الرقيقة الرفيعة التى تثير النشاط والشوق الى الحق تعالى وتحرك الهممة اليه ، فقد عد أئمة الصوفية هذا من الأمور المباحة ، وهذا ما يوضحه قول أحمد الرفاعى « اذا دخلتم مجالس الذكر ، فراقبوا المذكر واسمعوا بأذن واعية ، اذا ذكر الحادى أسماء الصالحين فالزموا انفسكم اتباعهم لتكونوا معهم (المرء مع من أحب) او حبوا وعليكم التخلق بأخلاقهم » (٣٣) .

كما يذهب الصوفية ايضا الى أنه إذا سمع المريد ما يذكره بالحق تعالى أو ما يحثه على التوبة من الذنوب والخوف والرجاء للحق تعالى والشوق الى لقائه كان هذا المسموع من الأمور الضرورية عند الصوفية ، كما أن أهمية سماع الذكر عند الصوفية لا تقتصر على سماع بيت يحث على التوبة أو الخوف من الحق تعالى ، وانما تمتد الى التدبير والتفكير فى قدرة الحق تعالى وتسبيحه ، وهذا ما ذكره السهروردي بقوله : « فالسامع من الشعر بيتاً يأخذ منه معنى يذكره ربه اما قرعاً ، أو حزناً أو انكساراً ، أو افتقاراً ، كيف يقرب قلبه فى أنواع ذلك ذاكراً

(٣٢) بستان العارفين : ص ١٨ .

(٣٣) محمود مصطفى شحاته : أهمية الذكر عند الصوفية مؤكداً بالكتاب والسنة ، ابن تيمية ، ابن قيم الجوزية ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، ص ١٢٠ : ١٢٣ .

لربه ، ولو سميع صوت طائن طاب له ذلك الصوت وتذكر في قدرة
الله تعالى وتسويته حجرة الطائر وتسخير خلقه . . ، فإذا سميع
صوت آدمي وحضره مثل ذلك الفكر وأمتلأ بطنه ذاكرةً وفكر فكيف
ينكر ذلك » (٣٤) .

وإذا كان الصوفية الأوائل قد وضعوا العديد من الآداب لمجالس
الذكر ، إلا أن الطرق الصوفية الآن لم تعد تلتزم بتلك الآداب ، فقد
تنقلب مجالس الذكر أحياناً إلى مجالس فنية للغناء والطرب أو صياح
وعويل وأصوات عالية وغير ذلك مما هو يبرأ منه الإسلام ، وهذا
ما يوضحه الإمام المجدد ابن باديس من خلال نقده لطريقة الذكر
ومجالس السماع عند بعض الصوفية : « يأخذ ابن باديس على الصوفية
اشتغالهم الكلي بالذكر اللساني فيأتون منه بالآلاف ، فيما يرددونه منه
بأصواتهم ، وفاتهم جانب التفكير الذي هو أعظم أذكار القلب جميعها ،
وما الذكر اللساني إلا إحدى وسائله ومن ثم تشغلهم الوسيلة عن
المقصود ، وليس ذلك هو ما كان عليه النبي ﷺ فقد كان دائم
الفكر ، وفضلاً عن هذا كله فإن الاستغراق في مجالس الذكر . . قد
يقطعهم عن مجالس العلم . . ، كما يصف ابن باديس مجالسهم . . ،
ولنشاهد أكبر مهزلة يبرأ منها الإسلام ، صياح وعويل من الدار ، وأذان
وتكبير ، وصلاة على النبي ﷺ ، وسورة البقرة ويس وتبارك ، وجمهرة
وتخريج وأحزاب قاذرية ومدايح عيساوية وطبيسة شاذلية
وتيجانية » (٣٥) .

ويشرح لنا الأستاذ الدكتور أحمد الجزار لماذا هاجم ابن باديس
الطرق الصوفية ووجه نقداً لطريقة الذكر في مجالسهم بقوله : « ولا يعيب
ابن باديس على الصوفية اشتغالهم بالذكر بما هو ذكر ، إذ العبد مأمور
بذكر الله ، ولكنه يعيب عليهم اشتغالهم بالذكر بصيغ من صنعهم مما
يخالف الأذكار الشرعية ، وهي عنده تستقي من القرآن أولاً فقد احتوى
على أفضل الأذكار ، فوق أنه هو الذكر الحقيقي نفسه يضاف إلى هذا
ما ورد عن النبي ﷺ من الأذكار مما ينبغي أن تكون أذكارا للأخذين
بسننهم تولا وعملها » (٣٦) .

(٣٤) غوارف المعارف : ص ١٨١ ، وانظر بوارق الألاع في تكفير من يحرم السماع ،
بدون ترقيم صفحات .

(٣٥) د أحمد الجزار : الإمام المجدد ابن باديس والتصوف ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٣٦) د أحمد الجزار : الإمام المجدد ابن باديس والتصوف ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

وإذا كان ابن باديس قد انتقد مجالس الذكر والسماع لما يقسام بها من أمور تخالف الشرع ، فان الدكتور زكى مبارك يقدم لنا الشرح والوصف التحليلي لما يدور داخل جلسات الذكر ، اذ هي مجالس للذكر الحق في الظاهر ، لكنها في الحقيقة هي مجالس طرب وغناء ، ومن هذه المجالس تخرج العديد من المغنين ، وهذا ما يوضحه بقوله : « وقد لاحظت أن مجالس الصوفية كانت تنقلب أحيانا الى مجالس فنية فهي مجالس تعتقد ظاهرا لذكر الله ، ولكن الغرض منها الغناء ، فقد كان في الحسين منزل تقام فيه حضرة كل ليلة ثلاثاء ، وكان ذكر الله في الله في الصورة الشكلية يتولاه طائفة من العجزة عجزة الدراويش ، أما نظام المجلس فيقوم على فن الشيخ حسن الحويحي ، وكان منشداً حلو الصوت عذب الأداء .. » (٣٧) .

اننا نسمى مثل هذه المجالس الصوفية مجالس شذوذ ، ذلك لأنهم لن يلتزموا بأداب مجالس السماع والذكر من خلال سماع الأبيات التي تثير الشهوة وتدعو الى الخروج عن حدود الشرع وحدود آداب السماع الحق ، فمثل هذه المجالس كانت تشبه بالمدارس لتخريج المغنيين والمولدين والدراويش ، أما اذا كانت هذه المجالس تدعو الى سماع الأبيات والأشعار التي تحث على الطاعة والعمل الصالح ، فانها تكون مجالس صالحة وملتزمة بأداب الصوفية في ذلك المجلس .

ويذهب الصوفية الى أن الجهر بالذكر لا تنكره الا نفس جاهلة غيبة ، ذلك لأن للذكر أهمية عظيمة للسامعين من حيث ايقاظ قلب الذاكر وجمع همته وسمعه الى معاني المسموع ويزيده نشاطا ويبعده عن الغفلة ، وذلك على حد تعبير أبي بكر محمد البنانى : « حقيقة ما عليه الصوفية لا ينكرها الا كل نفس جاهلة غيبة وأما خلق الذكر والجهر به وانشاد القصائد فقد جاء في الحديث ما يقتضى طلب الجهر

(٣٧) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق : ج ٢ ، ص ١٦٨ ، ٢٦٩ .

(وفي بداية هذا القرن كانت مجالس الذكر الصوفى بداية لتخريج العديد من المغنيين والنشيديين من خلال التردد على هذه المجالس ، وهذا ما يوضحه د. زكى مبارك بقوله : أن مجالس الذكر كانت مدرسة لتخريج المغنيين ففيها ظهرت تباشير النبرغ للمطربين عبد الحامولى ، ومحمد عثمان وسلامة حجازى ويوسف المنيلوى وسيد درويش ، وفي القرى المصرية فئات من قراء الموالد هم فى الأصل من أتباع الصوفية ، انظر زكى مبارك : التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق : ج ٢ ، ص ٢٧٠ .

به نحو قوله في الحديث القدسي « وان ذكرنى في ملاً ذكرته في ملاً خير منه » رواه البخارى ومسلم والترمذى . . ، وان ذلك يتعدى فائدته الى السامعين ويوقظ قلب الذاكر ويجمع همته الى الذكر ويصرف سمعه اليه ويطرد النوم ويزيد النشاط « (٣٨) .

فالذكر اذن وسيلة لتطهير النفس وتنقية الباطن من الآفات السيئة والخروج من ميدان الغفلة ، وقيمة الذكر للسامع ان له فائدتين من الناحية الاخلاقية والناحية الروحية ، فالناحية الاخلاقية تتمثل في فراغ القلب من كل هم وفكر ، اى أنه وسيلة لغاية اسمى وأهم الا وهى تطهير القلب ، أما الجانب الروحى فهو اهمال وسلب كل ما سوى الحق تعالى ، وذلك كما يقول عبد القادر الجيلانى : « ان لا يتكلفوا السماع ولا يستقبلوه بالاختيار فاذا اتفق السماع فمن حق المستمع ان يقعد بشرط الأدب ذاكرآ لربه بقلبه مشغلا بحفظ قلبه من طوارق الغفلة والنسيان فاذا قرع سمعه شئ يرى القارئ للقرآن كأنه مستنطق من قبل للحق عز وجل » (٣٩) .

[٢] السماع وحال يقين القلب وحضوره .

لقد ربط الصوفية أيضاً بين السماع وحضور القلب ويقينه أثناء السماع ، واليقين هو ذهاب ظلمة الشك والريب في المسموع ، اى سماع تدبر وعظة ، أما سماع الظاهر فلا عبرة به ولا عظة ، والسماع الحقيقى هو سماع القبول والطاعة ، وذلك على حد تعبير القشيري : « ان السمع فى الحقيقة سماع القبول ، وذلك عن عين اليقين يصدر ، فأما سماع الظاهر فلا عبرة به » (٤٠) .

والحضور عند الصوفية لا يعنى الحضور المادى (الجسد) وإنما يعنى حضور القلب مع الحق تعالى ، ولا يتم ذلك الا اذا كان حاضراً فى السماع بمعنى الثبات والتمكين فى السماع وفهمه ، وهذا ما يوضحه قول ابن عربى : « ان السمع لا يحضر الا مع الحضور أعنى

(٣٨) ابن تيمية : الفتوى الحموية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٧٨ هـ ، ص ٦٣ ، وانظر قول خير الدين الرملى فى تحفة أهل الفتوحات والأذواق : تأليف أبى بكر البنائى ، مطبعة التقدم ، ١٩٧٧ م ، ص ٦٣ .
(٣٩) الغنية لطالبى طريق الحق عز وجل : ج ٢ ، ص ٣٥٧ .
(٤٠) لطائف الاشارات : ج ٢ ، ص ١٦١ ، وانظر التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص ١٦١ .

حضور القلب » (٤١) ، ويقول في نفس المعنى السابق أيضاً أبو عثمان المغربي : « قلوب أهل الحق حاضرة وأسماعهم أسمع مفتوحة » (٤٢) .

إذن فالحضور عند الصوفية هو أن تسمع ما يلقي عليك كأنك تسمعه من الرسول ﷺ ، ثم من جبريل ثم من الحق تعالى ، وهذا كمال الحضور في السماع ، أى فراغ القلب من كل هم وفكر ، وقوة المشاهدة لنور الحق تعالى وصفاء الذكر وحسن الأدب في السماع ، وهذا ما يوضحه الخراز بقوله : « أول القاء السمع لاستماع القرآن هو أن تسمعه كأنك النبی ﷺ يقرؤه عليك ثم ترقى كأنك تسمعه من جبريل عليه السلام ثم ترقى كأنك تسمعه من الحق » (٤٣) .

[٣] السماع وحال الأنس *

حال الأنس هو الاعتماد على الحق تعالى والسكون اليه والاستعانة به ، والأنس في السماع هو الأنس بالله تعالى واستوحاش سماع ما سواه من الأغيار والأستار ، كما أن الأنس لا يتم إلا لعبد قدام بكل حقوق الله ، وكملت طهارته وصفا ذكره وتحلى بالأخلاق الحيدة ، فعند ذلك يكون الحق تعالى مؤنس ، وهذا ما يوضحه أبو سعيد الخراز بقوله : « من ادعى أنه مغلوب في السماع فعلامته الصحيحة أن لا يبقى في ذلك المجلس محق الأنس به ولا مبطل إلا استوحش منه » (٤٤) .

كما يجعل الصوفية الأنس بنور الحق تعالى الدرجة الأولى من درجات السماع ، وهو الأنس بسماع القرآن الكريم الذي هو غذاء العارفين مستوحشاً من السماع الشيطاني المشتتل على محاب النفوس ولذاتها (أى سماع الغناء) وهذا ما يوضحه ابن قيم الجوزية بقوله : « وهو على ثلاث درجات : الدرجة الأولى الأنس بالشواهد ، وهو استحلال الذكر والتغذى بالسماع والوقوف على الاشارات ، فهو يستأنس بالذكر طلباً لاستئناسه بالذكور ، ويتغذى بالسماع كما يتغذى الجسم بالطعام والشراب ، فإن كان محباً صادقاً طالباً لله عاملاً على

(٤١) مواقع النجوم : ص ٧٧ ، وانظر الاشارات الالهية : ج ١ ، ص ١٢٨ ، وانظر التصوف الاسلامي في مدرسة بغداد ، ص ٢٨٢ .
(٤٢) فتح الاسماع في شرح السماع : ص ٨٢ ، وانظر الرسالة القشيرية في علم التصوف ، ص ٢٦٦ ، وانظر قول أبو عمرو القرشي في الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١٣٠ .

(٤٣) اللمع : ص ١١٣ ، ٣٥٥ .

(٤٤) الكواكب البدية : ج ١ ، ص ١٩٠ ، وانظر الرسالة القشيرية شرح زكريا الانصاري : ص ٢٦٧ ، وانظر أيضاً العارف بالله ذو النون المصري : ص ١٥٢ .

مرضاته، كان غذاؤه بالسماع القرآني الذي كان غذاء سادات العارفين . .
وان كان منحرفاً فاسد الحال ملبوساً عليه . . ، كان غذاؤه بالسماع
الشيطاني الذي هو قرآن الشيطان المشتغل على محاسب النفوس
ولذاتها « (٤٥) » .

كما يذهب الصوفية أيضاً الى أن العبد اذا تحقق بالمحبة الالهية
تحقق له الأتس من خلال سماعه لما يحبه الحق تعالى ، فالمحبة شرط
أساسي للسماع ، والعبد المحب لله يستوحش من سماع كلام غير
كلام الحق تعالى ويأنس ويستلذ بسماع الخطاب الالهي ، « وهذا
ما يؤكد القشيري بقوله : اعلم أن الاحباب يحبون سماع كلامه فطول
عليهم القول الى آخر الآية ، ليزدادوا عند سماع ذلك أنساً على أنس
وروحاً على روح » (٤٦) .

كما يؤكد الصوفية على أن المحبة تجعل صاحبها في أعلى درجة
من درجات السماع ، ذلك لأنهم يحبون أن يسمعوا كلام الحق تعالى ،
ومن ثم فالحق تعالى يحب أن يسمع كلامهم ، وهذا ما يوضحه المكي
بقوله : « اهل المحبة يحبون أن يسمعوا كلامه ، وهو يحب أن يسمع
كلامهم » (٤٧) ، وكذلك يقول ابن عربي : « المرء مع من جالس لأن
المجالسة والاستماع ينتجان عن المحبة وقال عليه السلام » المرء مع من
أحب » (٤٨) .

إذن فالأنس حال سوى يجعل المرء في قرب من الحق تعالى من
لخلال سماعه للكلام الحسن وحب الطاعة لهذا الكلام والعمل به .

[٤] السماع وحال الخوف .

أما عن ارتباط السماع بحال الخوف عند الصوفية ، فانهم رأوا أن
المريد الواثق بالله لا يهتم بالأسباب ولا يخاف خذلان الحق وإنما يسمع
ما يخوفه من أهوال يوم القيامة ، أو سماع الخوف من العقاب من فوت
ثواب ، أو فوت الأتس والقرب ، وهذا الخوف يثمر عنه البكاء أو تغير
اللون والحزن أو الشهمة ، ولهذا كان سماع القرآن الكريم أشد تأثيراً

(٤٥) مدارج السالكين : ج ٢ ، ص ٢٠٦ .

(٤٦) لطائف الاشارات : ج ٤ ، ص ٢٢٥ .

(٤٧) قوت القلوب : ج ٢ ، ص ١٤٠ .

(٤٨) مواقع النجوم : ص ٧٥ .

على نفس المستمع من تأثير الغناء والانشاد ، وهذا ما يوضحه العز ابن عبد السلام : « السماع يختلف باختلاف السامعين والمسموع منهم - وهم أقسام أحدها : العارفون بالله : ويختلف باختلاف أحوالهم ، فمن غلب عليه الخوف أثر فيه سماع المخوفات وظهر أثر ما عليه من البكاء وتغير اللون والحزن ، والخوف ، أما خوف عقاب أو خوف فوت ثواب ، أو فوت الأنس والقرب ، وهذا من أفضل الخائفين وأفضل السامعين فمثله لا يتصنع ولا يصدر منه الا ما غلب من آثار الخوف ، وهذا اذا سمع القرآن كان تأثيره فيه أشد من تأثير الانشاد والغناء » (٤٩) .

وإذا كان خوف العارفين هو الخوف من أهوال يوم القيامة أو خوف فوت ثواب أو خوف فوت الأنس والقرب من الحق تعالى ، فإن خوف العام فيما يرى الصوفية هو حفظ وصون السمع عن سماع ما يخالف الشرع ، وكذلك حفظ جميع الجوارح ، والسماع لا يثمر شيئاً في القلب وإنما يحرك ما في القلوب من السرور والحزن والخوف والرجاء والشوق حتى تبكى أو تطرب ، ولهذا قيل : « السماع يحرك ما تنطوى عليه القلوب من السرور والحزن والخوف والرجاء والشوق فربما يحركه للبكا وربما يحركه للطرب » (٥٠) .

وقد يكون البكاء عند الصوفية نتيجة الخوف وفهم معاني المسموع وتدبر معناه وقد يكون أيضاً نتيجة للشوق والفرح بلقاء الحق تعالى ، وذلك على حد قول الشيخ حماد : « اعلم أن للبائكين عند السماع مواجيد مختلفة فمنهم من يبكى خوفاً ، ومنهم من يبكى شوقاً ، ومنهم من يبكى فرحاً كما قال القائل :

طفح السرور على حتى أننى من عظم ما قد سرنى أبكاني » (٥١)
وإذا كان للخوف أهمية عظيمة في السماع ، فإن هذه الأهمية لا تكتمل الا بالرجاء للحق تعالى ، ذلك لأن الخوف والرجاء هما جناحا السماع ، لا يكتمل الا بهما فيسمع المريد التشديد فيخشى ويرهب الحق تعالى ، ويسمع اللين فيرجوه ، اذ انه يجب على المريد أن يرجو الحق

(٤٩) كلف الرعاع عن محرمات الله والسماع : ص ٢٧ ، وانظر قول المكي في التصوف الاسلامي في الأدب والأخلاق : ج ٢ ، ص ١٥٣ ، وانظر قول عبد الرهاب الشعرائي في تنبيه المغترين : ص ٣٣ .

(٥٠) آداب المريدين : ص ٤١ .

(٥١) حواريف المعارف : ص ١٩٦ .

تعالى في كل ما يريده من أمور الدنيا ولا يرجو ما سواه ، فالرجاء والدعاء هما وسيلة الربط بين العبد وربّه ، ولهذا قال سفيان الثوري :

« تسمع التشديد فتخشى ، وتسمع اللين فترجوه لأهل القبلة ، ولا نقص » (٥٢) .

ويذهب الصوفية الى ان المريد اذا سمع بحق ظهرت عليه معالم الخوف من أهوال يوم القيامة ، وفاضت عيناه بالدموع وأقشعر جلده وبكى وذلك حال معظم الصوفية ، ومن بينهم الفضيل بن عياض حيث كان « اذا ذكر الله أو ذكر عنده أو سمع القرآن ظهر به الخوف ، وفاضت عيناه ، وبكى حتى يرحمه من يحضره ، وكان دائم الحزن شديد الفكر » (٥٣) ، وهذا ما يؤكد قول الحق تعالى :

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ
تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْبُرْنَا
مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٤) .

فالنفس الانسانية اذا حزنت خمد هواها وشهواتها عند السماع الحق ، أما اذا سمعت ما يطر بها ويسعدها ازداد واشتعل فيها حب سماع الشهوات والأهواء ولهذا استخدم ملوك فارس السماع في التفريج عن المحزون وأيضا في علاج اصحاب المرض ، إذ ان سماع بعض آيات الذكر الحكيم أو مقطوعة موسيقية تبعد الهم والتفكير من بال الانسان ، وهذا ما يوضحه أفلاطون بقوله : « من حزن يطر بها الأصوات الحسنة ، فان النفس اذا حزنت خمد نورها . واذا سمعت ما يطر بها ويبهرها اشتعل منها ما خمد وما زالت ملوك فارس تلهي المحزون باليسماع وتعلل به المريض وتشغله عن التفكير » (٥٥) .

ويعتبر الصوفية الحزن لونا من ألوان الخوف والرهبة للحق تعالى ، لذلك ينصحون المريد وقت السماع بالحزن والبكاء والتأسف على ما ارتكبه من الذنوب والمعاصي وعدم القيام بالطاعات وذلك من

(٥٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : ج ٧ ، ص ٢٩ ، وانظر قوت القلوب : ج ٣ ، ص ١٩٧ .

(٥٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : ج ٨ ، ص ٨٤ ، وانظر لطائف الاشارات .

ج ١ ، ص ٦٥ ، وانظر قول السهروردي في عوارض المعارف : ص ١٧٣ .

(٥٤) سورة المائدة : آية (٨٣) .

(٥٥) مخطوط ايضاح الدلالات في سماع الآلات : ص ١١ .

خلال سماعه للآيات والأبيات والقصائد التى تحت على ذلك وعدم سماعه
لآلات الله والفساد ، وهذا ما يوضحه قول « على الخواص » : ليست
هذه الدار بمحل لسماع الآلات انما هى محل الحزن والبكاء والنحيب
ولا يزالون كذلك الى أن يجاوز الصراط فهناك يخرجون عن
التكف « (٥٦) » .

كما يعتبر الصوفية البكاء عند سماع تلاوة القرآن الكريم حال
الضعفاء من المؤمنين ؛ ذلك أن المؤمن القوى يظل ثابت الحال قبل
السماع وبعده أى سماع عظة وفهم بدون حركة أو اهتزاز ، وهذا
ما يوضحه إبراهيم القادرى بقوله : « وأما البكاء عند التلاوة أو السماع
فهو أقل حالا من أحوال المؤمنين ، والمعتبر فى ذلك بكاء المحبة والشوق
والهبة والخشوع لا بكاء الخوف أو الرجاء فان ذلك حظ
النفس » (٥٧) .

٥] السماع وحال الاستمرارية •

ومن أهم الأحوال أيضا التى ترتبط بالسماع عند الصوفية حال
الاتصال ؛ وهو أن يفصل بسره عما سوى الله ، فلا يسمع الا منه
ولا يشهد غيره فى السماع ، وذلك من خلال دوام واستمرار حال
السماع ، فلا يكون السماع فى وقت ثم ينقطع بل ينبغى أن يكون السماع
متصلا فى جميع الأحوال وليس فى كل الأوقات ، وانما فى الأوقات المناسبة
له ، وهذا ما يوضحه أقوال العديد من الصوفية منها قول الحصرى
« أيش أعمل بسماع ينقطع أن أنقطع من يسمع منه » (٥٨) .

ذلك يعنى أن السماع لا ينتهى بانتهاء شخص معين قائله ، وانما
يستمر السماع من أى شخص قائله ما دام المسموع واحداً وفى مجال
صالح ، وهذا ما يتضح من قول القشيري : « ينبغى أن يكون سماعك
سماعاً متصلاً غيراً منقطع » (٥٩) .

٦] السماع وحال الوصول •

كما يربط الصوفية أيضاً بين السماع وحال الوصول الى الحق
تعالى ، فالعبد لا يصل الى الله تعالى ومعه شهوة من شهواته أو تدبير

(٥٦) بهجة النفوس والأخلاق : بدون ترقيم الصفحات

(٥٧) القادرى (إبراهيم بن محمد الحسينى) : لسان البيان ومنهل العرفان فى

الاسلام والايمان والاحسان ، مطبعة الظاهر ١٣٢٣ هـ ، ص ٣٨ .

(٥٨) مخطوط فتح الاسماع فى شرح السماع ، ص ٨٢ .

(٥٩) مخطوط فتح الاسماع فى شرح السماع ، ص ٨٢ .

من تدبيراته ، أو سماع من أشعاره ، ولن يصل العبد الى الله تعالى الا اذا أظهر الحق له الصفات القدسية وفنى عن صفات العبودية ويكون ذلك علامة الوصول ، أما اذا جعل العبد استماعه (صفات العبودية) واستماع الغناء طريقا الى الله ، فلا يكاد يوصله ذلك الا الى سخط الحق تعالى ، وهذا ما يوضحه قول ابن قدامة « فأما من يجعله ديناً (الدف) ويجعل استماعه الغناء : قرينة وطريقا الى الله سبحانه . . فلا يكاد يوصله ذلك الا الى سخط الله » (٦٠) .

[٧] السماع وحال الثبات والتمكين .

ولقد ربط الصوفية أيضا بين حال الثبات والتمكين والسماع ، والتمكين هو الرسوخ والاستقرار ، وما دام العبد في طريق الوصول من حال الى حال فهو صاحب تلوين واذا وصل حصل له التمكين ، أى أن التمكين عكس التلوين والتردد والانتقال من حال الى حال ، فالمريد القوي الحال في السماع لا يتحرك اذا سمع وانما يكون حاله واحدا قبل السماع وبعده ، وانما الذى يتحرك قلبه تعلقا بذكر الحق تعالى ساكن الجسد والجوارح وهذا ما يوضحه « أبو القاسم الجنيد عندما سئل عن سكونه وقلة اضطراب جوارحه عند السماع فأشار الى ذلك بقوله : قال تعالى :

وَرَى الْجِبَالَ تَحْشَبُهَا جَمَادَةً وَهُمْ تَرْمِيَنَّ السَّكَابَ وَصَحَّ اللَّهُ
الَّذِي أَفْتَحَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تُفَعِّلُونَ (٦١) [(٦٢)]

أى أن حال الثبات والتمكين هو حال الكمل من العباد ، أما من يهتز ويتحرك عند السماع فهو في حال التلوين والانتقال من حال الى حال ، لذلك ترى الرجل ثابتا ساكنا وعندما يسمع شيئا من آيات الذكر الحكيم تراه يضطرب ويهتز ؛ ذلك لأن الروح تتذكر لذة خطاب الحق تعالى في عالم الذر أى عالم ما قبل الخلق أو اتصال الروح بالبدن .

(٦٠) فتيا في ذم الشبابة والرقص والسماع : ص ٦٢ .

(٦١) سورة النمل : آية (٨٨) .

(٦٢) اللمع : ص ١٢٧ ، ٢٩٧ ، وانظر ترتيب السلوك في طريق الله تعالى :

ص ٩٠ ، وانظر التصوف الاسلامي في مدرسة بغداد : ص ٢١٤ ، وانظر كشف القناع عن وجه السماع ، ص ٣ ، وانظر حلية الاولياء وطبقات الاصفياء ، وطبقات : ج ١ ، ص ٢٧١ ، وانظر قطع النزاع وكشف القناع عن دليل جواز السماع : ص ٣٧ ، وانظر بوارق الالامع في تكفير من يحرم السماع ، بدون ترقيم صفحات .

وتلون العبد في أحواله هو التغير وظهور قدرة القادر ، وتلونه
وحركته عند سماع القرآن تختلف عن تلونه عند سماع الأشعار ، ذلك
لأن القرآن الكريم كلام الحق ، أما الأشعار فهي من صنع الانسان ، وإذا
استمع اليها العبد ومال اليها نقص عقله وقل حياؤه وذهبت مروءته
وفارقه بهاؤه ، بعكس سماع القرآن الذى فيه الوقار والبهاء والعقل
والثبات والتكين ، وهذا ما يوضحه قول ابراهيم الخواص : « سئل
ما بال الانسان يتحرك عند سماع غير القرآن ويجد ما لا يجد في سماعه ،
فقال أن سماع القرآن صدمة لا يمكن لأحد أن يتحرك فيه لشدة غلبته
وعظمته وسماع القول ترويح يتحرك فيه » (٦٣) .

ويذهب الصوفية أيضاً الى أن المريد اذا كان قوى الحال كان متمكناً
في السماع ، أما اذا كان ضعيف الحال كان متلونا ومتغيراً وغير ثابت
الحال ، وهذا ما يوضحه أبو عمرو عندما سئل عن السماع فقال :
« ما أدون حال من يحتاج الى مزعج يزعجه اليه ، السماع من ضعف
الحال ، ولو قوى لاستغنى عن السماع والأوتار » (٦٤) ، ويقول أيضاً
في نفس المعنى السابق الكلاباذي : « فالسماع اذا قرع الأسماع آثار
كوامن أسرارها ، فمن بين مضطرب لعجز الصفة عن حمل الوارد ،
ومن بين متمكن بقوة الحال » (٦٥) .

٨] السماع والمحبة الالهية •

كذلك ربط الصوفية بين السماع والمحبة الالهية ، فالحب شعور
باطنى يملك الحياة النفسية كلها في كل الأحوال ويوجهها الى الحق
تعالى ، بحيث لا يجد العبد مع الحق تعالى محبوباً غيره ، وهذا الحب
هو حب لا نهائى ومصدر الحياة وأساس الوجود ، فبداية المحبة
للسماع وينتج عنه الاستحسان ، ثم يقوى هذا فيتولد عنه المودة ، ثم
تقوى هذه المودة فتصير محبة ، وما ينتج عنها من عشق وشوق للحق
تعالى ، ثم يتولد منها اليتيم وهذا أعلى مراحل المحبة الناتجة عن السماع
لما يحبه العبد ويهواه ، وهذا ما يوضحه محمد بن داود بقوله : « ان
الأحوال التى تتولد عن السماع والنظر مختلفة ولها مراتب : فأول
ما يتولد عن النظر والسماع الاستحسان ثم يقوى فيصير مودة »

(٦٣) الكواكب الدرية : ج ١ ، ص ١٨٦ .

(٦٤) طبقات الصوفية : ص ٤٣٢ ، وانظر فتح الاسماع فى شرح السماع

ص ٨٠ ، وانظر قول سهل التستري فى الكواكب الدرية : ج ١ ، ص ٢٣٨ ، وانظر حال

العز بن عبد السلام وحال عمر بن الفارض فى لطائف المئين والأخلاق : ج ٢ ، ص ١٠٧ .

(٦٥) التعرف لمذهب أهل التصوف : ص ١٩٠ .

والمودة سبب الإرادة ، فمن ود انسانا ود أن يكون له خلا ومن ود
غرضاً ود أن يكون له ملكاً ثم تقوى المودة فتصير محبة ثم تقوى فتصير
خلة ، ثم تقوى الخلّة فتوجب الهوى ، ثم يقوى الهوى ، فيصير
عشيقاً .. » (٦٦) .

محبة العبد لله لا تكون الا اثبات الحق تعالى في القلب وكراهية
كل ما سواه من الأغيار والسوى ، فالمحبة هي من الأخلاق الحميدة
وهي نتيجة السماع لله تعالى ، فمتى تحقق العبد بالمعنى الكامل للسمع
وجد محبة الله له ميراث سماعه ، ويوضح لنا ابن الخطيب : « أن
السماع محرك الحب على الاطلاق فما دام في هذه الرتبة عد سبباً ،
واذا حصل الحب اختلفت فيه أحوال العشاق بحسب ضعفهم
وتمكينهم ، فمنهم من يكون في حقه معتدلاً ، ومنهم من يكون في حقه مغرباً
أو مهلكاً ، فاذا حصل الرسوخ والتمكين لم يكن به احساس » (٦٧) .

تختلف أحوال المريدين في حال الحب فمنهم من يكون قوى الحال ،
ومنهم من يكون ضعيفاً ومنهم من يكون معتدلاً واذا حصل له الرسوخ
والتمكين والثبات على حال الحب الالهي لا يكون له احساس بما حوله
نتيجة لفناء ارادته في ارادة الحق تعالى ، وكذلك فناؤه عن نفسه ،
فبالحب يتذوق الانسان ما يسمعه من الأصوات الجميلة وأصوات
الطيور والرياح ، ولهذا ذهب الصوفية الى أن الحب أصل كل عمل ،
واذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل ، فأصل الأعمال الدينية
حب الله ورسوله ، وكل ارادة تمنع كمال الحب لله ورسوله ﷺ
وتزاحم هذه المحبة فهي تعارض الشرع ، فذلك السماع الحسن ينتج
عن المحبة لما يسمع وهذا يوافق الشرع ، وذلك على حد قول ابي عثمان
المغربي : « كل من يدعى حب السماع ولا يتذوق أنعام الطيور وأصوات
الوحوش وصرير الرياح فانه كذاب » (٦٨) .

وإذا أخلص العبد في سماعه بأن ترك حب سماع الحرام وسماع
الغناء وتحقق بحب سماع القرآن والمواظط وغنى في هذا السماع عما

(٦٦) التصوف الاسلامي في الأدب والأخلاق : ج ٢ ، ص ١٦٦ ، وانظر قول
أبو سليمان الوراق في أحياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٢٥٦ ، وانظر قول عز الدين
ابن عبد السلام في حل الرموز ومفاتيح الكنوز : ص ٦٦ ، ٦٧ ، وانظر بوارق الألائع
في تكفير من يحرم السماع بدون ترقيم ، وانظر أيضا قول الغزالي في كف الرعاع عن
محرمات الله والسماع ، ص ٢٧ .
(٦٧) ابن الخطيب (لسان الدين الخطيب بن الوزير) : روضة التعريف بالحب
الشريف ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م ، الطبعة الأولى ،
ص ٢٧١ .

(٦٨) تاريخ التصوف الاسلامي : ج ٢ ، ص ٥٦٥ .

سواه ، كان الحق تعالى سمعه الذى يسمع به كما فى الحديث القدسى « ما تقرب الى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يمشى » (٦٩) .

فالآلات التى ذكرها الحق تعالى فى الحديث القدسى من السمع والبصر واليد والرجل هما آلات الادراك وهما يوردان على القلب الحب والبغض ، وإذا كان العبد محفوظاً فى سمعه وبصره كان محفوظاً فى حبه وبغضه .

من ذلك يتضح لنا أن الصوفية لا تعنى بالمحبة محبة سماع سوى الحق تعالى من المخلوقين ، وإنما المحبة تعنى حب سماع القيام بأمر الله ونهيه ، أى حب ما يحبه الله وكراهية ما يكره الله ، وهذه المحبة تقتضى منه ايثار سماع الحق على كل شيء سواه والاستغراق فى المحبوب ، وما لم يكن مستغرقاً فى محبوبه كان ناقصاً فى محبته ، وذلك من خلال حضور قلبه مع الحق تعالى ، وهذا ما توضحه أقوال العديد من الصوفية : « اختلف المشايخ والمحققون فى السماع ، فقالت طائفة انه آلة الغيب ، وقالت جماعة : ان السماع آلة الحضور ، لأن المحبة تقتضى الكلية ، وما لم يكن كل الحب مستغرقاً فى المحبوب يكون ناقصاً فى المحبة » (٧٠) ، وكذلك يقول ابن القيم : « والقلب يتأثر بالسماع بحسب ما فيه من المحبة ، وإذا امتلأ من محبة الله وسمع كلام محبوبه أى بمصاحبته وحضور فى قلبه — فله من سماعه هذا شأن ولغيره شأن آخر » (٧١) .

كما يذهب الصوفية الى أن المحبة الالهية كامنة فى القلب ، وهذه المحبة لا تتحرك الا بوجود باعث يحركها ، وهذا الباعث هو السماع ، كما أن هذه المحبة تشبه النار فى كمونها تحت الرماد لا يحركها الا سبب وتظهر آثارها وتختلف قوتها حسب اختلاف محرکها ، وهذا ما يوضحه

(٦٩) الجواب الكافى لمن سال عن الدواء الشافى : ص ٢٠٨ : ٢١٠ ، أخرجه البخارى . وانظر محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الاسلام ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى الحلبي ١٩٤٥ م ، ص ٢٩ ، وانظر غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العثمانية : ج ١ ، ص ٣١٣ .

(٧٠) كشف المحجوب : ج ٢ ، ص ٦٥٤ .

(٧١) ابن القيم : مدارج السالكين : ج ١ ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ . وانظر عبد المنعم صالح العلى : تهذيب مدارج السالكين / دار الوفاء للطباعة والنشر . ١٩٨٣ م ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

قول نور بن حمد دين : « واعلم أن المحبة في القلب كامنة فيه ككبرون النار تحت الرماد ، ولا تتحرك هذه النار الا بسبب كما لا تتحرك النار العادية الا بسبب . . ، فكذا نار المحبة تكون هامة غالبا حتى تجد سببا يحركها ، والسبب المحرك هو السماع . . . » (٧٢) .

[٩] السماع وحال الفناء والبقاء •

يعتبر الصوفية أن الفناء عن هوى النفس وشهواتها أحد معاني السماع وأيضا الفناء عن السماع نفسه وقت السماع من أعلى مراحل السماع ، هذا الفناء ينشأ عن شدة المحبة الالهية والصدق فيها والشوق الى لقاء الحق تعالى ، وذلك من خلال سماع القرآن الكريم والسماع الحسن ، أما الذي غلب عليه حب الخلق وعشق الرباعيات لا يتحقق بالمحبة الالهية ، وينتج عن هذه المحبة حال يسمى « الوجد » ، وهذا ما يوضحه الغزالي بقوله : « الوجد الحق هو ما ينشأ من فرط حب الله تعالى وصدق ارادته والشوق الى لقائه ، وذلك يهيج بسماع القرآن أيضا ، وانما الذي لا يهيج بسماع القرآن حب الخلق وعشق المخلوق » (٧٣) .

والفناء الصوفي هو فناء صفات النفس وأوصافها الخبيثة والبقاء بصفات الكمال أثناء السماع ، أى البعد عن رذائل الأخلاق والسماع السيئ « الغناء البارح » والبقاء بالفضائل والسماع الحسن ، الفناء الصوفي هو وسيلة وأداة لازالة الحجب والاستار بين العبد والحق تعالى حتى يتحقق العبد بمشاهدة المحبوب (الحق) ، وعندما يفتى المريد في سماعه ويكون صادقا في هذا الفناء يحدث له حالة من الوجد ، وهذه الحالة عنصر مساعد على المشاهدة الالهية ، أما التواجد فهو حالة يتظاهر بها العبد أمام أعوانه فهي ليست من عند الحق تعالى ، وهذا ما يوضحه ابو على الروذباري عندما سئل عن الوجد في السماع فقال : « مكاشفة الأسرار الى مشاهدة المحبوب » (٧٤) .

(٧٢) قطع النزاع وكشف القناع عن دليل جواز السماع : ص ٤ ، ٥ .

(٧٣) احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٣٧٩ .

(٧٤) القشيري (عبد الكريم بن هوازن) : شرح أسماء الله الحسنى ، تحقيق وشرح أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلواني ، القاهرة ، مجمع البحوث الاسلامية ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م ، ص ٣٣٩ ، وانظر أيضا قول بعض الصوفية في « ابو العباس المرسي » ، ص ٤٦ .

كما يذهب ابن الفارض الى أن في المحبة الالهية والفناء فيها راحة للنفس وطمأنينة للقلب وشفاء من أمراض النفس ، وبالمحبة الالهية تصل نفس الصوفي الى الصفاء والنقاء ، هذا الصفاء هو أساس الوجود ، وعلى ذلك فان هذا الحب دائم ومستقر ، وبدون هذا الحب لا يصح السماع ، ذلك لأن العبد لا يسمع الا ما يحبه ويهواه فؤاده ، لذلك ينشد شعراً :

نحت بحبي آية العشق من قبلي
فاهل الهوى جندى وحكى على اكل
وكل فتى يهوى فاني امامه
واني برىء من فتى سامع العذل
ولى في الهوى علم تجل صفاته
ومن لم يفقه الهوى فهو في جهل « (٧٥) .

لا شك أن صدق الحال وفناء النفس عن الرذائل في السماع مطلب عام للصوفية جميعاً ، فهم يطالبون المريد بالفناء عن نفسه ويسمع ويعي كل ما يسمعه ويعزل نفسه عن صفاتها وأهوائها ، ويبقى بصفات الحق تعالى ، وهذا ما يوضحه الحسين بن منصور بن الحلاج عندما يدعو المريد الى الاتحاد ، وهو شعور نفسى بالاتحاد بالذات الالهية أثناء الوجد الناتج عن السماع الحسن بقوله : « المحب هنا يعزل نفسه عن صفاتها ، بأن ينظر وكأنه بمثابة النظر لا الناظر ، ويسمع ويعي وكأنه بمثابة السمع والوعى ، لا السامع والواعى » (٧٦) .

بعد أن تفهمنا السماع ، ووقفنا على معناه ، وعرفنا أثره من الناحية النفسية ، واعتباره عند الصوفية وسيلة وأداة للارتقاء بالنفس الانسانية الى غاية الحياة الكاملة التي لا يشوبها نقص أو تقصير في

(٧٥) ابن الفارض والحب الالهى : ص ١٧٢ : ١٨٧ ، ٢١٨ ، وانظر د . محمد مصطفى حلمي : الحب الالهى في التصوف الاسلامى ، دار الكتب ، ١٩٦٠ م ، ص ١١٥ ، وانظر التصوف الاسلامى في الادب والاخلاق : ج ١ ، ص ٢٩٩ ، وانظر الحياة الروحية في الاسلام : ص ١٤٨ ، وانظر قول رابعة العدوية في المحبة الالهية ، لويس ماسينيون ومصطفى عبد الرازق : الاسلام والتصوف ، اعداد ابراهيم زكى خورشيد ، د . عبد الحميد تونسى ، دار الشعب ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ، ص ٧٦ .
(٧٦) طه عبد الباقي سرور : الحسين بن منصور الحلاج شهيد التصوف الاسلامى ، دار نهضة مصر ، ١٩٨١ م ، ص ٢٧ .

أمر من أوامر الشرع ، وعرفنا كيف يعقد الصوفية جلسات السماع ،
وأنهم يتفاوتون في التأثير بمعاني المسموع مما أدى إلى اختلاف مقامات
السامعين وأحوالهم .

كما عرفنا أيضاً الآداب التي يلتزم بها الصوفية في مجالس السماع،
كما تبيننا أنه يجب على المريد الندم والتوبة من الذنوب والمعاصي في
سماعه ، وأن يكون صادقاً مع نفسه ومع الحق تعالى في سماعه ،
وأن يتحلى بالورع والتخلص من مظالم الخلق ومظاهر الدنيا ، وأن
يزهد في سماع الرذائل والمعاصي ، ويكثر من سماع الحكم والمواعظ
والعمل بها ، وأن يكون مستقيماً في سماعه ولا يسمع من أجل كسب
مادى أو جاه ، أى سماع فقر إلى الحق تعالى في سماعه بعدم الانصات
لصاحب بدعة ، وأن يفنى في سماعه عن الخبائث والأهواء ، ويبقى
بصفات الحق تعالى ، ويظل ثابت الخال غير متحرك عند السماع
غير متلون ؛ ذلك لأن الثبات والتمكين من صفات قوى الحال . وأن
يسمع ويحب كل ما يحبه الحق تعالى ويفضل سماع القرآن الكريم
على سماع النغمات والألحان .

يجمع الصوفية على ضرورة تخلي العبد عن الصفات المذمومة ،
والتحلى بالأوصاف والصفات الحميدة في السماع ، وذلك عن طريق
مجاهدة النفس ورياضتها بحيث أنها تهيل إلى كل ما هو مذكوم ، حتى
يمكن اكتساب الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة ، وإذا تعلق قلب
السامع بالحق تعالى في سماعه غير ناظر إلى ما سواه ، وشهد احدىة
الله في كل أحواله وأعماله أصبح متحققاً بالمعرفة الإلهية .

فالسماح على الأحوال نوع من القصور نظراً لوجود صفات النفس
البشرية ، وإنما الكمال أن يفنى عن نفسه وأحوالها مثل حال النسوة
اللاتى قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دهشن
وسقطن احساسهن ، بمعنى أن يكون سماعه بالله ، والله وفى الله ومن الله
وهذه رتبة من قطع العلائق والعوائق ، وذلك ما يؤكده الهوى بقوله :
« السماع على الأحوال وهى ممتزجة بصفات البشرية نوع قصور وإنما
الكمال أن يفنى عن نفسه وأحوالها يعنى أنه ينساها فلا يبقى له
التفات إليها كما لم يكن للنسوة ، التفات إلى اليد والسكين ويسمع الله
ولله وفى الله ومن الله » (٧٧) .

(٧٧) الغزالي : احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ ، وانظر فتح الاسماع فى

شرح السماع ، ص ٨٧ .

وينبه الصوفية الى أن الكمال في السماع لا يتحقق للسالك الا اذا
فنى عما سوى الحق تعالى ، أى عدم شهود الأكوان وقت السماع ،
وهذا ما يوضحه داود بن ماخلأ بقوله : « أول مراتب السماع للقرآن
غيبية السامع عن شهود الأكوان » (٧٨) .

كما يعتبر الصوفية السماع هو درجة الكمال التى يبلغها المرید
العارف بالطاعات والواجبات ، وتجرده من أهواء نفسه وشهواتها
من خلال مجاهدة النفس حتى يتم له حال الكشف والمشاهدة للنور
الالهى أى أن الغناء فى السماع هو الغناء عن السماع السيئ والبقاء
بالسماع الحسن ، وهذا ما يوضحه الهجویری بقوله : « هو درجة
كمال يبلغها العارفون الذين انتهى بهم الطلب الى الكشف غراوا كل
مرئى ، وسبعوا كل مسموع ، وأدركوا كل أسرار القلب والذين اعترفوا
بنقص كشفهم فأعرضوا عن كل شئ وفنوا فى مقصدهم وفنيت فى هذا
المقصد كل مقاصدهم » (٧٩) .

والفناء عند الصوفية هو فناء أوصاف النفس ومحو الزائل ،
والبقاء بأوصاف الحق ووجوده الدائم ، إذ يفنى العبد اذا سمع آية من
آيات القرآن الكريم عن رؤية الأشياء والأغيار ثم بعدها يعود الى
أحواله والى الناس ، وهذا ما يوضحه قول أبى على المغازلى عندما
سأل الشبلى فقال : « ربما يطرق سمعى آية من كتاب الله عز وجل
فتحدو بى على ترك الأشياء والاعراض عن الدنيا ثم أرجع الى أحوالى
والى الناس » (٨٠) .

(٧٨) الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٢١٥ .

(هو داود الكبير بن ماخلأ شيخ سيدى محمد وفى الشاذلى ، كان رضى الله عنه
شرطيا فى بيت الوالى بالاسكندرية وكان يجلس تجاه الوالى وبينهما اشارة يفهم منها
وقوع المتهم أو براءته وله كلام عال فى الطريق ، وكان أميا لا يكتب ولا يقرأ ومن
كلامه ما وردت حقيقة على عارف قط الا وذهب شاهده تحت سلطان أنوارها وأما السماع
عنه فيمكن بقاء شاهده مع وجود تلقىها منه لأنها وردت من بشير اليه ، وكان يقول
اذا تكلم العارف بكلمة غاب فيها وجود المستمع وذلك لان الكلام نكر والسماع انثى
والرجال قوامون على النساء ، انظر الطبقات الكبرى ، ج ١ ص ٢٠٨ : ٢١٥) .

(٧٩) د. عبد الوهاب عزام : التصوف وفريد الدين العطار ، دار احياء الكتب
العربية ، ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م ، ص ١١٢ ، ١١٣ ، وانظر أيضا الامام القشيري ،
سيرته ، مذهبه ، ص ٢٨٠ .

(٨٠) الرسالة القشيرية فى علم التصوف ، شرح زكريا الانصارى : ص ٢٦٨ .

والفناء عند الصوفية لا يتم الا بمجاهدة النفس ورياضتها وتحليها بمكارم الأخلاق في السماع ، ولذا ينصح الصوفية بعدم حضور المبتدئين مجالس الذكر والسماع ، ذلك لبقاء أوصاف النفس وشهواتها ، على حين أباحوه للزهاد لما يقيمون به من مجاهدات ورياضات تعمل على فناء صفات النفس البشرية والبقاء بصفات الحق تعالى لما في ذلك من حياة قلوبهم ، وذلك على حد تعبير أبي علي الدقاق « السماع حرام على العوام لبقاء نفوسهم ، مباح للزهاد لحصول مجاهدتهم ، مستحب لأصحابنا لحياة قلوبهم » (٨١) .

وكذلك يعتبر الصوفية الفناء في السماع هو فناء الوسائط بين السامع والمسموع أو بين العبد والرب ، فيغيب بمسموعه عن المخلوقات والأشياء والوسائط « ويفنى عن شهودها ، ويفنى عن شهود فنائها عنها » (٨٢) ، أى يفنى عن مشاهدة النفس وصفاتها وغايتها الشريرة ، ولا يرى سوى الصفات والأخلاق الحسنة وقت ذلك ، من خلال تذكر النفس لحياتها السابقة قبل أن تحل بالبدن وعند هذه اللحظة لحظة الفناء يفنى السامع عن مشاهدة هذا الفناء أيضا ، وفي مثل هذا الفناء إماتة لشهوات النفس وأهوائها وبقاتها وحملها على الطاعة والقيام بأوامر الحق ونهيه .

كما يذهب الصوفية أيضا الى أن الفناء عن الحفظ والبقاء بالله تعالى لون آخر من ألوان الفناء المتعددة ، اذ يفنى السامع عن حفظه وآثاره البشرية ولا يعود مشاهدا في الوجود الا الواحد الحق ، فهو فناء يقوم فيه الله عند الصوفي في كل فعل وحركة ، وهذا ما توضحه أقوال الصوفية اذا قيل : « وسماع يشترط الحال فمن شرط مساجبه الفناء عن أحوال البشرية والتنفى من آثاره الحفظ » (٨٣) .

كما أن من صفات الفناء في السماع حدوث بروق سريعة الزوال تظهر فترة ثم تخدم وتحمل معها أشعة المعرفة الالهية التي تتم بدون

(٨١) الرسالة القشيرية في علم التصوف ، شرح زكريا الأنصاري : ص ٢٦٤ .

(٨٢) مدارج السالكين : ج ١ ، ص ٥٠٥ ، وانظر الرسالة القشيرية : ص ٢٦٨ .

(٨٣) الرسالة القشيرية في علم التصوف : ص ٢٦٨ ، وانظر مدارج السالكين :

ج ١ ، ص ٤٨٢ - ٥٠٤ .

واسطة ، وهذا ما توضحه بعض أقوال الصوفية : « الوجد : بروق تلمع وتخد » (٨٤) .

ويذهب الصوفية الى أن الفناء من الأمور الصعبة لما فيه من اماتة شهوات النفس واختفاء صفاتها الذميمة ، ولكنه مع ذلك من الأمور الضرورية التي تحافظ على العقيدة الدينية ؛ وذلك من خلال الالتزام بالطاعات والواجبات التي تأتي نتيجة العناية الالهية ، وهذا ما استنتجه المستشرق نيكلسون بقوله : « من الصعب أن ترى كيف يستطيع الشخص التقدم الى الفناء وهو من الأشياء التي تحافظ على العقيدة والتي تشير الى تقوى الصوفيين ، وهي تتم بحماس شديد وهي الصفة الدينية التي تأتي نتيجة العناية الالهية نتيجة الطاعة ... ومثال ذلك حالة ابي حمزة حيث كان سائراً في شوارع بغداد وأخذ يتفكر في القرب من الله وفجأة يقع في هذا الهيام ويستمر في طريقه بدون أن يرى أو يسمع حتى يسترد حواسه ويجد نفسه في الصحراء .. ، وقد أفادت تقارير كتبها (سهل بن عبد الله) أنه اعتاد في البقاء في جالية هيام لمدة خمسة وعشرين يوماً في المرة الواحدة بدون تناول طعام » (٨٥) .

من ذلك يتضح لنا أن السماع الحق عند الصوفية هو الفناء عن حظوظ النفس البشرية وكذلك الفناء عن السماع نفسه والعالم والأكوان ، وهذا هو أعلى درجات السماع ، ومن ثم يتحقق له الكشف والمشاهدة والبقاء بنور الحق تعالى والتحقق بالمعرفة الالهية من خلال وهو الصفات البشرية والبقاء بالصفات الالهية المجهودة وبعد أن عرفنا كل ما سبق ، علينا أن نقف على معنى السماع وارتباطه بالوجود عند الصوفية المتفلسفين من أصحاب وحدة الوجود ، وكذلك تحقق المرید بالمعرفة الالهية من خلال السماع الحسن ، وشهود الأحدية في الوجود عند أصحاب وحدة الشهود وأصحاب وحدة الوجود .

(٨٤) الرسالة القشيرية في علم التصوف : ص ٢٧٢ .

(هـ) هي الفناء : لم يعرف التصوف القديم الفناء والبقاء تعريفاً ما هويا ، بل كانت تعريفاته منصبية على الاضافات مثلاً : الفناء عن كذا ، والبقاء هو بقاء بكذا وكذا ، فتعريف الفناء تعداد للفاني من الصفات ، والبقاء تعداد للباقي منها .. ، فالفني أن تغنى الخصال المذمومة عن الرجل ، والبقاء أن تبقى وتثبت إحصال المحمودة في الرجل ، فالساكنون يتفاوتون في الفناء والبقاء ، بعضهم فني عن شهوته ، يعني ما يشتهي من الدنيا ، فإذا غلبت شهوته بقيت فيه نيته وإخلاصه في عبوديته ، ومن فني عن أخلاقه الذميمة كالجسد والكبر والبخس وغير ذلك ، بقي في الفتوى والصدق ، انظر د . سعاد الحكيم ، المعجم الصوفي الحكمة في حدود الكلمة ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، وانظر الرسالة القشيرية : ص ٦١ ، ٦٢ .

(٨٥) انظر Nicholson (R.) : The Mystics of Islam, Khayats 1966, p. 59-60.

الفصل الخامس

صلة السماع بالمعرفة والوجود

تمهيد :

أولا : السماع والتحقق بالمعرفة •

- [١] السماع وأداة المعرفة
- [٢] السماع والكشف الصوفي
- [٣] السماع وموضوع المعرفة
- [٤] السماع وغاية المعرفة

ثانيا : السماع وشهود الأحدية في
الوجود •

ثالثا : السماع والاتحاد والجلول عند
صوفية الشطح •

رابعا : السماع عند الصوفية المتفلسفين
من أصحاب الوحدة •

[١] وحدة الشهود

[٢] وحدة الوجود

• تمهيد

لقد أوضحنا في الفصل السابق ارتباط السماع بالمقامات والأحوال عند صوفية الاسلام ، وكيف أن السالك لا ينتقل من مقام الى مقام أو من حال الى حال الا اذا تحقق بالمقام والحال الذى هو عليه ، وكذلك أوضحنا كيف أن المقامات مكاسب والأحوال مواهب من عند الحق تعالى ، وأيضاً أوضحنا ارتباط السماع بالمجاهدة ، وذلك يكون على أساسين هما :

١ — رياضة النفس من الناحية الأخلاقية ، وذلك بالتخلّى بالصفات والأخلاق الفاضلة التى يعرفها المريد من خلال سماعه والبعد عن ملذات النفس وشهواتها الرذيلة حتى يتحقق بالكمال الأخلاقى .

٢ — اصطناع المريد الرياضات الروحية كالذكر ، والخلوة ، والصوم عن السماع السيئ ، وغير ذلك حتى يتحقق بالمعرفة الالهية ، وذلك من خلال الالتزام بآداب السلوك .

أما فى هذا الفصل ، فسوف نلقى الضوء على كيف يتحقق السالك بالسماع الحسن ، من خلال فنائه عن اغواء النفس وشهواتها ، وكل ما يدعوها الى ارتكاب المعاصى والذنوب التى تخرجه عن حدود الشرع . وأيضاً البقاء بالصفات الفاضلة التى يفهمها المريد من خلال هذا السماع الحسن .

أما الفكرة الثانية فى هذا الفصل فسوف نوضح فيها علاقة السماع بالمعرفة واعتبار السماع مدخلاً للمعرفة الالهية ، من خلال أدائها ألا وهو القلب الذى اعتبره الصوفية من أهم مصادر المعرفة عندهم ، فإذا صفا هذا القلب ورق وبعد عن الغلظة وكل ما يؤدى الى فساده تحقق بالنور والاشراق الالهى ، الذى يثمر سعادة ولذة روحية لا ينالها الا كل ذي طهر وصفاء فى قلبه .

ثم نوضح كيف ذهب الصوفية الى القول بأن الوجود الحقيقي المطلق متحقق في كلمات الله المسموعة ، وهو ما يسميه الصوفية المتفلسفون بالسمع الالهي ، وكذلك نوضح معنى السماع عند الصوفية المتفلسفين من خلال قولهم بوحدة الوجود ، وفناء السالك في سماعه عن شهود نفسه وكل ما حوله من الأكوان والأحداث والبقاء في سماعه بالوجود الواحد الحق ، كأنه يسمع من الحق المطلق الوجود ، ومن ثم ينعم قلب هذا السالك بشاهدة النور الالهي .

أولا : السماع والتحقق بالمعرفة •

يوضح الصوفية أن التحقق بالمعرفة الالهية أمر ضروري للسامع ، والمعرفة هي أنوار تلقى على السامع القاء ، وإذا تحقق العبد بالمعرفة الخوقية أصبح أكثر قربا من الله عز وجل وافتقارا اليه ، والمعرفة الالهية لا تعنى معرفة ذات الحق تعالى ، وإنما تعنى المعرفة معرفة الصفات والأسماء ، وهذا ما يسمى بسماع العلم والصحو ، أما المعرفة بالحال فمن شروطها الفناء والمحو للصفات البشرية المذمومة ، وهذا ما يوضحه بعض الصوفية بقولهم : « السماع على قسمين سماع شرط العلم والصحو فمن بشرط صاحبه معرفة الأسماء والصفات والا وقع في الكفر المحض وسماع الحال فمن شرط صاحبه الفناء عن أحوال البشرية والتشني من آثار الحظوظ بظهور أحكام الحقيقة » (١) .

فالصفات الالهية هي صفات العلم والقدرة والكفاية والكمال والخلق وغير ذلك ، أما الأسماء فهي مثل العلم بأنه النافع والضار والوهاب والرحمن والغفور والتواب وغير ذلك ، والتحقق بالمعرفة أول مرحلة يقف عليها السامع من الحق تعالى ، فإذا تحقق العبد بهذه المرحلة كان تاما في سماعه من الحق ، وحول هذا المعنى بقول الجنيد : « فالعارف هو الذى يسمع من الله ، ومن لا يعرف الله لا يسمع من الله ومن لا يسمع من الله فالبهيمة خير منه ، وقال تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » الأعراف آية ١٧٩ (٢) .

اعتبر الصوفية أيضا أن أهل المعرفة غذاؤهم السماع الطيب وهو غذاء الروح الذى يعمل على تليق القلب ورقته وصفائه وعدم فساده

(١) الرسالة القشيرية فى علم التصوف ، ص ٢٦٥ .

(٢) بوارق الاماع فى تكفير عن يحرم السماع ، بدون ترقيم صفحات ، وانظر حال

الدموز ومفاتيح الكنوز : ص ٥٩ .

وقسوته ، والتخلص من الشوائب المنحطة ، وهذه المعرفة تستلزم صحة القلب والتخلص من الحجب حتى يتم له المشاهدة ، والسماع الصادق يسمع كل ما يقربه من الحق تعالى ، أما اهل البطالة والجهل فغذاؤهم السماع المنحط الذى يعمل على اثارة الشهوات والخبائث ، وهذا ما يوضحه قول بعض الصوفية : « السماع تلطف غذاء الأرواح لأهل المعرفة وملهاة لأهل البطالة » (٣) .

كما يوضح الصوفية أنه اذا التزم المريد فى سماعه بالشروط والواجبات التى يدعو اليه الشرع من سماع الحق وكراهة سماع الأنغام والألحان ، والفناء عن صفات النفس الذميمة والبقاء بصفات الحق تعالى : فانه بذلك يكون قد أحكم قانون العلم فى معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ، وهذا ما يوضحه الفزالى بقوله : « من كان سماعه من الله تعالى وعلى الله وفيه ، فينبغى أن يكون قد أحكم قانون العلم فى معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته » (٤) .

ومن ثم فانه لا يمكن أن يعرف الانسان شيئاً ويحبه دون أن يكون رآه أو سمع به على الأقل ، فالرؤية والسماع من أهم طرق المعرفة الالهية ، ولكنها أقل درجة من المعرفة الحدسية التى هى عند الفلاسفة أتم وأكمل من المعرفة الحسية والاستدلالية .

وإذا كان الصوفية قد اعتبروا السماع مدخلا ومرحلة من مراحل المعرفة ، فان « اخوان الصفا » أيضا اعتبروا الفكر والتأمل وكذلك السمع والنظر من أهم طرق المعرفة المذكورة فى القرآن الكريم ، فالماضى يعرف عن طريق السمع والأخبار ، أما الحاضر عن طريق الاحساس بالموجود ، ومن خلاله يمكن الاستدلال لما هو كائن فى المستقبل ، وهذا ما يوضحه « اخوان الصفا » بقولهم : « ان هناك طرقا ثلاثا للمعرفة فى القرآن هى : « الفكر ، التأمل ، السمع والنظر » ، فبالفكر والتأمل تدرك النفس الموجودات والمعقولات ومن هذه الوسيلة أخذت الأنبياء (عليهم السلام) الوحي من الملائكة ، وعن طريق السمع تقبل النفس

(٣) التصوف الاسلامى الخالص : ص ٧٦ ، وانظر احياء علوم الدين : ج ٢ ،

ص ٢٧٣ ، وانظر اللمع : ص ٣٤٢ ، وانظر أيضا الرسالة القشيرية ، ص ٢٦٥ .

(٤) احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٣٦٨ .

معانى اللغات وما تدل عليه الأصوات من الأخبار الغائبة أما النظر فيه
تشاهد النفوس الموجودات الحاضرة » (٥) .

كما يذهب الصوفية الى أنه لا تتم المعرفة الالهية للمريد الا من خلال
السماع الحسن ، اذ انه اذا عرف السالك الحق تعالى تمام المعرفة من
خلال معرفته بالأسماء والصفات الالهية ، ومحاولة التحلى بها والفناء غن
صفاته البشرية ، تحقق له فهم ومعرفة معانى المسموع ، وهذا ما يوضحه
النفري بقوله : « اذا عرفت من تسمع عرفت ما تسمع » (٦) .

فالسماع إذا الحق به معرفة وفهم لمعانى المسموع (القرآن) ، كان
هذا هو السماع الصحيح ، ذلك لأنه يستمع من الحق تعالى ، فالسماع
هو رسول الحق يهدى أهل الحق بالحق ، أولئك هم الذين يخلصهم الله
بعنايته ولطفه ، وهذا ما أوضحه سعيد بن أبى الخير فى قوله : « وقد
يستمع شخص لأحاديث الوصال والفرق وهذا كله يكون وبالا وظلاماً
لذلك الشخص ، وعندما يكون العهد مظلماً يكون السماع مظلماً ، وربما
يستمع شخص فى معرفة ، وذلك هو السماع الصحيح ، لأنه يستمع من
الحق ، وأولئك هم الأشخاص الذين يخلصهم الله بلطفه
فالعبودية ملك وموضع اختصاص الله ، وقد اختص هؤلاء بأنهم عباده
فيكون سماعهم من الحق بالحق » (٧) .

وإذا فنى السالك فى سماعه وصل الى درجة الكمال التى لا يصل
ليها الا عارف مكين يتحقق له فيها الكشف نتيجة فنائه فى سماعه ، وهذا
ما يوضحه الهجویری بقوله : « هو درجة كمال يبلغها العارفون الذين
انتهى بهم الطلب الى الكشف ، فرأوا كل مرئى ، وسمعوا كل مسموع
وأدركوا كل أسرار القلب ، وأعرضوا عن كل شئ وفنوا فى مقصدهم ،
وفنيت فى هذا المقصد ، كل مقاصدهم » (٨) .

وهذا ما ذهب اليه أيضا أبو حيان التوحيدى عندما ينصح السالك
بقوله : « يا هذا : غب عن سماع قولى بمسموعه ، فلعلى أيضاً أغيب

(٥) مسعد أمين سليمان محمد : الفكر الصوفى عند اخوان الصفا ، رسالة
ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٣ م ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٦) النفري (محمد بن عبد الجبار) : كتاب المواقي والمخططات ، تصحيح
أرثر يوحنا أريرى ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٣٤ م ، ص ٢٣ - ٦٧ .

(٧) سعيد بن أبى الخير : أسرار التوحيد ، ص ٢٩٨ .

(٨) طه عبد الباقي سرور : الحسين بن منصور الحلاج ، ص ١٩٩ .

عن قولى بحقيقة مقولى ، فان قلت لى لو بدأت فى قولك بالتحقيق ،
لحصلت فى سماعى على التصديق ، كان لك ذلك ، ولكن ماذا يضررك
ينتهى فى قولى عند اهتدائك فى سماعك ؟ » (٩) .

[١] السماع وأداة المعرفة •

أداة المعرفة عند الصوفية القلب (١٠) ، والهدف الأساسى من تصفية
القلب هو التوصل الى المعرفة الالهية ، وهى نور اليقين وبها يعرف
الانسان نفسه ، ومن ثم يتحقق بالمعرفة للحق تعالى ، واذا ما توصلت
النفوس الى المعرفة من خلال تجردها عن صفاتها الذميمة تحقق لها اللذة
الروحانية من خلال الاستماع الى أوامر الحق تعالى ونواحيه ، وهذا
ما يؤكد قول الحسين : « بصائر المبصرين ، ومعارف العارفين ، ونور
العلماء الربانيين وطرق السابقين الفاجحين ، والأزل والأبد وما بينهما
من الحدث لما كان له قلب أو ألقى السمع » (١١) .

والقلب عند الصوفية هو الذى يتلقى الأنوار الالهية ،
وهو مهبط لأوامره ومستودع الحقائق الكلية الالهية ، وهكذا يكون
القلب مركز العلم والمعرفة معاً ، بل هو وحده القادر على أن يكون صورة
للحق على قدر استعدادده ودرجة من الكمال والصفاء ، وهذا ما يوضحه
قول « ذى النون المصرى » « السماع وارد حق يزعم القلوب الى الحق
فمن أصغى اليه بحق تحقق ومن أصغى اليه بنفس تزدق » (١٢) .

(٩) أبو حيان التوحيدي : الاشارات الالهية ، ج ١ ، ص ١٣٥ .

(١٠) القلب جوهر نورانى مجرد يتوسط بين الروح والنفس ، وهو الذى تتحقق به
الانسانية ، ويسميه الحكيم النفس الناطقة والروح باطنه ، كما مثله فى القرآن
بالزجاجة والكوكب الدرى ، والروح بالمصباح فى قوله تعالى :

نُورُهُ كَوْنُهُ
فِيهَا مَصْبَاحُ الْمَصْبَاحِ فِي نُجَاةِ الرَّجَاةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ
يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ .

والشجرة هى النفس : والمشكاة هى البدن والقلب هو الوسط فى الوجود ، وانظر
عبد الرزاق الكاشانى ، اصطلاحات الصوفية ، تحقيق عبد الخالق
محمود ، دار المعارف ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ، الطبعة الثانية ، ص ١٥٤ .
(١١) عوارف المعارف ، ص ٢٢ .

(١٢) الكواكب الدرية : ج ١ ، ص ٢٢٦ ، وانظر الصوفية فى الاسلام ، ص ٦٧ ،
٦٨ ، وانظر التصوف الاسلامى الخالص : ص ٧٦ ، وانظر آداب المريدين : ص ٤٦ ،
وانظر الرسالة القشيرية ، ص ٢٦٤ ، وانظر اللمع : ص ٣٤٢ ، وانظر ايضا أصول
الملاطية ، ص ٥٤ .

فالميثيق بالحق تعالى يثنى عن القلب الشك والريب وكل ما يسير في القلب من هم أو حزن ، وعندما ينتفى من القلب كل ما سبق تتحقق له كل مظاهر الإشراق والنور الالهي ، وذلك على حد تعبير القشيري : « فإذا قرعت سمعهم دعوة الحق ابتسمت البصيرة في قلوبهم فسكنوا الى المسموع لما وجدوا من التحقيق » (١٣) .

وإذا كان القلب هو أداة لهذه المعرفة الذوقية عند الصوفية ، فإن المعرفة بالله تعالى أمر معنوي لا يتحقق الا اذا صفا القلب ونقى من اغواء النفس وملذاتها ، وغير ذلك حتى يشرق القلب بنور المعرفة ، وهذا ما يوضحه قول العديد من الصوفية منها قول أحمد الرفاعي : « السماع ينفع أرباب القلوب لأنه يحرك أزمة قلوبهم وأسرارهم الى المحبوب وهو يضر بأرباب النفوس لأن النفس تمنع من جانب الحق » (١٤) .

إذن فاداة المعرفة هي القلب الحاضر مع الله تعالى ، وأقربها الى الحق تعالى مارق وصفاً من الأقدار في سماعه ، وأساسها المجاهدة والرياضات العملية ، والسماع هو يقظة هذه القلوب وحياتها بالمعارف والمواهب الالهية ، وموت النفس وذبحها بسيوف المجاهدة ، أى بقاء القلب بالحق تعالى في سماعه ، وفنائته عن سماع السوى والأغيار التي تعكر صفوه ، وهذا ما تؤكدته أقوال الصوفية منها قول أبى سعيد بن أبى الخير : « للسماع قلب حى ونفس ميت » (١٥) ، وكذلك قول ابن عطاء الله السكندري : « السماع : هو القلب الذى يلاحظ الحق ويشاهده ولا يغيب عنه خطرة ولا فترة فيسمع به بل يسمع منه ويشهد به بل يشهده ، فإذا لاحظ القلب الحق بعين التجالل فزع وارتعد ، وإذا طالع به عين الجبال هداً واستقر » (١٦) .

والمعرفة الصوفية إذن هي معرفة ذوقية وجدانية مباشرة وأداتها القلب ومستقرها القلب كذلك ، ليس للعقل أو الحس دخل فيها ، ولا تتم هذه المعرفة عن طريق التعلم أو التدريب ، وإنما هي نوع من المدد الالهي يهبط على القلب ، ولا يتم ادراك هذا المدد الالهي الا بالقلب الخالى من الأهواء الغافل عن ملذات وشهوات الدنيا ، غير مشغغل بالسوى ولا يركن الا الى الحق تعالى ويخضع كل شيء للحق تعالى مجرداً عن الأكوان التى سمعه وشهد بصره ، وهذا ما يؤكدته قول

(١٣) لطائف الاشارات : ج ١ ، ص ١٣٨ .

(١٤) الفجر المنير : ص ٤٩ ، ٨٢ ، وانظر الرسالة القشيرية : ص ٢٦٦ ، وانظر

اللمع : ص ٢٤٣ ، وانظر عوارف المعارف ، ص ١٥٥ ، وانظر أيضاً آداب المريدين .

ص ٤٧ .

(١٥) أسرار التوحيد : ص ٣٤٥ .

(١٦) عوارف المعارف : ص ٢٢ .

عبد الكريم الجبلى : « والقلب عرش الله ، فسماع كلامه على عرشه
أعلى ، وأشرف من سماع كلامه على غيره منه المشاهد ، وقد ورد أن
الله تعالى يقول : لا يسعنى أرضى ولا سمائى ولكن يسعنى قلب عبدى
المؤمن » (١٧) .

فالقلب هو وسيلة وأداة يعلو بها الفرد الى أرقى أنواع السماع ،
وحقيقة السماع تنبيه القلب على معانى المسموع والعمل به ، كما أنه
رسول الايمان الى القلب ، ووسيلة لتعلمه ، وهذا ما يوضحه قول ابن
قيم الجوزية : « السماع رسول الايمان الى القلب وداعيه ومعلمه » (١٨) .

[٢] السماع والكشف الصوفى •

يعتبر الكشف عند الصوفية من أرقى مناهج المعرفة ، وهو منهج
ذوقى لا دخل للعقل فيه أو الاستدلال الحسى ، بل هو منهج كشفى ذوقى
يأتى عن طريق الإلهام الإلهى ولا يكتسب بالخبرة أو الممارسة ، وسماع
العارفين يكون على أساس مشاهدة النور الإلهى من خلال سماع الحق ،
فاذا تمكن العارف فى سماعه وأصبح من أهل الحقيقة ، كان سماعه على
الكشف ، أى زوال الحجب والاستتار بينه وبين مشاهدة النور الإلهى ،
وهذا ما يوضحه قول أبى بكر الكتانى : « سماع العارفين على المشاهدة
وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان » (١٩) .

كما يذكر الصوفية أن المرید يجد فى السماع صحة القلب وصفاءه
ورفع الحجب بينه وبين الحق تعالى وينعم بمشاهدة الحق تعالى من
خلال الفناء عن نفسه وعن التعلق بالأسباب والأغيار وقت السماع ،
واذا أخلص المرید فى سماعه كان من الموقنين والمقربين من الحق تعالى ،
أما اذا صم وعمى عن السماع كان من صفات الشك ، وهذا يتضح من
قول المكي : « الصالحات هى مقتضى اليقين واللعب مقتضى الشك
والسمع والبصر وصفان للمتيقنين والعمى والصمم وصفان للشك » (٢٠) .

(١٧) المناظر الالهية : ص ١٢٥ .

(١٨) مدارج السالكين : ج ١ ، ص ٢٧٢ ، وانظر تهذيب مدارج السالكين : ج ١ ،
ص ٢٥٩ .

(١٩) عوارف المعارف : ص ١٦٦ ، وانظر قول ابن عطاء الله السكندرى فى
مدارج السالكين : ج ١ ، ص ٥٠٤ ، وانظر أيضا التنوير فى اسقاط التدبير ،
ص ١٢٥ .

(٢٠) قوت القلوب ، ج ١ ، ص ١٩٠ ، ٢٠١ .

من ذلك يتضح لنا أنه إذا تم للعبد الثقة واليقين بمعرفة الحق تعالى من خلال سماعه تم له نوع من الكشف والمشاهدة ، وحينئذ يصبح من المقربين الى الحق تعالى ، فمعرفة السمع في الاسلام هو أنهم سمعوا به فعرفوه وهذا هو التصديق للمعرفة الالهية ، ثم يلي ذلك الفهم لمعاني المسموع والتدقيق فيها وإذا تم له ذلك تحقق بشهود الحق تعالى في سماعه وفتاء الحجب والأستار ، وهذا ما يؤكد قول داود بن ماخلا : « أول هذا الأمر سماع وتصديق ثم فهم وتدقيق ثم شهود وتحقيق » (٢١) .

وحقيقة السماع هو اليقين بوحداية الحق تعالى ، أى مشاهدة أن الأعمال كلها صادرة من الحق تعالى ، والشهود فيما يرى الصوفية هو افراغ القلب عن كل ما يشغله مما هو خارج عنه وقطع الصلة بينه وبين شهواته وقواه الجزئية والتركيز الدائم على التعلق بالله ، والمواظبة على كل ما من شأنه أن يقوى العلاقة بين باطن العبد وبين الحق سبحانه ، وكل ذلك من شأنه رفع الحجب التي اكتسبتها النفس ، ومن ثم يجعل الصوفية السماع مشروطاً بالمشاهدة ، وهذا ما يوضحه قبول السهروردي : « وسماعهم على حد الشهود » (٢٢) ، وكذلك قول أبى على الروزباري : السماع هو مكاشفة الأسرار الى مشاهدة المحجوب » (٢٣) .

كما تتشابه أقوال الصوفية في ارتباط رياضة السماع بالمعرفة الالهية مع قول ابن سينا ، اذ يرى أن العبد اذا أكثر من الرياضة ، فإنه يتحقق بمشاهدة الحق تعالى في كل شيء ويصبح في حالة غشية عن كل شيء حوله ، ويتمتع بالسكينة ، وهى أعلى درجات السماع التي يغيب فيها العبد عن كل شيء وتحصل له معارف دائمة مستقرة ويتمتع فيها بالمسعادة واللذة الروحية ، وإذا ابتعد عنها أصبح حيران أسفاً ، وهذا السماع هو سماع خواص الخواص وهى الدرجة الثالثة من درجات السماع وذلك على حد قول ابن سينا : « ثم انه اذا بلغت به الارادة والرياضة حداً ما عنت له جلسات من اطلاع نور الحق عليه لذينة كأنها بروق تومض اليه ، ثم تخدم عليه وهو المسمى عندهم أوقاتاً ، وكل وقت يكتنفه

(٢١) الطيقات الكبرى ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

(٢٢) عوارف المعارف هامش على الاحياء : ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

(٢٣) السماع عند الصوفية : ص ٢٨ ، وانظر تاريخ التصوف في الاسلام : ص ٥٦٤ . وانظر الرسالة القشيرية ، ص ٢٦٧ ، وانظر قول ابن عطاء الله السكندري : لطائف المزن والأخلاق : ج ١ ، ص ٣٥ ، وانظر قول أو سعيد الخراز في تاريخ التصوف الاسلامي ، ج ١ ، ص ٦٢٠ .

وجدان وجد اليه ووجد عليه ثم أنه لتكثر عليه هذه الغواشي اذا امعن في الارتياض ، ثم أنه ليتوغل في ذلك . . ، فيكاد يرى الحق في كل شيء » (٢٤) .

كما يرى الصوفية — ايضاً — أن الروح اذا تجردت عن الجسد وفنيت ، وخرجت عن نطاق المادة ، وعن جميع ارادتها ، كانت روحاً مجردة عن جميع استارها ، وكافحت الحقيقة بالنور الالهى الذى منحها الحق سبحانه ، فقد صحت لها المشاهدة ، والمشاهدة الحقيقية هى مجلس الأسماء الربانية ومقتضاها الانكسار والافتقار الى الله ، ولذلك يقول الحق تعالى :

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٢٥)

ومن ثم فان ذلك لا يتحقق الا من خلال اثبات وجود القلب واستعداده لما يلقي فيه من أنوار الحق وتجلياته ، والمشاهدة هى سقوط الحجاب بين الخلق والنور الالهى وهى فرق المكاشفة ، والمستمع الصادق يشتغل بكل ما يقربه من الحق تعالى من الأعمال الصالحة ويعى ما يسمع حتى يتحقق له المشاهدة لنور الحق تعالى ، وهذا ما يؤكده قول عز الدين ابن عبد السلام :

إذا ما كنت مستمعاً لقول فبالقلب أسمع من قبل أذن
والق السمع تشهد كل معنى وتسمع في شهودك كل من (٢٦)

والسمع الحق ليس فقط حضور القلب مع الحق تعالى ومشاهدة النور الالهى وما هو غائب من الأسرار والأنوار ، وانما أيضاً الفناء عن المشاهدة وقت المشاهدة والمكاشفة حتى يتحقق له البقاء بالمشاهدة ، وهذه الحالة لا تدوم طويلاً ، وانما هى فترة ثم تزول سريعاً ، وهذا ما يوضحه قول الفضيل بن عياض بقوله : « كن شاهداً لغائب ولا تكن غائباً لشاهد » ، قال كانه يقول : « اذا كنت فى جماعة الناس مأخوف شخصك وأحضر قلبك وسمعتك ، دع ما تسمع ، فهذا شاهد لغائب ، ولا تكن غائباً لشاهد » (٢٧) .

- (٢٤) ابن سينا (أبى على الحسين) : الاشارات والتنبهات ، مطبعة ليدن ، ١٨٩٣ م ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .
(٢٥) سورة ق : آية (٢٧) .
(٢٦) حل الرموز ومفاتيح الكنوز : ص ٦٧ .
(٢٧) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : ج ٧ / ص ٨٧ ، وانظر تاريخ التصوف ، الاسلام : ص ٥٦٤ .

[٣] السماع وموضوع المعرفة *

يعتبر السماع عند الصوفية مدخلا للمعرفة والفناء فيه لينال السامع عن المسموع له معرفة ذوقية ، وموضوع المعرفة عندهم ذات الله من خلال صفاته وأسمائه ، وهو يرتبط بالسماع عندهم ، حيث ان العارف في فئائه عن السماع وعن نفسه يتحقق بالمعرفة الالهية بأن يشهد صفات الله وأسمائه ، وفي هذا السماع يكون العبد غانيا عن السماع باقيا بالأزل ، ووهبه الله أنوار الأزلية ، وهذه الأنوار الأزلية هي أنوار أسماء الحق وصفاته ، وفي هذه المعرفة تطمئن قلوب السامعين بذكره وذلك بحسب معرفتها بصفاته وهذا ما يوضحه قول بعض الصوفية : « السماع على قسمين : سماع بشرط العلم والصحو فمن شرط صاحبه الفناء عن أحوال البشرية والتنفى من آثار الحظوظ بظهور أحكام الحقيقة » (٢٨) .

كما أن هذه المعرفة الصوفية هي معرفة ذوقية ، تدرس ذات الحق عن طريق الصفات والأسماء بطريقة المشاهدة دون تدخل من العقل أو الاستدلال المباشر ، ولكنها تظهر في العالم الخارجى متمثلة في الأشياء والمحسوسات ، ومن ثم لا يصبح السماع الا من خلال المعرفة بهذه الصفات والأسماء ، بالاضافة الى فناء القلب عن حب الدنيا وحب الثناء والمحمدة والفناء عن سماع الشهوة ومراعاة حدود القلب والمحافظة عليها ، واذا فعل العبد ذلك في سماعه كان من التائبين والخاشعين والخائفين يسمع كل ما يحدث على الطاعة والمجاهدة والغفلة عن سماع الشيطان ، وهذا ما يؤكد السراج بقوله : « ولا يصح السماع للمريد حتى يعرف أسماء الله تعالى وصفاته حتى يضيف الى الله ما هو أولى به ، ولا يكون قلبه ملوثا بحب الدنيا وحب الثناء والمحمدة » (٢٩) .

كما ينبه الصوفية الى أنه من كان سماعه الحق من أجل الحق وبالحق والصدق فى سماعه ، كان عارفا بالحق تعالى وصفاته من خلال سماعه لمجالس العلم والحكمة ، عكس من يستمتع لما يثير الشهوة والغفلة عن الذكر للحق تعالى فإنه يستحيل عليه معرفة الحق تعالى ، ومن ثم يخرج عن حدود العقيدة ، وهذا ما يؤكد الغزالي بقوله : « ومن كان

(٢٨) الرسالة القشيرية فى علم التصوف : ص ٢٦٥ ، وانظر الامام القشيري ، سيرته ، آثاره ، مذهبه فى التصوف ، ص ٢٢٦ .
(٢٩) اللمع : ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

سماعه من الله تعالى وعلى الله وفيه ينبغي أن يكون قد أحكم ثنائون العلم في معرفة الله ومعرفة صفاته ، والا خطر له من السماع في حق الله تعالى ما يستحيل عليه ويكفر به (٣٠) .

٤] السماع وغاية المعرفة *

إن السماع الطيب يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور ، وطيب النفس وسكونها في كل حال ، وطمأنينة القلب وبعده عن كل مفزع من أمور الدنيا ويقتل همه وغمه وحزنه وألمه ، فيفرغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وأحزانها ، وغاية المعرفة الإلهية السعادة ، وهي ترتبط بالسماع عند الصوفية ، فالسعادة الحقيقية موجودة في خزائن علم الله ومحلها القلب العارف ، وموضوعها صفات الله وأسمائه ، والمعرفة الإلهية أشرف أنواع المعارف ، وفي هذه المعرفة كمال الإنسان وسعادته ، أما ضيق الصدر واطهار الشكوى فانه يظهر في ثلة المعرفة بالله والطمأنينة الى الكفاية ، واللذة (٣١) والسرور والفرح أمر مطلوب في نفس العبد ، بل هي مقصود كل حى وعاقل ، أما اذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي تذم ، فلذة السماع تكون في المجالس الصالحة التي توافق الشرع ، وهذا ما يؤكد قول ابن عربى : « كان فناؤه طربا لحسن السماع بذكر من يهواه » (٣٢) .

ويذهب الصوفية الى أن فناء العبد عن السماع السبىء فيه لذة وطرب النفس لما تسمعه وتبقى عليه من السماع الحسن ، ذلك لأن بين الروح والنغمات تناسبا ، ولذلك تستلذ الروح عند سماع النغمات الحسنة الغير مثيرة للشهوة الجنسية وكل ما من شأنه يعارض الشرع ، وهذا ما يؤكد الغزالى والسهورردى بقولهما : « ان بين النغمات والروح تناسبا وتجانسا فلذلك تستلذ الروح بالنغمات » (٣٣) .

(٣٠) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ .

(٣١) اللذة : هي الصبغة الوجدانية التي تصاحب التعبير الانفعالى عن أية غريزة من الغرائز ، والسعادة هي الصبغة الوجدانية التي يتلوها حين تعبر عن الانفعالات الغريزية تعبيرا متوافقا ، انظر ج ١٠ هادفيلد : علم النفس والأخلاق ، تحليل نفسى للمخاق ، ترجمة محمد عبد الحميد ، مراجعة د. عبد العزيز القوصى ، مكتبة مصر ، ١٩٥٣ م ، ص ١١٧ .

(٣٢) الامتناع بأحكام السماع ، ص ٦٤ .

(٣٣) الامتناع بأحكام السماع ، ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧ .

واللذة الحقيقية تتحقق فى معرفة الحق تعالى ، وهذه اللذة أفضل وأكمل من كل لذات الدنيا وشهواتها ، ذلك لأن موضوعاتها أكمل من أى موضوع يحقق لذة فى النفس ، وهذا ما بوضحه قول مالك بن دينار : « ان الصديقين اذا قرىء عليهم القرآن طربت قلوبهم الى الآخرة » (٣٤) ، وأصحاب النفوس الفاضلة تلتذ بالسماع الحسن الذى يحصل به رقة القلب والخشوع واثارة الشوق الى لقاء الله والخوف من سخطه وعذابه .

ويذهب الصوفية الى أن صاحب الذوق واللذة الروحية لا ينكر السماع ، وأن النفس التى تلتذ بالسماع وتتفهم معانيه هى من أفضل النفوس وصاحبها من أصحاب الذوق اللطيف ، كما أن عدم التذوق الروحي للسماع يرجع الى غلظة وجمود الطبع ، وهذا ما يوضحه الغزالى والسهورردى بقولهما : « من لم يحركه السماع فهو ناقص عن الاعتدال بغيد عن الروحانية زايد فى غلظ الطبع على الجمال وسائر البهائم » (٣٥) .

ويصرح الصوفية بأن السعادة الحقيقية الناتجة عن السماع هى سعادة القلوب بسماع اسم الله وطرب الأرواح ولذاتها بشهود النور الالهى ، وهذا ما يؤكد قول القشيري : « ما سعدت القلوب الا بسماع اسم الله ، وما استثارت الأسرار الا بوجود الله وما طربت الأرواح الا بشهود جلال الله » (٣٦) .

كما يذهب الصوفية الى أن الأذن تستلذ باستماع الأصوات الطيبة الحسنة وتنفّر من استماع الأصوات المنكرة لقول الحق تعالى :

وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ

وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَرْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ۝

• (٣٧)

وهذا ما يؤكد الغزالى بقوله : « والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة ، وما من شيء من المدركات ألا وهو منقسم الى حسن وقبيح » (٣٨) .

(٣٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : ج ٢ ، ص ٣٥٨ .

(٣٥) الامتاع بأحكام السماع : ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٨٠ ، وانظر عوارف المعارف ،

١٨٢ ، وانظر اللمع قول بندار بن الحسين ، ص ٣٤٤ .

(٣٦) لطائف الاشارات : ج ٤ ، ص ٤٧ ، ٢٣٣ .

(٣٧) سورة لقمان : آية (١٩) .

(٣٨) الغزالى (أبو حامد) : المحبة والشوق والانس والرضا ، مكتبة الحلبي

١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ ، ص ١٣ .

وإذا كانت لذة السماع من أهم اللذات الحسية عند الصوفية ، فإنهم قد ذهبوا الى أن أفضل اللذات هي لذة العقل ، لذة المعرفة بمعاني المسموع ، واللذات مختلفة ومتباينة حسب معاني المسموع ، وهذا ما يؤكد الغزالي بقوله : « فينبغي أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى عن سائر اللذات أعنى لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس ، فإن اللذات مختلفة بالنوع أولا كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ، ولذة المعرفة للذة الرياسة » (٣٩) .

وإذا كان ابن سينا قد رفع من شأن العقل على الحواس كلها في نظرية المعرفة ، فإنه أيضا رفع من شأنه اللذة العقلية على اللذة الحسية ، كما يرى أن السبب في عدم احساس شخص ما باللذة العقلية إنما يرجع الى تعلقه باللذة الحسية الشهوية التي هي من أهم ما يميز البدن ، ومن ثم تكون نفسه أسيرة لهذا البدن ، أما اذا تخلت النفس عن أهوائها وتجردت من شهواتها بانفصالها عن البدن ، فإنها تنتبه لكمالها وعالمها المثالي السابق ، وهذا ما يوضحه الأستاذ الدكتور / محمد عاطف العراقي عندما يعلق على اللذة عند ابن سينا والاعلاء من شأن اللذة العقلية الروحية على اللذة الحسية البهائية بقوله : « والواقع أننا لو رجعنا الى ما كتبه ابن سينا ، نجده يعلى من شأن اللذة العقلية على اللذة الحسية تماما كما رفع من شأن العقل على الحس في نظريته في المعرفة ، بالإضافة الى اصراره على أن اللذة العقلية النفسية اذا كنا لا نحس بها في وضوح ، فسبب ذلك تعلقنا بالبدن وشهواته بحيث تكون النفس أسيرة البدن ، أما اذا انفصلنا عن البدن ، فإن النفس تنتبه لكمالها بعد أن كانت غير منتبهة له بسبب اشتغالها بالبدن الذي ينسيها ذاتها معشوقها » (٤٠) .

لقد ميز الحق تعالى الانسان على سائر الحيوانات بميزة العقل والفهم والمعرفة ومن ثم لا بد له أن يستغل هذه المميزات التي انفرد بها عن غيره ويستغلها في الاستقلال الحسن ويعمل على الاعلاء من شأنها . وهذا ما ذهب اليه الصوفية وابن سينا ومعظم الفلاسفة ، ومن يحس بهذه الميزة ويحفظها مما يشوبها من الشهوات والأهواء ، يكون ذا احساس مرهف يسمع حركة الأشجار ، وسائر الأصوات الطيبة باحساس يتمتع باللذة والراحة ، ومن ثم تعلق بنفسه الى أقصى مراحل الترقى الأخلاقي ، وهذا ظاهر في قول ابن مسعود « وأما صفة لذتهم السمعية فهي من كل صوت أو حركة من هفيف شجر ، أو مسير ملك أو تحريك فلك أو كلام بشر أي سائر الأصوات فكل بعض بطبعه

(٣٩) المحبة والشوق والانس والرضا : ص ٣٢ .

(٤٠) مذاهب فلاسفة المشرق ، ص ٢٩٥ .

« اللذة والراحة .. » ، ومن لذائذهم السمعية سماع آلات الطرب بسائر أنواعها وتبعث همهم الى الترقى الى المعارف الالهية .. » (٤١) .

كما يذهب الصوفية أيضاً الى أن لذة السماع لا تقتصر على سماع مجالس العلم والحكمة فقط وانما تمتد لتشمل السماع عن شخص ما يتصف بصفات حسنة مثل البطولة أو الشجاعة ، فمثل هذا السماع يثمر في قلبه فرحاً وسروراً بهذا الشخص وحباً في قلبه لما يتصف به من الصفات فضلاً عن عدم مشاهدة له وهذا ما يؤكده الفزالي بقوله : « ان الانسان ليسمع في الحكاية شجاعة على وخالد رضى الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاهما على الأقران فيصادف في قلبه اهتزاز وفرحاً وارتياحاً ضرورياً بمجرد لذة السماع فضلاً عن المشاهدة ، ويورث ذلك حباً في القلب ضرورياً للمتصف به » (٤٢) .

فلذة السماع الطيب أمر ضروري عند الصوفية ، ذلك لأن من لم يلتذ بالسماع فان ذلك قصور في حاسته ، واستحسان الصوت الطيب من الأمور المباحة التي حث عليها الشرع مثل باقى المباحات ، وسماع الخطاب الالهى يثمر في القلب لذة روحية وسروراً وبعداً عن الأوهام والشك ، وذلك يتحقق من خلال الاستماع لمجالس الذكر والعلم ووقت قراءة القرآن الكريم والاستماع له ، فان العبد قد يسمع آية من آيات الذكر الحكيم فينتج عنها لذة روحية تذهب بنفسه الى عالم الروح وتتذكر عالمها السابق قبل أن تحل بالبدن وتغنى عن كل ما حولها أثناء الوجد الناتج عن السماع ، وهذا ما يذكره أحمد الرفاعي بقوله : « ان للحق سبحانه وتعالى كلاماً لا يسمع من شيطان وأن صاحب الخطاب يستلذ بذلك بسمعه كما يجد لذادة معناه بقلبه وأن من الناس من يطلبه فيجده بقلبه وسره بعيداً عن الأوهام والتخيلات .. » (٤٣) .

وعلى الجملة : فغاية المعرفة الالهية التحلى بالصفات والأخلاق الكريمة التي تتحقق من خلال السماع القرآنى ، وهو سماع أهل المعرفة بالله والاستقامة ، وينتج عنه للعقول الخالية والصامتة معارف وعلوم تتغذى بها القلوب المستأنسة بنور الحق تعالى وتنعم باللذة الروحية ، وهذا ما يوضحه ابن قيم بقوله : « وهذا السماع القرآنى سماع أهل

(٤١) الطاهر (محمد أحمد بن مسعود) : رسالة المنطق الفهوانى ، مطبعة كردستان العلمية ، ١٩٥٠ ، ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ .

(٤٢) المحبة والشرق والأنس والرضا ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٤٣) الفجر النير : ص ١٣ ، وانظر روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، ص ٢٦٧ .

المعرفة بالله والاستقامة على صراط مستقيم ، ويحصل للأذهان الصافية منه معان وإشارات ، ومعارف وعلوم تتغذى بها القلوب المشرقة بنور الأنس فيجد لها لذة روحانية يصل نعيمها إلى القلوب والأرواح ، وربما فاض حتى وصل إلى الأجسام فيجد من اللذة ما لم يعهد مثله من اللذات الحسية » (٤٤) .

ومن ثم فالسعادة واللذة الروحية تحقق الاعتدال والثبات النفسى عند صوفى الاسلام ، على حين أن الألم يخلق التلوين واختلال التوازن النفسى ، وذلك من خلال السماع والتفهم لمعانى المسموع ، وهذا يتفق مع ما ذهب إليه ابن سينا في مذهب اللذة والألم ، وهذا ما يوضحه د / محمد عثمان نجاتى بقوله : « ولعل ابن سينا قد تأثر أيضا بمذهب أبيقورس في اللذة والألم ، فاللذة عندهم عودة الجسم إلى التوازن والاعتدال ، والألم اختلال التوازن » (٤٥) ، أى أن قيمة السماع لا ترجع إلى الناحية الدينية فقط ، وإنما أيضا إلى الناحية النفسية .

ثانيا : السماع وشهود الأحدية فى الوجود •

لقد أشرنا فيما سلف إلى ارتباط السماع بالمعرفة الإلهية وأدائها ومنهجها وموضوعها وغايتها ، والآن سوف نوضح مذهبهم فى الوجود من خلال الفناء فى المعرفة الناتجة عن السماع ، إذ أنه على الرغم من أن التصوف فى أصله علم للأخلاق ، فقد خاض بعض الصوفية فى البحث فى الوجود إلى جانب البحث فى النفس والأخلاق والمعرفة .

ويمكن تقسيم الصوفية فى تصورهم للوجود وارتباط ذلك بالسماع إلى الأقسام الآتية : (٤٦)

١ — الصوفية السنيون الذين ينطقون بالآثنية فى حال الصحو ولكنهم فى حال السكر والفناء ينطلقون إلى شهود الأحدية .

٢ — صوفية الشطح الذين خضعوا لأحوال الوجد ، فمنهم من يقول بارتباط السماع بالحق تعالى (الاتحاد) ، وهو أمر معنوى شعورى على نحو ما نجده عند أبى يزيد البسطامى وأبى بكر الشبلوى ، ولكن ذلك الشعور عندهم لا يدوم ، فيعود الصوفى بعدها إلى الآثنية فيفرق بين

(٤٤) تهذيب مدارج السالكين ، ص ٤٥٩ .

(٤٥) الإدراك الحسى عند ابن سينا ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٤٦) قارن بالنسبة لهذه التقسيمات ، مدخل إلى التصوف الإسلامى ، ص ١٣٤ .

السماع والحق ، ومنهم من يقول بحلول الأزل في الانسان في لحظة أو طرفة عين ويتمادي في سكره فلا يعود بعدها الى الصحو ، وينتفى عنده التول بالاثينية بين السماع والأزل (الحق) مثل الحسين بن منصور الحلاج .

٣ — الصوفية المتفلسفون الذين ينكرون حقيقة السماع في تصورهم للوجود على أساس القول بالوحدة الوجودية .

فمنهم من يقول بوحدة الشهود مثل ابن الفارض ، ومنهم من يقول بوحدة الوجود أو الوحدة المطلقة فينكرون حقيقة السماع مثل ابن عربي وابن سبعين ، فشهود الأحدية في الوجود شهود عارض يرتبط بالسماع ، وبذلك نجد الصوفية يدرجون تحت الاثنينية لأنهم في حال الصحو يؤكدون على هذه الاثنينية ، فيفرقون بين المستمع والحق ، أما في وقت شهود الأحدية ، فإن السماع يشهد فناء ما سوى الحق في وجوده ، ثم يشهد فنائه عن نفسه شهوداً ، وفي هذا الشهود يفنى السماع عن سماعه ، فلا يعود له سماع لفنائه في شهود الحق فيشهد الوجود بنظرة واحدية هي مضمون الشهود ، وهذا ما يوضحه السهروردي بقوله : « والسماع والالهام يستدعيان وعاء وجودياً ، هذا الوجود موهوب منشأ انشاء ثانياً للمتمكن في مقام الصحو وهو غير الوجود الذي يتلاشى عند لمعان نور المشاهدة لمن جاز على ممر الفناء الى مقام البقاء » (٤٧) .

والسماع لا يتحقق بشهود الأحدية في الوجود الا اذا غنى عن نفسه والعالم وجميع الاكوان وغنى عن السماع نفسه . أى الفناء عن شهود المحدثات في شهود الحق تعالى بحيث تصبح في حيز العدم ، كما كانت قبل أن توجد ، وذلك ما يؤكد قول ابن القيم : « سماع ينفي العلل عن الكشف ويصل الأبد الى الأزل ويرد النهايات الى الأول » (٤٨) .

كما يذهب الصوفية أيضاً الى أن شهود الأحدية في الوجود ، هو أن الصوفي لا يشهد الا الله ، فلا يرى الكل من حيث أنه كثير ، بل من حيث أنه واحد ، لكونه مضمحلاً في شهود الذات الالهية ، وعندما يصل الفناء أقصى مراحل السماع شعوره بنفسه والكون تماماً لدرجة يمكن القول معها بأنه قد غنى عن الفناء ، وهذا ما يؤكد الغزالي : « سماع من جاوزوا الأحوال والمقامات فعزب عن فهم ما سوى الله تعالى حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها . . » ، ومعها غنى عن نفسه فهو عن

(٤٧) عوارف المعارف : ص ٢١ .

(٤٨) مدارج السالكين : ج ١ ، ص ٢٨٦ .

غيره أُننى فكأنه فنى عن كل شيء إلا عن الواحد المشهود ، وفنى أيضاً عن الشهود فإن القلب أيضاً إذا التفت الى الشهود والى نفسه بأنسه مشاهد فقد غفل عن المشهود » (٤٩) .

ويقول أيضاً ابن مطرف فى المعنى السابق : « الموحد يستوحش من الوجد والسماع ويكون فانياً أبداً » (٥٠) .

فالفناء هو الوجه السلبي للبقاء بالله تعالى ، ولم يتم البقاء بالله إلا بالفناء عن النفس ، كما لا يتم الفناء هكذا فجأة وبدون مقدمات ، شأنه فى ذلك شأن الوصول الى البقاء بالله تعالى ، وهذا الفناء هو فناء معنوى ، اذا يفنى فيه السامع عن الشعور بالاحساس ، كما أن شهود الأحدية هى من غايات المعرفة الالهية ، أى لا يشهد العارف الا الله وما عداه وهم وظلال ، وهذا ما يوضحه الغزالى بقوله : « ليس بين العبد وبين الله الا حجاب نفسه وعوارضها ، فاذا فنى عنها وعن عوارضها وعلم قيام العالم كله بقدرة الله تعالى عرف قرب الله تعالى ، فاذا نطق العارف فلا ينطق بنفسه واذا سمع فلا يسمع الا نفسه » (٥١) .

كما يقرر الصوفية السنيون — ايضاً — ان المشاهدة للأحدية فى الوجود عليه تعلق القلب بالحق تعالى فى سماعه ، وان يشهد أن الله هو الوجود الحقيقى ، أما باقى الموجودات فليس لها الوجود الحقيقى ، وانما وجودها زائف ، ذلك لأن جميع الموجودات بما فيها الانسان مستندة فى وجودها ودوام هذا الوجود الى الله ، فهو وحده الذى يوجودها باخراجها من العدم ثم يشملها بعنايته وامداده وهذا ما يوضحه قول ابن قيم الجوزية « فاذا تجردت الروح وكانت مستعدة وباشر القلب روح المعنى وأقبل بكلية على المسموع فالتقى السمع وهو شهيد وساعده ظيب صوت القارئ كاد القلب يفارق هذا العالم ويلج عالماً آخر » (٥٢) .

مما سبق يتضح لنا أن من كان سمعه وبصره بالله تعالى ، وجميع حركاته وأفعاله بالله تعالى ، كان وجوده بالله تعالى ، وشهود الأحدية

(٤٩) احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٣٧١ .

(٥٠) المكى (أبو طالب) : علم القلوب ، تحقيق عبد القادر أحمد عطاء ، مكتبة

القاهرة ، ١٩٦٥ م ، ص ١١١ .

(٥١) مطرف بن عبد الله بن الشخير ، وكان رضى الله عنه يقول أكثر الناس خطايا

أفزعهم لذكر خطايا الناس ، توفي رضى الله عنه بعد الطاعون الجارف لما تولى الحاج بالعراق سنة سبع ومائتين ، وانظر الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٥٢) الغزالى (أبو حامد) : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، تصحيح محمد

بخيت ، دار الكتب ، ١٩٣٩ م ، ص ١٨٢ ، وانظر عوارف المعارف : ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٥٣) مدارج السالكين : ج ٢ ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

فى الوجود يلزم العبد نسيان السماع وقت الفناء ، والوجود بالحق تعالى فى حال البقاء ، ذلك لأن حقيقة السماع لا يدوم نظر العبد الى غير الحق تعالى ، وهذا ما يوضحه ابن عجيبة الحسنى بقوله : « فمن كان يرى سمعه بالله ، وبصره بالله ، وحركته بالله يرى وجوده بالله » (٥٣) .

وأهل الكمال عند الصوفية هم الذين حجبهم الله تعالى عن سماع كلام غير كلامه أو مشاهدة ما سواه ، فهم أهل السماع والشهود المطلق للحق تعالى ، ومن ثم ينعمون بلذة الخطاب الالهى من خلال صفات القلب ونقائه ، وهذا ما توضحه العديد من أقوال الصوفية ، من بينها قول عبد الوهاب الشعرانى : « أهل السماع المطلق والشهود المطلق هم الذين حجبهم الله تعالى عن سماع كلام غيره أو شهود واحد غيره ٠٠ ، وهم أهل الكمال الذين لا ينحجب أحدهم عن الخلق عن الحق ولا عكسه » (٥٤) .

كذلك يتضح لنا — أيضاً — أن الصوفية السنيين قد جعلوا شهود الأودية فى الوجود من أعلى مراتب السماع الحق ، ذلك لأن السامع فى هذه الدرجة يكون قد تحقق من النور الالهى ، وذلك من خلال انصراف القلب عن كل ما يشغله من أمور الدنيا وزخرفها واشراقه بالنور الالهى وبهائه وقت السماع .

ثالثاً : السماع والاتحاد والحلول عند صوفية الشطح .

وإذا كان بعض الصوفية قد ذهبوا الى القول بشهود الأودية فى الوجود أثناء السماع ، فإن البعض الآخر قد ذهب الى القول بالاتحاد والحلول أثناء السماع أيضاً ، فالصوفية الاتحاديون ، ينطقون بالائنيية بين المستمع والحق فى حال الصحو (البقاء والاثبات) ، أما فى حال السكر (الفناء والغيبة) فإنهم يشعرون باتحاد المستمع مع الحق تعالى ، بحيث لا يعود السامع مشاهداً الا حقيقة واحدة هى الحق أو الوجود المطلق ، ذلك لفناء سماعه فيه ، ولذلك أنشد الشبلى :

ذكرتك لا أنى نسيتهك لحظة وأبصر ما فى الذكر ذكر لسانى
وكدت بلا وجد أموت فى الهوى وهام على القلب بالخفقان
فلما أرانى الوجد أنك حاضرى شهادتك موجوداً بكل مكان

(٥٣) ايقاظ الهم فى شرح الحكم : ص ٢٨٠ .

(٥٤) عبد الوهاب الشعرانى : بهجة التقوى والاخلاق فيما يميز به القوم من الادب والاخلاق ، رقم ٣٩ تصوف ، ميكروفيلم ١٠٤٠٦ ، عدد ورقة ٣٢٠ ق ، بدون ترقيم صفحات .

فُخاطبت مَوجوداً بغير تَكَلُّمٍ ولأحظت معلوماً بغير عيان (٥٥)

ليس بين المستمع والله حجاب الا حجاب النفس الكثيفة وعلائق القلب الكونية ، لذا يجب قطع هذه العلائق والعوائق حتى تفيض على القلب العوارف والمعارف الربانية وذلك من خلال الذكر ، وعدم الغفلة في وجود الذكر الناتج عن السماع وما يثمر عنه من وجد وهيام ، ومن ثم يتحقق بالوجود بالحق تعالى .

وكذلك يرى صوفية الشطوح أن العبد اذا وصل الى حالة الشعور بالاتحاد الالهى فان ذلك يرجع الى العديد من الأسباب ، منها شدة الوجد الناجم عن السماع ، وكذلك يشعر أن هويته هى هوية الوجود الشامل الذى هو الله ، وأيضا حال السكر الذى يشعر فيه المستمع بالاتحاد ، وأخيراً فناء المستمع عن نفسه أثناء السماع ولا يسمع الا هاتفا الهياً من داخل نفسه يدعو الى الاتحاد ، وهذا ما يوضحه قول عبد الرحمن بدوى : « هناك عناصر ضرورية لوجود ظاهرة الشطوح هى : أولا شدة الوجد ، وثانياً : أن تكون التجربة تجربة اتحاد ، وثالثاً : أن يكون الصوفى فى حال سكر ، ورابعاً : أن يسمع فى داخل نفسه هاتفاً الهياً يدعو الى الاتحاد فيستبدل دوره بدوره ، وخامساً ان يتم هذا كله والصوفى فى حال من عدم الشعور ، فينطق مترجماً عما طاف به متخذاً صبغة المتكلم وكأن الحق هو الذى ينطق بلسانه » (٥٦) .

والمستمع الحق عليه الصعود الى مرحلة الاستغراق الكامل فى شهود الأحدية ، وذلك بالغيبة عن نفسه فى حال الفناء فيفنى عن كل اسم ووصف ورسم وكل ما هو كائن ، وذلك لاستيلاء الحق عليه فى حال الشهود حتى يشعر بالاتحاد مع الحق تعالى : « ولهذا سمع ابراهيم بن أدهم وهو أحد المحبين قائلاً يقول فى سياحته نظماً :

(٥٥) نشأة التصوف الاسلامى : ص ٢١٢ ، وانظر التصوف حياة وسلوكا : ص ٧٧ ، وانظر قدوة السالكين ، ص ٨٦ ، وانظر شرح ثائية السلوك الى ملك الملوك : ص ٥٨ ، وانظر د. عبد الحليم محمود : أبو مدين الغوث ، حياته ومعراجه الى الله ، دار الكتب ، ١٩٧٤ ، ص ٦٢ .

(٥٦) نظرية الانسان الكامل عند عبد الكريم الجيلى ، ص ١٢٩ .
(هو أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى ، مات سنة احدى وستين ومائتين .
وكان يقول عرفت الله بأش وعرفت ما دون الله بنور الله ، انظر طبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، وانظر د. عبد الحليم محمود أبو يزيد البسطامى ، دار التراث العربى للطباعة والنشر ، ١٩٧١ م ، ص ٢٨ .

كل شيء لك مغفور . سوى الأعراس عنى
قد وهبنا منك ما فسا . ت بقى ما فسات منى
فاضطرب وغشى عليه . فلم يفق يوماً وليلة » (٥٧)

وهذا ما يعبر عنه بالفناء عن الإرادة ، والوجود بالإرادة الالهية ،
أى الاتحاد الشعورى بالذات الالهية فى حال السكر والفناء .

أما القول بالحلول وهو شكل آخر من أشكال الفناء الذى يغيب
فيه السامع عن نفسه وعن سماعه فى الأكوان فينطلق بشطحات منها
شعوره بحلول الحق الأزلى الوجود فى الانسان المحدث الوجود فى حال
السكر ، وظهور الله فى الانسان لا يعنى حلولاً ، أو اتحاداً بالمفهوم
الحسى وإنما يعنى أن الله يظهر بصفاته فحسب فى الانسان مع تمايز
الله عن الانسان تمايزاً تاماً ، وهذا ما يؤكد الطوسى بقوله : « ان
الصوفى فى حالة الشطح مطلوب على أمره تماماً ، ولذلك فهو معذور
فيما يصدر عنه فى هذه الحالة من عبارات ، ويضرب مثلاً بالماء الكثير
إذا جرى فى نهر ضيق فانه يفيض عن حافته ، ويقال شطح الماء فى
النهر ، فكذلك المريد الواجد اذا قوى وجدده ، ولم يطق ما يرد على
قلبه ، نطق بعبارات مستغربة مشككة على فهم سامعها ، وعلى السامع
أن يسأل عنها من يعلم علمها ولا يسارع الى الإنكار » (٥٨) .

وإذا كان الفناء قد أدى بالبسطامى الى القول بالاتحاد ، فانه قد
أدى بالحلاج الى القول بالحلول وهو فناء الإرادة الانسانية تماماً فى
الإرادة الالهية بحيث يصبح كل فعل صادر عن الانسان صادراً عن
الله ، وهذا الحلول كما سبق أن وضحا هو حلول شعورى وليس حلولاً
حقيقياً ، ولهذا فان حلول الحلاج الذى يتم فى حال الفناء عن شهود
السوى لا يختلف عن مذهب وحدة الوجد من خلال الفناء عن الشهود عند
ابن عربى وغيره .

وينتهى الصوفية الاتحاديون الى القول بالاتحاد مع الحق تعالى ،
فلا سماع عندهم الا من الحق تعالى ، فلا يشعرون بالسماع ولا بأى

(٥٧) قوت القلوب : ج ٢ ، ص ١١٥ ، وانظر نشأة التصوف الاسلامى : ص ٢٢٤ ،
وانظر الكشكول : ج ١ ، ص ٧١ ، وانظر أيضاً ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى .
ص ٧٥ .
(٥٨) اللمع : ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، وانظر مدخل الى التصوف الاسلامى : ص ١٢٠ .
١٤٤ ، وانظر الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامى : ص ٦٥ ، ٧٣ .

شئ من الأغيار والسوى وقت الاتحاد مع الحق تعالى ، وذلك في حال
الفناء ، هذا الفناء هو ثمرة وجد صوفي لا غير ، وكذلك نتيجة معاناة
نفسية لا يشعر بها كل فرد ، وعندما تنتفي هذه الحالة ويعود الى حال
البقاء يقول بالاثنيانية بين الارادة الالهية والارادة البشرية ، وهذا
ما يوضحه العديد من أحوال الصوفية ، منها شطحات الحسين بن
منصور الحلاج حيث أنشد :

عجبت منك وهني أدنيتي منك حتى
أدنيتي منك حتى ظننت أنك أنسي
وغبت في الوجد حتى أفنيتني بك عنى

ثم أخذ يترنم ويرقص ، وهو في حالة من النشوة العارمة والوجد
العنيف (٥٩) .

مما سبق يتضح لنا ان أصحاب نظرية الاتحاد والطول هم أصحاب
نظرية نفسية تعبر عن حالة المرید في الوجد الناتج عن السماع الحسن
والفناء في هذا السماع .

رابعاً : السماع عند الصوفية المتفلسفين من أصحاب الوحدة •

[١] وحدة الشهود •

يذهب صوفية وحدة الشهود الى أن المستمع لا يتحقق بشهود
الوحدة في الوجود الا في حال الفناء ، أي لا يشعر بجوارحه أو بالعالم
الخارجي ونفسه وقت السماع الحق ، ومن ثم يشعر بشهود الأزل ،
وما ذلك الا لاستغراقه في شهوده وغيابه عما سواه بالكلية ، فعندما
يكشف الحق تعالى عن وجوده تنتفي الظلمة العدمية بظهور نوره
الأزلي ، فالوجود الحقيقي للحق تعالى ، وأما الصور العدمية فهي
النفس والعالم والكائنات ، وعلى أساس ذلك ينصح الصوفي ابن الفارض
السامع اذا أراد أن يشهد الوحدة ضرورة أن يجعل كل سماعه شهوداً
للحق ، والاستغراق في شهود الأزلية ليتحقق له نور الحق الأزلي ،
ومن ثم يتخذ ابن الفارض من شعره تعبيراً عن وحدة الشهود تعبيراً
ذوقياً من خلال السماع الحسن فيقول :

(٥٩) د. طه عبد الباقي سرور : الحسين بن منصور الحلاج شهيد التصوف
الاسلامي ، دار نهضة مصر ١٩٨١ م ، ص ١٤٤ ، وانظر أخبار الحلاج أو مناجات الحلاج :
ص ١٠٠ ، وانظر الكواكب الدرية ، ج ٢ ، ص ٢٦ .

وكلى أنسان ناظر سمع يد لنطق وأدراك وسمع وبطشه
ففى ناجت واللسان مشاهد وينطق منى السمع واليد أصفت
وسمعى عين تجتلى كل ما بدا وعين سمع أن شهد القوم تنصت (٦٠)

وهذه هى وحدة الشهود ، فلا يرى ولا يسمع ولا يحس ولا يكلم
الا مولاه ، غائبا عن كل ما سواه ، فاذا عاد اليه عقله رأى الحق ،
وفى مقام الجمع أو الاتحاد تتمثل الوحدة عندما يصل السالك الى هذا
المقام حيث تختلف وظيفة حاسة معينة بوظيفة حاسة أخرى ، فاذا
تكلم الانسان أصبحت نفسه كلها لسانا ، واذا بصر صارت نفسه كلها
عينا وكذلك اذا سمع كانت نفسه كلها أذنا ، ونظرية الوحدة أى وحدة
الشهود عند ابن الفارض وغيره تنفى القول بالانثنية بين الله والانسان
وتجعل الله متجليا فى كل مظاهر الوجود المتعددة ، كما أن وحدة الشهود
هى فناء السوى فى حال الشهود الحسى .

كما يثبت ابن الفارض نظرية وحدة الشهود من خلال القول بالمحبة
الالهية فى مقام الجمع والاتحاد ، فالاتحاد بين المحب والمحبوب ليس
اتحادا وجوديا وانما هو اتحاد شعورى يشهد فيه المحب الوجود
الواحد المطلق للحق تعالى ، ومن ثم يشعر بأن الحق تعالى هو سمعه
الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ومن شأن هذا الحب الالهى عند
ابن الفارض وغيره من الصوفية أن يقتدرن بحال الفناء الذى يغيب فيه
الصوفى عن ادراكه لذاته لفنائته فى المحبوب وهو الله ، ولا يعود فى هذه
الحالة يشعر بنفسه ولا بشئ من لوازمها ، وبعد ذلك الفناء يعود
الصوفى الى حال البقاء الذى يشعر فيه بنفسه وبالعالم الخارجى ،
وهذا ما يعبر عنه ابن الفارض بشعره :

فكن بصرا ونظرا وسمعا وعه وكن لسانا فالجمع أهدي طريقه (٦١)
وكذلك يقول :

ليشهد سمعى من أحب وان فأتى بطيف ملام لا بطيف منام (٦٢)
كذلك يعبر جلال الدين الرومى (ت ٦٧٢ هـ) عن شهود الوحدة فى
الوجود من خلال عاطفة الحب الالهى التى غلبت عليه مثل ابن الفارض ،

(٦٠) ابن الفارض والحب الالهى : ص ٣٦٤ .
(٦١) ابن الفارض والحب الالهى : ص ١٩٩ ، ٦٨ .
(٦٢) ابن الفارض والحب الالهى : ص ١٩٩ ، ٦٨ .

فالمشاهد للوحدة في الوجود يشاهد عظمة الحق تعالى وانفراده بالوجود الحقيقي ، وكذلك لا يستطيع في شهوده واستغراقه التام مع الحق أن يسمع أى شيء من هوى نفسه ، بل يكون في فناء عن الأغيار والأسباب ، إذن ، فالمستمع في شهود الوحدة يفنى عن نفسه وعن السماع فلا يعود يرى موجودا سوى الحق في الوجود ، فالله هو الحقيقة المطلقة الوجود ، وما عداه فوجوده نسبي متكرر متعدد ، ولهذا صار السماع عند ابن الرومي غذاء للعاشقين وفيه شهود الوحدة والاجماع ، وهذا ما يوضحه بقوله :

لقد صار السماع غذاء للعاشقين وفيه خيال الاجماع (٦٣)

[٢] وحدة الوجود *

لقد ذهب صوفية الوحدة الى القول بأن وحدة الوجود يستتبع القول بالفناء عن كل شيء وقت السماع والبقاء بصفات الحق تعالى وكذلك الشعور بأن وجود الحق تعالى متجل في جميع المخلوقات ، فالحق تعالى هو الوجود الواحد المطلق والأغيار لا وجود لها الا به ، كما أن الوجد أساس الوجود ، وهذا ما يوضحه ابن عربي بقوله : « كل سماع لا يكون عنه وجد وعن ذلك الوجد وجود فليس بسماع » ، كما قال تعالى (كن فيكون) بمنزلة الوجد الذي يجده أهل السماع في قلوبهم من العلم بالله الذي أعطاهم السماع في حال الوجد فمن لم يسمع سماع وجوده فما سمع » (٦٤) .

فالموجد حال يثبته الحق تعالى عن السماع الحسن يفنى فيه المستمع عن وجوده وكل ما حوله ولا يشعر بشيء الا بوجود النور الالهي ، وهذا الحال لا يدوم الا قليلا ، فلا بد للمريد من العودة الى حال البقاء بعد ذلك الفناء الناتج عن الوجد ، حتى يحس بما حوله ، والا يعتبر ذلك الوجد غير حقيقي ، ويسمى تواجدا وهو استدعاء الوجد والتظاهر به .

ولكى يتحقق القلب بالفناء عن سوى والبقاء بالحق لا بد له من الطهارة ، (وطهارة القلب من حيث هي ضرورة للمعرفة - تتم بالوسائل

(٦٣) التصوف في الاسلام : ص ٥٦١ .

(٦٤) الفتوحات المكية : ج ٢ ، ص ٤٨٤ .

العملية كالمجاهدات والرياضيات ومنها الخلوة والذكر فهما معاً وسيلة القلب لقطع كل الشواغل التي تقطعه عن الحق من ناحية ، وهما معاً يسهمان — في الوقت نفسه — في حصول المعرفة للانسان اذا ما احكم كل منهما الخلوة وسيلة للقلب تمكنه من نفى الأغيار عنه بوضعهم عين الحجاب عن الحق . . ، والذكر — أيضاً — لا يقل أهمية عن الخلوة في تحقيق التجلية للقلب من ناحية وفي حصول المعرفة بالله عن طريق من ناحية أخرى » (٦٥) .

ويذهب الدكتور / أحمد الجزار الى القول بأن معنى الفناء عند ابن عربي هو حالة الاستغراق التام من جانب الانسان في موضوع ما ، وهو بالنسبة للصوفية ، هو الحق تعالى ، وهذا الاستغراق الذي يقصدونه من الفناء ، هو حالة قد تلازم أى انسان اذا أدام النظر والتفكير في مسألة معينة ، فهذه أدنى درجات الفناء في حكم المتفكر لأنه « اذا استغرق الانسان الفكر — كما يقول ابن عربي في أمر من أمور الدنيا أو في مسألة من العلم ، فتحدثه ولا يسمعك وتكون بين يديه ولا يراك » (٦٦) .

ويقسم ابن عربي الفناء الى العديد من الأقسام ، أما القسم الثالث من الفناء هو الذي يفنى فيه العبد عن صفات الخلق والبقاء بصفات المحبوب ، واذا ما وصل العبد الى هذه المرحلة كان قد بلغ مرتبة الانسان الكامل ، وهذا ما يوضحه ابن عربي بقوله : « وأما النوع الثالث من الفناء ، فهو الفناء عن صفات الخلق لقوله تعالى في الحديث القدسي « كنت سمعه وبصره ويده . . . » فالسمع والبصر واليد وغير ذلك هي من أعيان الصفات التي للعبد ، فاذا فنى في المحبوب — الحق تعالى — أتيج له هذا الفناء أن يكون عين الحق بصفاته ولكنه من حيث عينه الثابتة هو نفسه التي اتخذها الحق تعالى مظهرًا وظهور فيه ، فلما فنى الانسان في الحق تعالى قامت فيه صفات الحق » (٦٧) .

فوحدة الوجود عند ابن عربي هي امتداد لوحدة الشهود ، ومن ثم يحاول ابن عربي اثبات وجود الحق من خلال الفناء في السماع ، وهنا

(٦٥) د. أحمد محمود الجزار : الفناء والحب الإلهي عند ابن عربي ، مكتبة نهضة الشرق ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٠ م ، ص ١٤٥ .
(٦٦) نفس المصدر السابق ، ص ١٦٩ .
(٦٧) الفناء والحب الإلهي عند ابن عربي : ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

الفناء ليس غاية في ذاته وإنما هو أداة للتحقق بالوحدة الوجودية .
و هذا ما يؤكد قول ابن عربي (وليس مرادنا من الاتحاد الا شهود
الوجود الحق الواحد المطلق الذي هو الكل به موجود ، وصح الحديث
بالاتحاد (كنت سمعه) الى آخره فيجد الكل به من حيث كل شيء موجود
به ، معدوم بنفسه الا من حيث أن له وجوداً خاصاً اتحد به ، فهو
محال » (٦٨) .

فابن عربي يؤكد الوجود من خلال القول بالاتحاد أثناء السماع ،
ولكن هذا الاتحاد ليس اتحاداً مادياً بين العبد والرب وإنما هو اتحاد
شعوري نتيجة للحالة النفسية التي تنقلب المريد وقت السماع ، وهذا
ما يوضحه الدكتور الجزار بقوله « وهذا المعنى الذي حدده ابن عربي
لوحده من خلال الاتحاد ، يرمى به الى شهود الوجود المطلق الذي هو
عين كل حقيقة كل موجود ، ومع ذلك لم يرم ابن عربي منه الى تأكيد
الاتحاد حقيقة بين العبد والرب أو بين الخالق والمخلوق وإنما هي وحدة
تتم من خلال الحالة النفسية التي يحيها المحب الفاني في
محبوبه .. » (٦٩) .

كذلك يرى صوفية الوحدة أن السماع الحق هو السماع المطلق الذي
لا يتقيد بشرط أو يتعلق به قلب السامع وفيه الفناء عن السوى والنفس
والسماع نفسه وقت الوجد ثم البقاء بهذا السماع بعد الفناء ، أي أن
السماع أصل الوجود ، وهذا ما يوضحه شعر ابن عربي :

خذها اليك نصيحة من مشفق	ليس السماع سوى السماع المطلق
واحذر من التقيد فيه فإنه	قول بعيد عن كل محقق
إن السماع من الكتاب هو الذي	يدريه كل معلم ومطرق
إن المتغنى بالقرآن سماعنا	والحق ينطق عن كل منطق
والله يسمع ما يقول عبده	من قوله فسماعه يتحقق
أصل الوجود سماعنا من قول كن	فيه نكون ونحن عين المنطق
فالسمع أشرف ما تحقق عارف	يتعلق وتحقق وتخلق » (٧٠)

(٦٨) الفناء والحب الالهي عند ابن عربي : ص ٢٣٢

(٦٩) الفناء والحب الالهي عند ابن عربي ، ص ٢٣٣ .

(٧٠) الفتوحات المكية : ج ٢ ، ص ٤٨٣ ، انظر خلة الاخوان ونصرة الخلان في

جميع الاطائف والاعيان : ص ٤٧ ، ٤٨ .

وعلى ذلك فالسمع المطلق هو وحده السماع الحقيقي وهو سماع القرآن الكريم . أى كلام الحق تعالى ، وما عداه من سماع هو سماع مقيد لا وجود له فى الحقيقة ، والله تعالى يسمع ما يقوله عبده ومن ثم فسماعه يتحقق ، فالسمع هو أصل الوجود . ذلك لأن وجود السماع هو عين سماع الحق ، ومن ثم هو عين وجود الحق تعالى ، ولا يتحقق بهذا السماع الا عارف متحقق بالمعرفة الالهية .

كما يذهب ابن عربى الى أن العبد اذا تحقق بالسمع وفنى فى سماعه عن السوى تمت له المكاشفة ورفع الحجب والاستار بينه وبين الحق تعالى ، وهذا ما يوضحه بقوله : « كل من تحقق بسماعه من وراء حجاب تخلق على ذلك القدر بسماعه على الكشف وارتفاع الوسائط . . ، فالعبد المحقق فى السماع لا يزال يسمع بالحق حتى يسمعه الحق . . ، والعبد فى الحق موجود فى حقيقته مفقود » (٧١) .

أى أن العبد فى سماعه الحقيقى موجود ومتحقق ، فان عن كل ما سوى الحق تعالى حتى السماع نفسه فان عنه .

كما يذهب الصوفية الى القول بأن الوجود الحقيقى المطلق متحقق فى كلمات الله المسموعة ، هذا السماع الالهى هو سماع روحانى ، اذ يسمع المرید فيه من كل شىء حوله من الأصوات وحركة الأشجار وصرير الباب ، وكذلك يسمع ويرى وجود الله فى كل شىء وبكل شىء وهذا السماع الروحانى يتبعه علم ومعرفة عكس السماع الطبيعى لا يكون معه علم أصلا ، وهذا ما يوضحه ابن عربى ، عندما يقسم السماع الى : « سماع الهى ، وسماع روحانى وسماع طبيعى ، فالسمع الطبيعى لا يكون معه علم أصلا ، والسمع الروحانى فتعلقه صريف الاقلام الالهية فى لوح الوجود المحفوظ من التغير والتبديل ، والسمع الالهى بالأسرار ، وهو السماع من كل شىء ، وفى كل شىء ، وبكل شىء ، والوجود عندهم كله كلمات الله » (٧٢) .

وكذلك يقول : « والسامعون شخصان عند ابن عربى : شخص يسمع بنفسه ، وشخص يسمع بعقله ، لكن للعقل سمعان : سمع من حيث فطرته ، وسمع من حيث الوضع ، فالذى له من حيث الوضع هو الذى قيل عنه : يسمع بربه وعلامته فى ذلك البهت وخمود البشرية ،

(٧١) مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار ، ص ٧٨ .

(٧٢) دراسات فى التصوف الاسلامى ، شخصيات ومذاهب ، الاسكندرية ، دار

الفكر العربى ، بدون تاريخ ، ص ٣٢٠ .

والذى يسمع بنفسه لا بعقله لا يسمع الا النغمات والاصوات العذبة الشهية ، وعلامته أن يتحرك عند السماع بحالة فناء عن الاحساس » (٧٣) .

كذلك يرى صوفية الاسلام أن للعبد مقاماته وأحواله ورياضاته لا يخرج عن نطاق الوحدة المطلقة وزوال الاضافة والأسباب ، وهذا ما يوضحه ابن سبعين بقوله : « المقامات والأحوال التى هى ثمرة الذكر لا تخرج عن نطاق الوحدة ، وكذلك الخلوة والعزلة والصوم والدعاء ، بل والسماع أيضاً جميع ذلك عنده ينتهى بالسالك أو المسافر الى زوال الاضافة والتحقق بالوحدة المطلقة » (٧٤) .

فالوحدة التى يقصدها ابن سبعين هى وحدة شعورية وليست وحدة مادية كما سبق أن ذكرنا عند ابن الفارض فى الحب الالهى .

ويرى الأستاذ الدكتور / التفتازانى أن ابن سبعين يتفق أيضاً مع الصوفية فى أن السماع وسيلة الى رد الفائت من الأحوال وحفظها ، وإلى راحة الفقراء فى سلوكهم ولكنه يختلف معهم فى أنه يفلسف السماع على طريقته ، فيجعل تلك الراحة التى تحدث للنفس فى السماع نتيجة تهيئها لقبول الأمر الذى لا من جنس ما يكتسب ، ويعنى بذلك علم التحقيق ، وتعلقها بالنظام القديم الذى هو عين الوحدة المطلقة ، فيقول : « والسماع يكون فى وقت الحاجة اليه . . ، لأن السماع يطلب به خمس فضائل : الأولى رد الفائت من الأحوال ، والثانية حفظ ما يحد الملكية ، الثالثة استجلاب ما لم يفهم بالمدرک الفقير (لعله يعنى به العقل) ، لأن القلوب فى السماع منسحرة ، تنتظر ما يخلق فيها وما يحدث عنها من النظام القديم (أى الوحدة المطلقة) » (٧٥) .

وخلاصة القول أن صوفية الوحدة ترى أن القول بوحدة الوجود يستتبع القول بأن كل وجود وكل عمل وحركة وسماع هى فى الحقيقة لله تعالى ، وهذه الوحدة تستلزم من العبد السماع تنزيه الله عن جميع صفات الخلق ، وكذلك الشعور بأن وجوده متجل فى جميع المخلوقات ، وأيضاً المعرفة بأن الإرادة الالهية المطلقة هى وحدها العلة فى وجود كل

(٧٣) على عبد الجليل راضى : الروحية عند ابن عربى ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٤٦ م ، ص ١٩٢ .

(٧٤) مدخل الى التصوف الاسلامى ، ص ٢٥٩ .

(٧٥) ١٠ د. أبو الوفا التفتازانى : ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٧٣ ، الطبعة الاولى ، ص ٤٥١ ، ٤٥٢ .

شيء في العالم ، والفناء عن صفات النفس والأغيار والسوى أثناء
السماع ، ومعرفة أن الأغيار والسوى لا وجود لها ، ومن ثم لا يصبح
العبد سامعا ، ولا عارفا اذا ثبت للأشياء وجود فالحق تعالى هو
الوجود الواحد ، والوجود المطلق والعالم والأغيار لا وجود لها الا به ،
وهذا ما يوضحه ابن عربي بقوله : « فان لم تتفرغ الخواطر للسماع
لم تتفرغ الأعضاء للتخلق واذا لم يصح التخلق لم يكن التحقق » (٧٦) .

خاتمة

والآن ، بعد أن انتهينا من دراسة موضوع السماع لدى صوفية الاسلام وما ينطوى عليه من المعانى الصوفية والتصورات الفلسفية ، وجب علينا أن نلم في هذه الخاتمة بأهم النتائج التى توصلنا اليها فى بحثنا هذا ...

أولا :

آلة السماع الأذن ، وان باقى الأجزاء الموجودة بالجسم لا تتمتع بحاسة السمع لما فى الأذن من هواء داخلى يتحرك بالهواء الخارجى ، وأن الأصوات نوعان : طبيعية ، وغير طبيعية وكلاهما ينقسم الى نوعين •

ولقد وردت العديد من الأحاديث والآيات القرآنية الكريمة التى تحت على السماع الحق (القرآن الكريم) والأشعار التى تحت على الطاعة وتذكر بيوم اللقاء ، وكذلك تعارض هذه الأحاديث السماع السبىء المير للشهوة والهوى فى نفوس المستمعين ، مثل سماع الغناء والأشعار بالنغمات والألحان والموسيقا وآلات الطرب الحديثة المختلفة •

كما ينبى على ذلك كراهة أئمة الفقه لسماع الغناء واعتباره منبت النفاق فى القلب ، لكنهم أباحوا سماع الأناشيد والأشعار التى تحت

على الطاعة والقيام بأوامر الحق ونهيه ، فإذا كان أهل الصوفية والفقه قد أباحوا سماع الأشعار فإنهم كرهوا سماع هذه الأشعار بالألحان مع استخدام الآلات الموسيقية الحديثة ، وإنما استخدموا مع الانشاد الدينى الدف والمزمار وهى الآلات التى استخدمت منذ عهد الرسول ﷺ عندما قام أهل المدينة باستقباله بالانشاد والضرب على الدفوف .

إذن فالزهاد الأوائل اعتبروا السماع الحق ، سماع القرآن الكريم ومجالس العلم والحكمة ، كما أنهم أيضا أباحوا سماع الترفيه قليلا من أجل الاستجمام من تعب الوقت وأعباء الحياة ، ومن ثم فالسماع من الرياضات الروحية التى يمارسها المريد من أجل التطهر والصفاء ، وهذا لا يقدر عليه الا العلماء والعارفون .

ثانيا :

وإذا كان هذا مفهوم السماع عند الزهاد الأوائل فإنهم قسموا الناس فى السماع على ثلاثة أقسام وذلك على قدر المعرفة والتحصيل والفهم لما يرد على قلوبهم ، سماع الغوام وهو حرام ذلك خوفا لبقاء نفوسهم فى السماع واستلذاذه ، ومن ثم يصبح عادة تشغلهم عن القيام بالطاعات وأوامر الحق تعالى ، وسماع الزهاد ، وهو مباح لهم إذا كان يعمل على مجاهدتهم ويقظة قلوبهم بالحق واعتباره غذاء لأرواحهم لا يمكن الاستغناء عنه .

كما أن السماع عند الصوفية يحصل به رقة القلب وخشوعه وإثارة الشوق الى لقاء الله والتشويق الى دار القرار ، والخوف من عدم استقامة الظاهر والباطن ، حتى يستخرج السماع من قلوبهم أنواعا من اللطائف والمعارف والمكاشفات ، وإذا كان السماع بحق وبقلب يقظ لما يسمع بعيداً عن الغفلة وقت السماع آثار الوجد الحقيقى ، أما إذا كان تصنعاً فإنه يثير التواجد ، وهو استدعاء حال ليس عليه صاحبه ، هذا الوجد نتيجة لقوة الوارد من الحق تعالى فيثبث فى نفس السالك الاحساس بالخوف والرغبة والرجاء من الحق تعالى ، وهذه المشاعر تنعكس على نفس السالك فتفيض عيناه بالدمع او يفتشعر جلده من خشية الحق تعالى ، ثم يلين قلبه ويصلح بذكر الحق ، ومن ثم يتحقق له الهداية .

ثالثا :

إن السماع الصوفى يتطلب من المريد صفات وفضائل اخلاقية منها اخلاص النية ويقين القلب وصدقه لما يسمع وفناؤه عن كل ما يشغله

عن السماع وقت السماع ووجوده بالصفات والأسماء والمعارف
الالهية .

وينبنى على ذلك انه لكى يتحقق السماع الحسن لا بد من ثلاثة
اشياء هى الوقت المناسب لاجتماع أهل الصلابة ، وكذلك المكان
المناسب فلا يكون فى شارع أو مكان مزدحم ، بل يكون فى زاوية حتى
يسهل على المريدن الاجتماع فيها ، وأيضاً أن يكون أهل الصلابة من
الأخيار والصلحين حتى يكون ذلك عواً للمريد على تحقيق مراده .

رابعاً :

يتضح أيضاً كراهة بعض الصوفية للرقص والحركة فى السماع ،
أما اذا كانت هذه الاهتزازات والتهاليل نتيجة لوارد قوى من قبل الحق
تعالى أثناء الوجد الناتج عن السماع فلا بأس بها ؛ ذلك لأن الوجد
لا يحدث لكل السامعين ، وإنما لمن هم على درجة عالية من المعرفة
والاخلاص والصدق فى سماعهم وفهمهم للمعاني المسموعة ، وهذا الأمر
أيضاً ينطبق على موقف الصوفية من تقطيع الخرقه .

خامساً :

يقيم الصوفية الأوائل مجالس للسماع يتلى فيها القرآن الكريم أو
تنشد فيها الأناشيد الدينية التى ترقق القلب وتهذبه ويتبعون فى ذلك
العديد من الآداب ، أما المجالس الصوفية الآن فقد التصق بها العديد
من البدع التى لم تكن موجودة عند الصوفية الأوائل ، وإنما هى أمور
استحدثها مدعو التصوف ، حيث أصبحت مجالس السماع والذكر
مجالس لتخريج المغنيين .

سادساً :

فالسماع ، إذن ، له تأثير عظيم فى نفس المستمع ، فإذا كان قلبه
يقظاً ومنتبها لما يلقى عليه استلذت روحه بما يسمع ، ويعمل الصوفية
أن ادعاء سماع الآلة المطربة وعدم استلذاذها يرجع الى غفلة القلب،
وعدم يقظته لما يلقى عليه من أنواع السماع ، وكذلك الى كذب
الشخص السامع بأن السماع الالهى لا يؤثر عليه ، فسماع الموسيقى
والألحان الجميلة بالصوت الحسن يهتز لها الانسان وكذلك الحيوان .

سابعا :

الصوفي أنسان ذو احساس مرهف يحس بمعانى الكلمات التى لا يفهمها غيره من السالكين المبتدئين ، وعندما يحس بهذه المعانى يغرب ويفنى عن كل ما حوله من المحسوسات ، ويشعر بعالم الروح ويدرك فيه لذة الخطاب الالهى ، وفى هذا العالم لا تكون له ارادة ولا حركة ولا اختيار فيما يقوم به من انفعالات واضطرابات نتيجة لقوة الوارد الالهى عليه ، لكى يصل الى العالم الروحى ، عالم الصفاء والنقاء ، واشتروطوا لذلك العديد من الآداب الأخلاقية ، منها عدم الاستماع الى الباطل ، وأن يتعلم حسن الاستماع ، كما يتعمل حسن الكلام ، ذلك لأن المستمع شريك القائل .

ثامنا :

السمع الصوفى لا ينتج شئ جديد ، وإنما يعمل على إثارة ما فى قلب المرید فاذا كان السماع حسنا آثار الشوق والخوف والترهيب فى القلب ، واذا كان السماع سيئا آثار الشهوة والهوى والخبائث ، اذن فرياضة النفس اخلاقيا تجعل شخصية المستمع شخصية سوية خالية من الأحقاد ، يتعامل مع الآخرين بنفس طاهرة من خلال ترك الاستماع الى الخبائث وتنزيه اللسان عن النطق بها وغير ذلك من الأخلاق الكريمة الفاضلة التى يفرضها الدين والمجتمع .

تاسعا :

لقد ربط الصوفية بين رياضة السماع والمقامات والأحوال ، فالعبد لا يتحقق له مقام التوبة والندم الا اذا سمع ما يحثه على ذلك ، فالسمع يعمل على صفاء الروح وتخليصها من كدورات النفس ، ذلك لأن الروح لا تقوى الا بضعف النفس ، ولهذا فان نهاية السماع عند الصوفية هو الفناء عن سائر الأشياء وقت السماع الحق والبقاء بالصفات الربانية .

ولقد ذهب الصوفية الى أن الجهر بالذكر لا ينكره الا نفس جاهلة غيبة ؛ ذلك لأن للذكر اهمية عظيمة لدى السامعين من حيث ايقاظ قلب الذاكر وجمع همته وسمعه الى معانى المسموع وبعده عن الغفلة ، ويقتطع القلب الذى اعتبره الصوفية أداة للمعرفة ومنهجهم فى ذلك الكشف الالهى أو المشاهدة الالهية نتيجة للوجد الناتج عن السماع

الحق ، وغاية المعرفة الصوفية من السماع هى الوصول الى السعادة واللذة الروحية بمعانى المسموع من خلال المشاهدة لجمال النور الالهى ، وعند ذلك يشعر المستمع بالوحدة ، وذلك بالفتاء عن نفسه والعالم الخارجى ويشعر بأن ذاته هى ذات الحق تعالى وعندما يعود الى حال البقاء يقول بالاثنية بينه وبين الذات الالهية ، كما أن هذا الاتحاد الذى يشعر به أثناء الوحدة هو اتحاد روحى وليس اتحادا ماديا ، اذ انه لا وجود الا للحق المطلق الوجود ، ومن ثم فانه لا سماع الا السماع المطلق وهو سماع القرآن الكريم والأحاديث النبوية والانشاد الدينى ، اما سماع الغناء بالايقاعات الموسيقية فهو السماع المقيد الوجود الحادث .

يمكن فى ضوء ما سبق عرضه من اختلاف الآراء حول مفهوم السماع لدى الصوفية ، أن ننتهى الى أن السماع الشرعى هو سماع القرآن الكريم وكل ما يحث على الطاعة والقيام بأوامر الشرع ونهيه ، كما بكرة الصوفية أيضا أن يكون السماع من المرأة الأجنبية أو الأمرد خوفاً من إثارة الشهوة ولكن مع ذلك لأباح الصوفية سماع الأصوات الجميلة والحسنة واستلذاتها ، ذلك لأن السماع غذاء الروح مثل الطعام غذاء الأبدان .

فالسماع ينطوى على قاعدة أخلاقية أيضا تحث المرید على الالتزام بها من خلال الالتزام بآداب السماع ، وبالرغم من كراهة الصوفية لسماع الغناء ، فانهم أباحوه فى بعض المواطن ، مثل الغناء فى المناسبات والأفراح والأعياد ، والغناء فى العمل للترفيه من مشقة العمل ، وكذلك الانشاد الدينى فى الحجيج الذى يرقق القلب ويذكره بالله تعالى ، وكذلك الغناء فى المعارك لرفع حماسة الجنود .

لقد سبق الصوفية علماء النفس فى ادراك الأهمية النفسية للسماع الحسن من حيث أنهم ذهبوا الى أن السماع فيه ترقيق ولطف للقلب وحرفه عن القسوة ونقائه من الأحقاد ، وكذلك فان لسماع الموسيقى فى بعض الأوقات أهمية عظيمة فى علاج الكثير من الأمراض النفسية وهذا ما توصل اليه علماء النفس فى الوقت الحال ، فالموسيقا لا تؤثر فى نفس الانسان فحسب ، وانما تستلذها أيضا بعض الحيوانات مثل الجمال التى تستلذ بصوت الحداء والأغنام بصوت المزمار وغيرها من الحيوانات .

وعلى الجملة : فان السماع الصحيح يعمل على التوازن النفسى

للإنسان وكذلك أيضا على تكوين شخصية سليمة بوضع يقبله المجتمع والدين ، كما أن السماع الحسن يعمل على التماسك الاجتماعي ، إذ أنه يدعو الفرد الى تحمل سماع الأذى والصبر على البلاء والبعد عن سماع المعاصي والندم والتوبة من الذنوب ، والشكر للحق تعالى ، لذلك فان السماع بالمعنى الكامل يجعل الفرد يتحقق بالكمال الأخلاقي وهذا هو ما يطلبه كل من الفرد والمجتمع .

إذن نستطيع القول بأن الصوفية الأوائل أصحاب نظرية أخلاقية هامة نحن الآن في ميسر الحاجة اليها والالتزام بها من أجل المحافظة على عقيدتنا .

تثبيت المصادر والمراجع

أولا : المخطوطات العربية :

- ١ - ابن عربي (محيي الديني) : مخطوط شمس الطريق رقم ٩٦ مجاميع ، ميكروفيلم ٣٠٥٥ ، عدد ورقة ١٧ ق .
- ٢ - أبو الفضل (كمال الدين) : الامتاع بأحكام السماع ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٦٨ تصوف ، ميكروفيلم ، ١٢٣٢٥ .
- ٣ - أبو المواهب (زين العابدين محمد العمري المرصفي) : أهنسن التلقى في معرفة السير والترقي ، مخطوط بدار الكتب رقم ٧٠٤ تصوف ، ميكروفيلم ٣٣٨٨٠ ، عدد ورقة ٤٠ ق .
- ٤ - أبو المواهب (زين العابدين) : الأجوبة المسكتة عن مسائل السماع المبهمة ، مخطوط بدار الكتب رقم ٧٠٤ تصوف ، ميكروفيلم ٣٣٨٨٠ عدد ورقة ٤٠ ق .
- ٥ - الاسكداري (محمود بن محمد) : كشف القناع عن وجه السماع ، مخطوط بدار الكتب المصري رقم ٢٦٤ فقه تيمور ، ميكروفيلم ٥٠٠٩٥ ، تاريخ النسخ ١٢٨٢ هـ ، عدد ورقة ١٥ ق .
- ٦ - السهروردي (عبد القاهر أبو النجيب) : آداب المريدين ، مخطوط بدار الكتب رقم ١١٧ م تصوف ، ميكروفيلم ٥١٨٢٨ ، عدد ورقه ٧٤ ق ، المقاس ١٩ × ١٤ سم .
- ٧ - الشعراني (عبد الوهاب) : بهجة النفوس والأخلاق غيا يميز به القوم من الأدب والأخلاق ، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩ تصوف ، ميكروفيلم ١٠٤٠٦ عدد ورقة ٣٢٠ ق .
- ٨ - الشعراني (عبد الوهاب) : لطائف المنن والأخلاق ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٠ تصوف ، ميكروفيلم ٣٣٥٦٥ ، عدد ورقة ٣٥٤ ق .

- ٩ - **الشعراني (عبد الوهاب) :** المنن الكبرى والأخلاق ، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٢٢ تصوف ، ميكروفيلم ٣٣٠٦٠ .
- ١٠ - **الغزالي (جمال الدين أحمد بن محمد) :** بوارق الالماع فى تكفير من يحرم السماع ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٧٨ مجاميع ميكروفيلم ٤٥٣٢ .
- ١١ - **الكوراني (نفييس الكريدي) :** بوارق الالماع فى تكفير من يحرم السماع مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٧٨ مجاميع ميكروفيلم ٤٥٣٢ .
- ١٢ - **الغزالي (عبد الغنى) :** إيضاح الدلالات فى سماع الآلات ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٦٠ تصوف ، ميكروفيلم ٣٤٩٥٩ ، عدد ورقة ٤٠ ق .
- ١٣ - **الهجویری (ابن الجالاد) :** كشف المحجوب ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٧٩٣ ، تاريخ النسخ القاهرة ١٩٦٧ م .
- ١٤ - **الهروى (على بن محمد سلطان) :** فتح الاسماع فى شرح السماع ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨ م تصوف ، ميكروفيلم ١٨٦١ .
- ١٥ - **مخطوط بدون مؤلف :** رسالة فى السماع والتواجد ، رقم ٦٩٥ تصوف ميكروفيلم ٣٧٥١٢ ، عدد ورقة ٨ ق .

ثانيا : أ - المصادر والمراجع العربية :

- **معجم اللاهوت الكتابي ،** دار المشرق ، بيروت ، ١٩٨٦ م .
- ١ - **الحافظ (ابن أبى الدنيا) :** كتاب الورع ، حققه وأخرج أحاديثه مسعد عبد الحميد السعدنى ، مكتبة القرآن الكريم ، ١٩٩٣ م .
- ٢ - **ابن بطوطة :** رحلة الى بلاد الهند ، طبعة باريس ، ١٨٧٩ .
- ٣ - **ابن تيمية (تقى الدين) :** الرسالة التدميرية ، للسيد أبى عثمان ابن سهل الصابونى ، المطبعة الحسينية المصرية ، بدون تاريخ .

- ٤ — **أبن تيمية (تقي الدين)** : رسائل وفتوى شيخ الاسلام فى التفسير والحديث والأصول والعقائد والآداب والأحكام ، حققه وعلق حواشيه السيد / محمد رشيد رضا ، قدمه وراجعته محمد أنور أحمد البلتاجى ، مكتبة وهبه عابدين ، الطبعة الثانية ، ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢ م .
- ٥ — _____ : الفتوة الحموية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٧٨ هـ .
- ٦ — _____ : الصوفية والفقراء ، مراجعة أسامة محمد عبد العظيم حمزة ، دار الفتح ، ١٩٨٥ م ، وانظر الصوفية والفقراء تقديم د. / محمد جميل غازى ، مطبعة المدنى ، المؤسسة السعودية بمصر .
- ٧ — **ابن الجوزى (أبى الفرج عبد الرحمن)** : صفة الصفوة ، دار الكتب ، ١٣٩٣ هـ .
- ٨ — _____ : صفة الصفوة ، تحقيق وتعليق محمود شاخورى ، مكتبة النهضة الجديدة ، ١٩٧٠ م .
- ٩ — _____ : مختصر منهاج القاصدين ، تصحيح ونشر محمد أحمد دهمان ، دمشق ١٣٧٧ هـ ، أو دار الكتب ، ١٩٧٦ م .
- ١٠ — **ابن حزم (على بن أحمد)** : الأخلاق والسياسة ، تحقيق صلاح الدين بسيونى رسلان ، دار نهضة الشرق ، ١٩٨٥ م .
- ١١ — **ابن حنبل (الامام أحمد)** : مسند ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .
- ١٢ — **ابن حمد دين (محمد بن أحمد نور)** : قطع النزاع وكشف القناع عن دليل جواز السماع ، مكتبة الحلبي ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٤ م .
- ١٣ — **ابن الخطيب (اسان الدين الخطيب بن الوزير)** : روضة التعريف بالحب الشريف ، تحقيق د. / عبد القادر أحمد عطا ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٦ م .
- ١٤ — **ابن رشد (الوليد)** : كتاب النفس ، تحقيق د. / أحمد فسؤاد الأهوانى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠ م .
- ١٥ — **ابن سبعين (عبد الحق)** : الرسائل ، تحقيق د. / عبد الرحمن بدوى ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٥ م .

- ١٦ — **ابن سينا (أبى على الحسين) :** الإشارات والتنبيهات ، مطبعة
لیدن ، ١٨٩٣ م .
- ١٧ — _____ : رسالة الإنسانية وإدراكاتها ، مطبعة كردستان
العلمية ، ١٩٥٠ م .
- ١٨ — _____ : القانون في الطب ، مكتبة دار صادر ، بيروت ،
١٩٨٣ م .
- ١٩ — _____ : كتاب الشفاء ، بدون تاريخ طبع .
- ٢٠ — **ابن شاهاور (أبو بكر عبد الله) :** منارات السائرين ومقامات
الطائرين ، تحقيق سعيد عبد الفتاح ، دار سعاد الصباح ،
١٩٩٣ م .
- ٢١ — **ابن عباد الرندى :** غيث المواهب العملية في شرح الحكم
العطائية ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣١٠ هـ .
- ٢٢ — **ابن عبد ربه :** العقد الفريد ، لجنة التأليف والترجمة
والنشر ، ١٣٦١ هـ — ١٩٤٢ م .
- ٢٣ — **ابن عبد السلام (عز الدين) :** حل الرموز ومفاتيح الكنوز ،
مكتبة جريدة الاسلام ، القاهرة ، ١٣١٧ هـ — ١٨٩٩ م .
- ٢٤ — **ابن عجيبة الحسنى :** الفتوحات الالهية في شرح المباحث
الأصلية ، مطبعة الجمالية بحارة الروم ، ١٣٣١ هـ
— ١٩١٣ م .
- ٢٥ — **ابن عربى (محيى الدين) :** ترجمان الأشواق ، مطبعة بيروت ،
١٣٨١ هـ — ١٩٦١ م .
- ٢٦ — _____ : رسائل ابن عربى ، رسالة الموعظة الحسنة ،
رسالة عقيدة في التوحيد أو عقيدة أهل الاسلام ، مراجعة
عبد الرحمن حسن محمود ، رسالة روح القدس ، تقديم
طه بدوى علام ، مكتبة عالم الفكر ، ١٤٠٨ هـ — ١٩٨٧ م .
- ٢٧ — _____ : رسالة تهذيب الاخلاق ، مطبعة كردستان
العلمية ، ١٩٥٠ م .
- ٢٨ — _____ : الفتوحات المكية ، مطبعة بولاق ، القاهرة ،
١٨٧٦ م .

- ٢٩ — ————— : فلسفة الأخلاق ، دار الكتب ، ١٩٤٥ م .
- ٣٠ — ————— : كتاب الأخلاق ، مطبعة التقدم ، ١٩٢١ م .
- ٣١ — ————— : مواقع النجوم ومطالع اهل الأسرار ، مكتبة صبيح ، ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٥ م .
- ٣٢ — ابن عطاء الله السكندري : تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس مكتبة صبيح ، ١٣٤٥ هـ .
- ٣٣ — ————— : التنوير فى اسقاط التدبير وبهامشه تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس ، المطبعة الميمنية ، ١٣٢١ هـ .
- ٣٤ — ————— : لطائف المنن ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٢٢ هـ .
- ٣٥ — ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، مكتبة القدس ، ١٩٣٤ م .
- ٣٦ — ابن الفارض (عمر) : كشف الوجوه الغر لمعانى نظم الدر ، شرح ثائية ابن الفارض المسماة بنظم السلوك ، شرح عبد الغنى النابلسى ، وحسن البورينى ، جمع رشيد غالب ، المطبعة الأزهرية ، ١٣١٩ هـ — ١٩٢١ م .
- ٣٧ — ابن قتيبة الدينورى : عيون الأخبار ، مطبعة دار الكتب المصرية ، المطبعة الأزهرية ، ١٣١٩ هـ — ١٩٢١ م .
- ٣٧ — ————— : عيون الأخبار ، مطبعة دار الكتب المصرية ، المطبعة الأولى ، ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م .
- ٣٨ — ابن قدامة (محمد عبد الله) : فتيا فى ذم الشباب والرقص والسماع ، تحقيق عبد الرحمن محمد بن عقيل الظاهري ، مراجعة سهير مختار ، دار الكتب المصرية ، ١٩٧٦ م .
- ٣٩ — ابن القيسراني (طاهر المقدسى) : كتاب السماع ، تحقيق أبو الوفاء المراكى ، مكتبة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة احياء التراث الاسلامى ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م .
- ٤٠ — ابن قيم الجوزية : انفاثة اللفان فى مصايد الشيطان وبهامشه كتاب الهجرتين وباب السعادتين ، المطبعة الميمنية ، ١٣٢٠ هـ .

- ٤١ — : ثابيس ابليس ، مطبعة النهضة ، ١٩٢٨ م .
- ٤٢ — : تهذيب مدارج السالكين ، هذب عبد المنعم صالح
العلی ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، ١٩٨٣ م .
- ٤٣ — : حكم الاسلام في الغناء ، تحقيق أبو حذيفة
ابراهيم بن محمد ، مكتبة الصحابة بطنطا ، ١٩٨٥ م .
- ٤٤ — : الروح ، دار المعارف ، ١٣٢٤ هـ — ١٩٣٠ م .
- ٤٥ — : روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، مكتبة الفجالة
الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٣ م .
- ٤٦ — : كتاب الفوائد ، دار الريان ، ١٩٨٧ م .
- ٤٧ — : مدارج السالكين ، شرح منازل السائرين
للهروى ، القاهرة ، ١٩٥٦ م .
- ٤٨ — : مدارج السالكين ، تعليق السيد محمد رشيد
رضا ، مكتبة المنار ، القاهرة ، ١٣٣١ هـ .
- ٤٩ — ابن ماجه (الإمام) : سنن ابن ماجه ، دار الكتب بدون تاريخ .
- ٥٠ — ابن المنور (محمد) : أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبى سعيد
ترجمة د. / اسعاد عبد الهادى قنديل ، مراجعة
د. / يحيى الخشاب ، دار الكتب المصرية ، ١٩٦٨ م .
- ٥١ — أبو داود السجستاني : سنن أبى داود ، مراجعة محمد محيى
الدين عبد الحميد ، مطبعة الحلبي ، ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م .
- ٥٢ — أبو ذر القلموني : ففروا الى الله ، المكتبة التوفيقية ، ١٤٠٤ هـ .
- ٥٣ — اخوان الصفا : الرسائل ، مطبعة نخبة الأخيار ، القاهرة
١٣٠٥ هـ .
- ٥٤ — أرسطو طاليس : الأخلاق ، ترجمة اسحق بن حنين ، تحقيق
د. / عبد الرحمن بدوى وكالة المطبوعات ، الكويت ،
١٩٨٢ م .
- ٥٥ — آسسين بلانيوس : ابن عربى حياته ، مذهبه ، ترجمة
د. / عبد الرحمن بدوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ،
١٩٦٥ م .

- ٥٦ — الأنسبيلي (ابن سلام الباهلي) : الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥ م .
- ٥٧ — الأصفهاني (أبو نعيم) : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، مكتبة الخانجي والسعادة ، ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م ، وأيضا دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٦٧ م .
- ٥٨ — أفلاطون : الجمهورية ، ترجمة ودراسة د / فؤاد زكريا ، دار الكتب ، ١٩٧٤ .
- ٥٩ — الاهواني (د / أحمد فؤاد) : كتاب النفس لأرسطو طالييس ، مراجعة الأب جورج شحاته قنواي ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ — ١٩٦٢ م .
- ٦٠ — البخاري (أبي عبد الله محمد بن اسماعيل) : صحيح البخاري ، مطبعة الحلبي ، ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٨ م .
- ٦١ — برجسون (هنري) : منبع الأخلاق والدين ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٤٠ م .
- ٦٢ — بسيوني (د / ابراهيم) : الامام القشيري ، سيرته ، آثاره ، مذهبه في التصوف ، مطبوعات ، ١٣٩٢ هـ — ١٩٩٣ م .
- ٦٣ — ————— : نشأة التصوف الاسلامي ، دار المعارف ، ١٩٦٩ م .
- ٦٤ — البناني (أبي بكر) : اتحاف أهل العناية الربانية في اتخاذ طريق أهل الله وان تعددت مظاهر الحقانية ، المطبعة العامرة الشرقية ، ١٣٢٤ هـ .
- ٦٥ — ————— : تحفة أهل الفتوحات والأذواق ، مطبعة التقدم ، ١٩٧٧ م .
- ٦٦ — التاذلي (محمد بن يحيى) : ثلاث الجواهر في مناقب عبد القادر ، وبهامشه فتوح الغيب لمحيي الدين عبد القادر الجيلاني ، مطبعة مصطفى الحلبي ، الطبعة الثالثة ، ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م .
- ٦٧ — الترمذي (أبي عبد الله محمد) : صحيح الترمذي ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣١ م .

- ٦٨ — **الترمذى (أبى عبد الله محمد)** : كتاب الرياضة وآداب النفس ،
أخرجه د. / ج. أربري ، ود. / على حسن عبد القادر ،
مكتبة الحلبي ، ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م .
- ٦٩ — **التفتازانى (د. / أبو الوفا الغنيمى)** : ابن سبعين وفلسفة
الصوفية ، بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ، الطبعة
الأولى ، ١٩٧٣ م .
- ٧٠ — _____ : ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ، مكتبة
القاهرة الحديثة ، ١٩٥٨ م .
- ٧١ — _____ : مدخل الى التصوف الاسلامى ، دار الثقافة ،
١٩٧٤ م .
- ٧٢ — _____ : مقال بمجلة المعرفة ، عدد يونية ، ١٩٣١ م .
- ٧٣ — **التهانوى (محمد أعلى بن على)** : كشاف اصطلاحات الفنون ،
طبعة كلكته ، ١٨٦٢ م .
- ٧٤ — **التوحيدى (أبو حيان)** : الاشارات الالهية ، تحقيق و داد
القاضى ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٣ م .
- ٧٥ — **ج. أ. هادفيلد** : علم النفس والأخلاق ، تحليل نفسى للخلق ،
ترجمة محمد عبد الحميد ، مراجعة د. / عبد العزيز
القوصى ، مكتبة مصر ، ١٩٥٣ م .
- ٧٦ — **الجرجاني (الشريف على بن محمد)** : التعريفات ، مطبعة ،
دار الكتب المصرية ، ١٢٨٣ هـ .
- ٧٧ — **الجزار (د. / أحمد محمود)** : الأمام المجدد ابن باديس
والتصوف ، دار الوزان ، ١٩٨٨ م .
- ٧٨ — _____ : الفناء والحب الالهى ، مكتبة نهضة الشرق ،
١٩٩٠ م .
- ٧٩ — **الجيلانى (عبد القادر)** : الفتح الربانى والفيض الرحمانى ،
دار الكتب المصرية ، ١٣٤٦ هـ .
- ٨٠ — _____ : آداب المريدين ، المطبعة الرسمية التونسية ،
الطبعة الأولى ، ١٣١٣ هـ .

- ٨١ — **الحفنى (د. / عبد المنعم)** : معجم المصطلحات الصوفية ،
دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٨٣ م .
- ٨٢ — **الحكيم (د. / سعاد)** : المعجم الصوفى ، الحكمة فى حدود
الكلمة ، مطبعة دندرة ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٨١ م .
- ٨٣ — **حلمى (د. / محمد مصطفى)** : ابن الفارض والحب الالهى ،
مكتبة دار المعارف ، ١٩٧١ م .
- ٨٤ — _____ : الحب الالهى فى التصوف الاسلامى ، دار الكتب ،
١٩٦٠ م .
- ٨٥ — _____ : الحياة الروحية فى الاسلام ، دار احياء الكتب
العربية ، ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م .
- ٨٦ — _____ : علم التصوف ، القاهرة ، ١٩٨٣ م .
- ٨٧ — **ومحمد فوقى حجاج** : فى التصوف الاسلامى ،
دار الكتب ، ١٩٧٨ م .
- ٨٨ — **خورشيد (د. / ابراهيم زكى)** : دائرة المعارف الاسلامية ،
مكتبة دار الشعب ، ١٩٧٤ م .
- ٨٩ — **دسوقى (د. / كمال)** : ذخيرة علوم النفس ، الدار الدولية
للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩١ م .
- ٩٠ — **الدمياطى (أبى بكر السيد محمد شطا)** : كفاية الأتقياء ومنهاج
الأصفياء المطبعة الخيرية ، ١٣٠٣ هـ .
- ٩١ — **الذهبى (أبى عبد الله محمد بن أحمد)** : ميزان الاعتدال فى نقد
الرجال ، تحقيق على محمد البيجاوى ، مطبعة عيسى
الحلبى ، ١٩٦٤ م .
- ٩٢ — **رضا (محمد رشيد)** : تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ،
مطبعة المنار ، ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م .
- ٩٣ — **راضى (على عبد الجليل)** : الروحية عند ابن عربى ، مكتبة
نهضة مصر ، ١٩٤٦ م .
- ٩٤ — **رضوان (حسن)** : مطهرة النفوس وروضة القلوب ، دار
الكتب المصرية ، ١٩٢١ م .
- ٩٥ — **الرفاعى (أحمد)** : الفجر المنير ، مطبعة بولاق ، ١٣٠٠ م .

- ٩٦ — ————— : النظام الخاص لأهل الاختصاص ، المطبعة العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٣١٣ هـ .
- ٩٧ — زروق (أحمد بن محمد) : قواعد التصوف ، صححه محمد زهرى النجار ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٦٨ م .
- ٩٨ — السبكي (تاج الدين عبد الوهاب) : معيد النعم مبيد النقم ، مطبعة ليدن ، ١٩٠٨ م .
- ٩٩ — السبكي (محمود محمد خطاب) : العهد الوثيق لمن أراد سلوك الطريق ، مطبعة الفتوح الادبية ، القاهرة ، ١٩٣١ م .
- ١٠٠ — السراج (أبى نصر) : اللمع ، تحقيق د. / عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقي سرور ، دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٠ هـ .
- ١٠١ — سرور (طه عبد الباقي) : الحسين بن منصور الحلاج شهيد التصوف الاسلامي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٨١ م .
- ١٠٢ — السلمي (أبى عبد الرحمن) : طبقات الصوفية مطبعة ليدن ، ١٩٦٠ م .
- ١٠٣ — ————— : أصول الملامتية وغلطات الصوفية ، تحقيق عبد الفتاح أحمد الفاوى ، مكتبة الارشاد ، القاهرة ، ١٤٠٥ هـ — ١٩٨٤ م .
- ١٠٤ — السمانى (عبد المحمود نور الدائم) : النصرة العلمية لأهل الطريقة الصوفية ، دار الكتب ، ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م .
- ١٠٥ — السهروردى (نصر بن محمد بن ابراهيم) : بستان العارفين هامش على تنبيه السافلين ، مكتبة الجمهورية المصرية ، بدون تاريخ طبع .
- ١٠٦ — ————— : قرة العيون ومفرح القلب المحزون ، هامش على مختصر تذكرة الامام القرطبي ، تأليف عبد الوهاب الشعرانى ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأزهرية ، القاهرة ، ١٣٤٤ هـ — ١٩٢٦ م .
- ١٠٧ — السهروردى (أبو حفص شهاب الدين) : عوارف المعارف ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٧٤ م ، أو الجزء الخامس من احياء علوم الدين للغزالي ، مكتبة الحلبي ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٨ م .

- ١٠٨ - السهروردي (عبد القاهر أبو الفجيب) : آداب المريدين ، تحقيق محمد فهمي شلتوت ، القاهرة ، بدون تاريخ طبع .
- ١٠٩ - السيوطي (الحافظ) : الجامع الصغير ، دار الكتب ، ١٩٥٠ .
- ١١٠ - الشافعي (محمد بن علان) : دليل الفالحين لطرق ورياض الصالحين ، مكتبة مصطفى الحلبي ، ١٩٥٧ م .
- ١١١ - شحاتة (محمود مصطفى) : أهمية الذكر عند الصوفية مؤيد بالكتاب والسنة ، ابن تيمية وابن قيم الجوزية ، دار الكتب ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- ١١٢ - الشرباصي (د. / أحمد) : في رحاب الصوفية ، دار التأليف ، ١٩٥٠ م .
- ١١٣ - شرف (د. / محمد جلال) : التصوف الاسلامي في مدرسة بغداد ، دار المطبوعات الجامعية بالاسكندرية ، ١٩٧٥ م .
- ١١٤ - _____ : دراسات في التصوف الاسلامي ، شخصيات ومذاهب الاسكندرية ، دار الفكر العربي ، بدون تاريخ .
- ١١٥ - الشرنوبلي (د. / عبد المجيد) : شرح تائية السلوك الى ملك الملوك وبهامشة شرح حكم ابن عطاء الله السكندري ، القاهرة ، ١٨٨٧ م .
- ١١٦ - الشعرائي (عبد الوهاب) : تنبيه المغترين وبهامشه الكشف والتبيين ، المطبعة المحمودية ، ١٣١٥ هـ .
- ١١٧ - _____ : الطبقات الكبرى المسماه بلوائح الأنوار ، وبهامشة كتاب الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية ، مكتبة صبيح ، القاهرة ، ١٣٤٣ هـ .
- ١١٨ - _____ : لوائح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية ، وبهامشه البحر المورود في المواثيق والعهود ، المطبعة الميمنية ، ١٣٢١ هـ .
- ١١٩ - الشيرازي (صدر الدين محمد ابراهيم) : رسالة في علم الأخلاق ، مطبعة الموسوعات ، ١٣١٩ هـ .
- ١٢٠ - صبحي (د. / أحمد محمود) : الفلسفة الأخلاقية في الفكر الاسلامي ، الذوقيون والعقليون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ م .

- ١٢١ — صبحى (د. / أحمد محمود) : التصوف ايجابيات وسلبيات ،
دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ م .
- ١٢٢ — الطاهر (محمد بن مسعود) : رسالة المنطق الفهوانى ، مطبعة
كردستان العلمية ، ١٩٥٠ م .
- ١٢٣ — طاهر (د. / محيى الدين عبد الحميد) : سيكولوجية الاخوة
والصداقة عند صوفية الاسلام ، مكتبة الأنطو المصرية ،
١٩٩٢ م .
- ١٢٤ — الطرابلسى (عبد القادر) : إحياء القلوب ، المطبعة العلمية ،
١٣١٥ هـ .
- ١٢٥ — الطرطوشى (أبو بكر محمد بن الوليد) : سراج الملوك
وبهامشه التبر المسبوك فى نصائح الملوك ، المطبعة
الخيرية ، ١٣٠٦ هـ .
- ١٢٦ — عامر (د. / كوكب) : السماع عند الصوفية خاصة
الغزالي ، مطبعة اخوان زريق ، ١٩٨٨ م .
- ١٢٧ — العاملى (محمد بهاء الدين) : الكشف ، دار الكتب ، ١٩٢٢ م .
- ١٢٨ — عبد العزيز (هشام) : بوارق الألماع فى تكفير من يحرم
السماع ، نص لأحمد الغزالي الشقيق الأكبر لأبو حامد
الغزالي ، مجلة القاهرة ، عدد ١٤٨ مارس ، ١٩٩٥ م .
- ١٢٩ — العراقى (د. / محمد عاطف) : الفلسفة الاسلامية ، دار
المعارف ، ١٩٧٨ م .
- ١٣٠ — : مذاهب فلاسفة المشرق ، الطبعة السادسة ،
دار المعارف ، ١٩٧٨ م .
- ١٣١ — عزام (د. / عبد الوهاب) : التصوف وفريد الدين العطار ،
دار احياء الكتب العربية ، مطبعة عيسى الحلبي ، ١٣٦٤ هـ
— ١٩٤٥ م .
- ١٣٢ — عطيه (أحمد) : القاموس الاسلامى ، مكتبة النهضة
المصرية ، ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م .
- ١٣٣ — عفيفى (د. / أبو العلا) : التصوف ، الثورة الروحية فى
الاسلام ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٣ م .

- ١٣٤ — عكاشة (د. / أحمد) : علم النفس الفسيولوجي ، دار المعارف ، ١٩٦٨ م .
- ١٣٥ — الغزالي (أبو حامد) : احياء علوم الدين ، مكتبة الحلبي ، ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م .
- ١٣٦ — : بداية الهداية ، مكتبة الحلبي ، الطبعة الثالثة ، ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م .
- ١٣٧ — : تهافت الفلاسفة ، تحقيق الفلاسفة ، تحقيق د. / سليمان دنيا ، دار المعارف ، ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٦ م .
- ١٣٨ — : رسالة الأدب في الدين ، مطبعة كردستان العلمية ، ١٩٥٠ م .
- ١٣٩ — الغزالي (أبو حامد) : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، تصحيح محمد بخيت ، دار الكتب ، ١٩٣٩ م .
- ١٤٠ — : العقود والآلئ من رسائل الامام الغزالي ، المطبعة المحمودية ، ١٩٣٤ م .
- ١٤١ — : مجموعة الرسائل روضة الطالبين وعمدة السالكين ، قواعد العقائد في التوحيد ، خلاصة التصانيف في التصوف ، دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان ، ١٤٠٦ هـ .
- ١٤٢ — : المحبة والشوق والانس والرضا ، مكتبة الحلبي ، ١٣٨٠ هـ — ١٩٦١ م .
- ١٤٣ — : المرشد الأمين الى موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين ، الطبعة الثالثة ، مطبعة الحلبي ، ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .
- ١٤٤ — : معارج القدس في مدارج النفس ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٥٦ م .
- ١٤٥ — : مكاشفة القلوب المقرب الى حضرة عسلام الغيوب ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٨٠ م .
- ١٤٦ — : المنقذ من الضلال ومعه كمياء السعادة والقواعد العشر والأدب في الدين ، بقلم أنيس منصور ، مكتبة الجندي ، ١٩٧٣ م .

- ١٤٧ — **الفزالي (أبو حامد)** : منهاج العابدين الى الجنة ، المطبعة الكاستلية ، ١٢٨٨ هـ .
- ١٤٨ — _____ : التبر المسبوك في نصائح الملوك ، المطبعة الخيرية ، ١٣٠٦ هـ .
- ١٤٩ — **غلاب (د. / محمد) ، ود. / توفيق الطويل** : الكتاب التذكارى ، محيى الدين ابن عربى فى الذكرى المئوية الثامنة ليلاده ، دار الكتاب العربى ، ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .
- ١٥٠ — **غنى (د. / قاسم)** : تاريخ التصوف فى الاسلام ، ترجمة صادق نشأت ، مراجعة أحمد ناجى القيسى ، ود. / محمد مصطفى حلمى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ م .
- ١٥١ — **الفنيمى (د. / نجاح محمود)** : المناظر الالهية ، عبد الكريم الجبلى ، دار المنار ، ١٩٧٨ م .
- ١٥٢ — **المقادري (ابراهيم بن محمد الحمسينى)** : لسان البيان ومثل العرفان فى الاسلام والايمان والاحسان ، مطبعة الظاهر ، ١٣٢٣ م .
- ١٥٣ — **القشيري (عبد الكريم بن هوازن)** : ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى ، تحقيق ابراهيم بسيونى ، مطبعة التيسير ، ١٩٨٥ م .
- ١٥٤ — _____ : الرسالة القشيرية فى علم التصوف وبهامشه شرح شيخ الاسلام زكريا الأنصارى ، مطبعة على صبيح ، ١٩٧٢ م ، تحقيق د. / عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشريف ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٤ م .
- ١٥٥ — _____ : شرح أسماء الله الحسنى ، تحقيق وشرح أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى ، القاهرة ، مجمع البحوث الاسلامية ، ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م .
- ١٥٦ — _____ : لطائف الاشارات ، تفسير صوفى كامل للقرآن الكريم ، تحقيق د. / ابراهيم بسيونى ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ م .
- ١٥٧ — **القوصى (أحمد حنفى نصار)** : مع التصوف الاسلامى ، معارج ونماذج ، دار وهدان للطباعة ، ١٩٩٢ م .
- ١٥٨ — **الكاشانى (عبد الرزاق)** : اصطلاحات الصوفية ، تحقيق

- عبد الخالق محمود ، دار المعارف ، ١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م ،
وانظر تحقيق محمود كامل جعفر .
- ١٥٩ — **الكلاباذي (أبو بكر محمد)** : التعرف لمذهب أهل التصوف ،
تحقيق محمود أمين النواوي ، الطبعة الثانية ، مكتبة
الكلبيات الأزهرية ، ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م .
- ١٦٠ — **ماسينون (وب كراوس)** : أخبار الحلاج أو مناجيات الحلاج ،
مطبعة القلم ، ١٩٣٦ م .
- ١٦١ — **ماسينون (لويس)** : الاسلام والتصوف ، ومصطفى
عبد الرازق ، اعداد ابراهيم زكي خورشيد ، د. /
عبد الحميد يونس ، دار الشعب ، ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م .
- ١٦٢ — **الموردي (أبي الحسن البصري)** : كتاب آدب الدنيا والدين ،
المطبعة الأميرية ، ١٣٤١ هـ — ١٩٢٣ م .
- ١٦٣ — **مبارك (د. / زكي)** : التصوف الاسلامي في الأدب والأخلاق ،
مكتبة دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٣٧٣ هـ —
١٩٥٤ م أو مطبعة الاعتماد ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م .
- ١٦٤ — **الحاسبى (الحارث بن أسد)** : كتاب التوهم ، دار الوعي ،
حلب ، ١٣٩٩ هـ .
- ١٦٥ — _____ : الرعاية لحقوق الله ، تحقيق د. / عبد الحليم
محمود ، مكتبة دار الكتب الحديثة بالقاهرة ، والمتنبى
ببغداد ، ١٩٦٠ م .
- ١٦٦ — _____ : المسائل في أعمال القلوب والجوارح والمكاسب
والعقل ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، الطبعة الأولى ،
مكتبة عالم الكتب ، ١٩٦٩ م .
- ١٦٧ — _____ : الوصايا أو النصائح الدينية والنفحات
القدسية ، تحقيق عبد القادر أحمد عطاء ، مكتبة على
صبيح ، ١٩٦٦ م .
- ١٦٨ — **المروزي (عبد الله بن المبارك)** : كتاب الزهد والرفائق حققه
حبيب الرحمن الأعظمي ، بيروت ، ١٩٧٤ م .
- ١٦٩ — **مراد (د. / يوسف)** : مبادئ علم النفس ، الطبعة الأولى ،
دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ م .
- ١٧٠ — **المسلوت (د. / محمد عبد الرحمن)** : موقف المسلم من

- التصوف ، الطبعة الاولى ، دار الهدى ، ١٤٠١ هـ -
١٩٨١ م .
- ١٧١ - مسلم (الامام) : صحيح مسلم ، مكتبة الحلبي ، القاهرة ،
١٣٠٤ هـ .
- ١٧٢ - المكي (أبو طالب) : علم القلوب ، تحقيق عبد القادر أحمد
عطا ، مكتبة القاهرة ، ١٩٦٥ م .
- ١٧٣ - ————— : قوت القلوب في معاملة المحبوب ، مكتبة مصطفى
البابى الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .
- ١٧٤ - المناوي (عبد الرزوف) : الكواكب الدرية ، مكتبة الأزهر ١٣٥٧ هـ
١٩٣٨ م .
- ١٧٥ - المتوفى (محمود أبو الفيض) : التصوف الاسلامي الخالص ،
دار نهضة مصر ، ١٩٨٠ .
- ١٧٦ - المتوفى (محمود أبو الفيض) : التمكن في شرح منازل
السائرين ، لأبي اسماعيل الأنصاري الهروي ، دار نهضة
مصر للطباعة والنشر ، ١٩٦٩ م .
- ١٧٧ - النابلسي (عبد الغني) : الحديقة الندية شرح الطريقة
المحمدية ، دار الكتب ، ١٩٢١ م .
- ١٧٨ - نجاتي (د. / محمد عثمان) : الادراك الحسي عند ابن سينا ،
دار الشروق ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٨٠ م .
- ١٧٩ - النجار (د. / عامر) : الطرق الصوفية في مصر ، نشأتها ،
ونظمها وروادها ، (الرفاعي - الجيلاني - البدوي -
الشاذلي - الدسوقي) ، دار المعارف ، الطبعة
الثامنة ، ١٩٨٠ .
- ١٨١ - النفري (محمد عبد الجبار) : كتاب المواقف والمخاطبات ،
تصحيح آرثر يوحنا أبري ، دار الكتب ، ١٩٣٤ م .
- ١٨٢ - النبال (محمد البيهلي) : الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي ،
مكتبة النجاح ، ١٩٧٥ م .
- ١٧٣ - نيكلسون (رينولد) : الصوفية في الاسلام ، ترجمة
نور الدين حسين شريفة ، مكتبة ١٣٧١ هـ - ١٩٥١ م .
- ١٨٤ - ————— : في التصوف الاسلامي وتاريخه ، طائفة من

الدراسات ، تعليق أبو العلا عفيفي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٩ م .

١٨٥ — الهروي (أبي اسماعيل الأنصاري) : كشف القناع عن حكم الوجد والسماع ، تحقيق ودراسة قسم التحقيق بدير الدومينكين ، دار الصحابة للتراث بطنطا ، ١٩٩٢ م .

١٨٦ — الهجويري (أبو حسن بن عثمان الجلاء) : كشف المحجوب ، دراسة وترجمة د. / اسعاد عبد الهادي قنديل ، مراجعة الترجمة د. / أمين عبد المجيد بدوي ، اشراف محمد توفيق عويضة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٧٤ م .

١٨٧ — الهيتي (ابن حجر) : كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع ، حكم الاسلام في الغناء والموسيقى والشطرنج ، تحقيق عادل عبد المنعم أبو العباس ، مكتبة القرآن ، ١٩٨٩ م .

ب — الرسائل العلمية :

١ — الترجمان (سهيلة عبد الباعث) : نظرية الانسان بالكامل عند عبد الكريم الجيلي ، رسالة ماجستير ، اشراف أ. د / أبو الوفا التفتازاني ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ م .

٢ — سليمان (مسعد أمين) : الفكر الصوفي عند اخوان الصفا ، رسالة ماجستير ، اشراف أ. د / محمد عاطف العراقي ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٣ م .

٣ — طاهر (محيي الدين عيد الحميد) : أبي مدين المغربي ، حياته وتصوفه ، رسالة دكتوراه ، اشراف أ. د / أبو الوفا التفتازاني ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٥ م .

٤ — عبد الباري (عبد الباري محمد) : الفناء عند صوفية الاسلام ، رسالة دكتوراه ، اشراف أ. د / محمد جلال شرف ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٩٢ م .

٥ — عبد الحميد (فاطمة فؤاد) : مقام التوكل عند صوفية الاسلام ، رسالة ماجستير ، اشراف أ. د / محمد عاطف العراقي ، آداب بناها ، جامعة الزقازيق ، ١٩٩٣ م .

٦ - ياسين (ابراهيم ابراهيم) : حال الفناء في التصوف الاسلامي،
رسالة ماجستير ، اشراف ٠٥٠٩ / أبو الوفا التفتازاني ،
جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ م .

ذ - المصادر الأجنبية :

1. *Al-R-Hartman* : Kusharits sufitums, perlin, 1914.
2. *Nicholson (R.)* : The mystics of Islam, Khayats, 1966.
3. *Nicholson (R.)* : « Sufis » Encyclopedia of Religion and Ethics, 1914.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧	الامداء
٩	تصدير
١٣	مقدمة
١٨	الفصل الاول : تطور معانى السماع عند صوفية الاسلام
١٩	تمهيد
٢٠	أولا : تعريف السماع
٢٣	ثانيا : السماع والكتاب والسنة
٢٦	ثالثا : معنى السماع عند زهاد القرنين الاول والثانى للهجرة
٣٢	رابعا : معنى السماع عند صوفية القرنين الثالث والرابع للهجرة
٣٦	خامسا : معنى السماع عند الصوفية السنيين
٤٣	سادسا : معنى السماع عند الصوفية المتفلسفين منذ القرنين السادس والسابع للهجرة
٥١	سابعا : موقف الفقهاء ورجال الدين من السماع خاصة عند الصوفية
٥٩	الفصل الثانى : صلة السماع بالمناحية النفسية
٦١	تمهيد
٦٢	أولا : شعور الصوفى بالسماع

الموضوع . .	الصفحة
ثانيا : السماع والاستعداد النفسى	٦٩
ثالثا : السماع والرياضات الروحية الأخرى	٧٧
رابعا : السماع وتأثيره فى نفس المستمع (الموسيقى - الحركة - الرقص - تقطيع الخرقة)	٨١
الفصل الثالث : صلة السماع بالترقى الأخلاقى وآداب السلوك	١٠١
تمهيد :	١٠٣
أولا : السماع والنفس الانسانية	١٠٤
ثانيا : السماع ورياضة النفس أخلاقيا	١٠٨
ثالثا : السماع وآداب السلوك	١١٤
رابعا : السماع والآداب الباطنة	١٢٤
الفصل الرابع : صلة السماع بالمقامات والأحوال	١٢٩
تمهيد :	١٣١
أولا : السماع والمقامات :	١٣٢
١ - السماع ومقام التوبة	١٣٢
٢ - السماع ومقام الورع	١٣٣
٣ - السماع ومقام الزهد	١٣٤
٤ - السماع ومقام الفقر	١٣٥
٥ - السماع ومقام الشكر	١٣٨
٦ - السماع ومقام التوكل	١٣٩
ثانيا : السماع والأحوال	١٤٠
١ - السماع وحال الذكر	١٤٠
٢ - السماع وحال بقين القلب وحضوره :	١٤٥

الموضوع	الصفحة
٣ - السماع وحال الأنس	١٤٦
٤ - السماع وحال الخوف	١٤٧
٥ - السماع وحال الاستمرارية	١٥٠
٦ - السماع وحال الوصول	١٥٠
٧ - السماع وحال الثبات والتمكين	١٥١
٨ - السماع والمحبة الإلهية	١٥٢
٩ - السماع وحال الغناء والبقاء	١٥٥
الفصل الخامس : صلة السماع بالمعرفة والوجود	١٦٢
تمهيد :	١٦٣
أولاً ! السماع والتحقق بالمعرفة	١٦٤
١ - السماع وأداة المعرفة	١٦٧
٢ - السماع والكشف الصوفي	١٦٩
٣ - السماع وموضوع المعرفة	١٧٢
٤ - السماع وغاية المعرفة	١٧٣
ثانياً : السماع وشهود الأحدية فى الوجود	١٧٧
ثالثاً : السماع والاتحاد والحلول عند الصوفية الشطاح	١٨٠
رابعاً : السماع عند الصوفية المتفلسفين من أصحاب	
الوحدة	١٨٣
١ - وحدة الشهود	١٨٣
٢ - وحدة الوجود	١٨٥
السماع - ٢٨٧	

الموضوع	الصفحة
خاتمة	١٩١
ثبت المصادر والمراجع	١٩٧
أولا : المخطوطات العربية	١٩٧
ثانيا : ١ - المصادر والمراجع العربية	١٩٨
ب - الرسائل العلمية	٢١٣
ج - المصادر الأجنبية	٢١٤

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٠٦٩١/١٩٩٧

ISBN — 977 — 01 — 5447 — 4

سبق الصوفية علماء النفس فى إدراك الأهمية النفسية
 للسمع الحسن من حيث إنهم ذهبوا إلى أن السمع فيه رقة
 القلب ولطفه وصرفه عن القسوة ونقاؤه من الأحقاد ولقد عني
 هذا الكتاب بدراسة وعرض موقف الصوفية منذ الزهاد الأوائل
 حتى الصوفية المتفلسفين وآراء أئمة الفقه حول سماع القرآن
 والإنشاد الدينى وبيان أن السمع الحق يكون للقرآن الكريم،
 وأيضاً مجالس العلم والحكمة ، السمع الصحيح يعمل على
 ترقية الأخلاق والتوازن النفسى فالسمع غذاء الروح. ويعتبر
 الصوفية السمع إحدى الرياضات الروحية التى يمارسها المريد
 من أجل التطهر والصفاء.